

وصايا الإمام الصادق (ع)

للسالك الصادق

ترجمة: عباس نور الدين



وصايا الإمام الصادق (ع)
للسالك الصادق

وصايا الإمام الصادق (ع)

للسالك الصادق

آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي

ترجمة: السيد عباس نور الدين

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-108-8

[٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org



تصميم:

زينب ن ترمس

إخراج فني

إبراهيم شحوري





الفهرس

مقدمة الناشر

كتاب **وصايا الإمام الصادق (ع) للسالك الصادق** هو الكتاب السادس من سلسلة الأعمال الكاملة لآية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي (حفظه الله)، والتي يعمل دار المعارف الحكميّة على إصدارها تباعًا.

والكتاب عبارة عن ثمانية وعشرين درسًا يشرح فيها سماحة الشيخ وصيةً قيّمةً للإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصى بها عبد الله بن جندب، وهي من الوصايا التي تحمل في طيّاتها الكثير من الدروس والعبر التي تعين السالك في رحلته التكاملية، ويصح منا أن نقول إن كل واحد من مطالب هذا الكتاب يُعتبر كنزًا نفيسًا وثروةً لا تفنى وسبيل هداية لأتباع أهل البيت الصادقين.

نسأل الله أن يوفقنا وقراء هذا الكتاب إلى الاقتداء بتوجيهات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حق الاقتداء إنه سميع الدعاء.

والله وليّ التوفيق



نص وصية الإمام جعفر الصادق (ع)
لعبد الله بن جُندب

رُوِيَ أَنَّهُ (ع) قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَقَدْ نَصَبَ إِبْلِيسُ حَبَائِلَهُ فِي دَارِ الْغُرُورِ فَمَا يَقْصِدُ فِيهَا إِلَّا أَوْلِيَاءَنَا، وَلَقَدْ جَلَّتِ الْآخِرَةُ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى مَا يُرِيدُونَ بِهَا بَدَلًا، ثُمَّ قَالَ: آهِ آهِ عَلَى قُلُوبٍ حُشِيَتْ نُورًا وَإِنَّمَا كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشُّجَاعِ الْأَرْقَمِ وَالْعَدُوِّ الْأَعْجَمِ، أَنِسُوا بِاللَّهِ وَاسْتَوْحَشُوا مِمَّا بِهِ اسْتَأْنَسَ الْمُتْرَفُونَ، أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا وَبِهِمْ تُكْشَفُ كُلُّ فِتْنَةٍ وَتُرْفَعُ كُلُّ بَلِيَّةٍ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنَا أَنْ يَعْرِضَ عَمَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ مُحَاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَزَادَ مِنْهَا وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لِئَلَّا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، طُوبَى لِعَبْدٍ لَمْ يَغْبِطِ الْخَاطِئِينَ عَلَى مَا أُوتُوا مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، طُوبَى لِعَبْدٍ طَلَبَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا، طُوبَى لِمَنْ لَمْ تُلْهِهِ الْأَمَانِيُّ الْكَاذِبَةُ، ثُمَّ قَالَ (ع): رَحِمَ اللَّهُ قَوْمًا كَانُوا سِرَاجًا وَمَنَارًا، كَانُوا دُعَاةً إِلَيْنَا بِأَعْمَالِهِمْ وَمَجْهُودِ طَاقَتِهِمْ، لَيْسَ كَمَنْ يُذِيعُ أَسْرَارَنَا.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ وَيُشْفِقُونَ أَنْ يُسْلَبُوا مَا أُعْطُوا مِنَ الْهُدَى، فَإِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَنَعْمَاءَهُ وَجِلُوا وَأَشْفَقُوا، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ مِمَّا أَظْهَرَهُ مِنْ نَفَاذِ قُدْرَتِهِ، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، قَدِيمًا عَمِرَ الْجَهْلُ وَقَوِيَ أَسَاسُهُ وَذَلِكَ لِاتِّخَاذِهِمْ دِينَ اللَّهِ لَعِبًا، حَتَّى لَقَدْ كَانَ الْمُتَقَرِّبُ مِنْهُمْ إِلَى اللَّهِ بِعِلْمِهِ يُرِيدُ سِوَاهُ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، لَوْ أَنَّ شِيعَتَنَا اسْتَقَامُوا لَصَافَحَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَأَظَلَّهُمُ الْغَمَامُ وَلَأَشْرَقُوا نَهَارًا وَلَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَلَمَا سَأَلُوا اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُمْ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، لَا تَقُلْ فِي الْمُذْنِبِينَ مِنْ أَهْلِ دَعْوَتِكُمْ إِلَّا خَيْرًا، وَاسْتَكِينُوا إِلَى اللَّهِ فِي تَوْفِيقِهِمْ وَسَلُوا التَّوْبَةَ لَهُمْ، فَكُلُّ مَنْ قَصَدَنَا وَوَالانَا وَلَمْ يُوَالِ عَدُوَّنَا وَقَالَ مَا يَعْلَمُ وَسَكَتَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَوْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، يَهْلِكُ الْمُتَّكِلُ عَلَى عَمَلِهِ وَلَا يَنْجُو الْمُجْتَرِئُ عَلَى الذُّنُوبِ الْوَاثِقُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، قُلْتُ: فَمَنْ يَنْجُو، قَالَ: الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي مِخْلَبِ طَائِرٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَوِّجَهُ اللَّهُ الْحُورَ الْعِينَ وَيُتَوِّجَهُ بِالنُّورِ فَلْيُدْخِلْ عَلَى أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ السُّرُورَ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، أَقِلَّ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ وَالْكَلَامَ بِالنَّهَارِ، فَمَا فِي الْجَسَدِ شَيْءٌ أَقَلَّ شُكْرًا مِنَ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ فَإِنَّ أُمَّ سُلَيْمَانَ قَالَتْ لِسُلَيْمَانَ (ع): يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالنَّوْمَ فَإِنَّهُ يُفْقِرُكَ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَائِدَ يَصْطَادُ بِهَا فَتَحَامَوْا شِبَاكَهُ وَمَصَائِدَهُ، قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَمَّا مَصَائِدُهُ فَصَدٌّ عَنْ بِرِّ الْإِخْوَانِ، وَأَمَّا شِبَاكُهُ فَنَوْمٌ عَنْ قَضَاءِ الصَّلَوَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ، أَمَا إِنَّهُ مَا يُعْبَدُ اللَّهُ بِمِثْلِ نَقْلِ

الْأَقْدَامِ إِلَى بِرِّ الْإِخْوَانِ وَزِيَارَتِهِمْ، وَيْلٌ لِلسَّاهِينَ عَنِ الصَّلَوَاتِ النَّائِمِينَ فِي الْخَلَوَاتِ الْمُسْتَهْزِءِينَ بِاللهِ وَآيَاتِهِ فِي الْفَتَرَاتِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ [...] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، مَنْ أَصْبَحَ مَهْمُومًا لِسِوَى فَكَاكِ رَقَبَتِهِ فَقَدْ هَوَّنَ عَلَيْهِ الْجَلِيلَ وَرَغِبَ مِنْ رَبِّهِ فِي الرِّبْحِ الْحَقِيرِ، وَمَنْ غَشَّ أَخَاهُ وَحَقَّرَهُ وَنَاوَأَهُ جَعَلَ اللَّهُ النَّارَ مَأْوَاهُ، وَمَنْ حَسَدَ مُؤْمِنًا انْمَاثَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، الْمَاشِي فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَالسَّاعِي بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَاضِي حَاجَتِهِ كَالْمُتَشَحِّطِ بِدَمِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، وَمَا عَذَّبَ اللَّهُ أُمَّةً إِلَّا عِنْدَ اسْتِهَانَتِهِمْ بِحُقُوقِ فُقَرَاءِ إِخْوَانِهِمْ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، بَلِّغْ مَعَاشِرَ شِيعَتِنَا وَقُلْ لَهُمْ لَا تَذْهَبَنَّ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ فَوَاللهِ لَا تُنَالُ وَلَايَتُنَا إِلَّا بِالْوَرَعِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَمُوَاسَاةِ الْإِخْوَانِ فِي اللهِ، وَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا مَنْ يَظْلِمُ النَّاسَ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، إِنَّمَا شِيعَتُنَا يُعْرَفُونَ بِخِصَالٍ شَتَّى، بِالسَّخَاءِ وَالْبَذْلِ لِلْإِخْوَانِ وَبِأَنْ يُصَلُّوا الْخَمْسِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا، شِيعَتُنَا لَا يَهِرُّونَ هَرِيرَ الْكَلْبِ وَلَا يَطْمَعُونَ طَمَعَ الْغُرَابِ وَلَا يُجَاوِرُونَ لَنَا عَدُوًّا وَلَا يَسْأَلُونَ لَنَا مُبْغِضًا وَلَوْ مَاتُوا جُوعًا، شِيعَتُنَا لَا يَأْكُلُونَ الْجِرِّيَّ وَلَا يَمْسَحُونَ عَلَى الْخُفَّيْنِ وَيُحَافِظُونَ عَلَى الزَّوَالِ وَلَا يَشْرَبُونَ مُسْكِرًا، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَأَيْنَ أَطْلُبُهُمْ؟ قَالَ (ع): عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَأَطْرَافِ الْمُدُنِ وَإِذَا دَخَلْتَ مَدِينَةً فَسَلْ عَمَّنْ لَا يُجَاوِرُهُمْ وَلَا يُجَاوِرُونَهُ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ حَبِيبُ النَّجَّارِ وَحْدَهُ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، كُلُّ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ سِوَى عُقُوقِ أَهْلِ دَعْوَتِكَ، وَكُلُّ الْبِرِّ مَقْبُولٌ إِلَّا مَا كَانَ رِئَاءً.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، أَحْبِبْ فِي اللَّهِ وَاسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَاعْتَصِمْ بِالْهُدَى يُقْبَلْ عَمَلُكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ فَلَا يُقْبَلُ إِلَّا الْإِيمَانُ، وَلَا إِيمَانَ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِيَقِينٍ، وَلَا يَقِينَ إِلَّا بِالْخُشُوعِ، وَمِلَاكُهَا كُلُّهَا الْهُدَى، فَمَنِ اهْتَدَى يُقْبَلُ عَمَلُهُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَلَكُوتِ مُتَقَبَّلًا ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُجَاوِرَ الْجَلِيلَ فِي دَارِهِ وَتَسْكُنَ الْفِرْدَوْسَ فِي جِوَارِهِ فَلْتَهُنْ عَلَيْكَ الدُّنْيَا وَاجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ وَلَا تَدَّخِرْ شَيْئًا لِغَدٍ وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَا قَدَّمْتَ وَعَلَيْكَ مَا أَخَّرْتَ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، مَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ كَسْبَهُ فَإِنَّمَا يَجْمَعُ لِغَيْرِهِ، وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ فَقَدْ أَطَاعَ عَدُوَّهُ، مَنْ يَثِقْ بِاللَّهِ يَكْفِهِ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَيَحْفَظْ لَهُ مَا غَابَ عَنْهُ، وَقَدْ عَجَزَ مَنْ لَمْ يُعِدَّ لِكُلِّ بَلَاءٍ صَبْرًا وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ شُكْرًا وَلِكُلِّ عُسْرٍ يُسْرًا، صَبِّرْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ بَلِيَّةٍ فِي وَلَدٍ أَوْ مَالٍ أَوْ رَزِيَّةٍ، فَإِنَّمَا يَقْبِضُ عَارِيَتَهُ وَيَأْخُذُ هِبَتَهُ لِيَبْلُوَ فِيهِمَا صَبْرَكَ وَشُكْرَكَ، وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَا يُجَرِّيكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَخَفْهُ خَوْفًا لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِقَوْلِ الْجَاهِلِ وَلَا بِمَدْحِهِ فَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَتُعْجَبَ بِعَمَلِكَ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ الْعِبَادَةُ وَالتَّوَاضُعُ، فَلَا تُضَيِّعْ مَالَكَ وَتُصْلِحَ مَالَ غَيْرِكَ مَا خَلَّفْتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكَ، وَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَّا إِلَى مَا عِنْدَكَ وَلَا تَتَمَنَّ مَا لَسْتَ تَنَالُهُ، فَإِنَّ مَنْ قَنِعَ شَبِعَ وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ لَمْ يَشْبَعْ، وَخُذْ حَظَّكَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلَا تَكُنْ بَطِرًا فِي الْغِنَى وَلَا جَزِعًا فِي الْفَقْرِ، وَلَا تَكُنْ فَظًّا غَلِيظًا يَكْرَهُ

النَّاسُ قُرْبَكَ، وَلَا تَكُنْ وَاهِنًا يُحَقِّرُكَ مَنْ عَرَفَكَ، وَلَا تُشَارَّ مَنْ فَوْقَكَ وَلَا تَسْخَرْ بِمَنْ هُوَ دُونَكَ، وَلَا تُنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَلَا تُطِعِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَكُنْ مَهِينًا تَحْتَ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا تَتَّكِلَنَّ عَلَى كِفَايَةِ أَحَدٍ، وَقِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ، وَاجْعَلْ قَلْبَكَ قَرِيبًا تُشَارِكُهُ، وَاجْعَلْ عَمَلَكَ وَالِدًا تَتَّبِعُهُ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ عَدُوًّا تُجَاهِدُهُ وَعَارِيَةً تَرُدُّهَا، فَإِنَّكَ قَدْ جُعِلْتَ طَبِيبَ نَفْسِكَ وَعُرِّفْتَ آيَةَ الصِّحَّةِ وَبُيِّنَ لَكَ الدَّاءُ وَدُلِلْتَ عَلَى الدَّوَاءِ، فَانْظُرْ قِيَامَكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدَ إِنْسَانٍ فَلَا تُفْسِدْهَا بِكَثْرَةِ الْمَنِّ وَالذِّكْرِ لَهَا وَلَكِنْ أَتْبِعْهَا بِأَفْضَلَ مِنْهَا فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَلُ بِكَ فِي أَخْلَاقِكَ وَأَوْجَبُ لِلثَّوَابِ فِي آخِرَتِكَ، وَعَلَيْكَ بِالصَّمْتِ تُعَدَّ حَلِيمًا، جَاهِلًا كُنْتَ أَوْ عَالِمًا، فَإِنَّ الصَّمْتَ زَيْنٌ لَكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَسَتْرٌ لَكَ عِنْدَ الْجُهَّالِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ (ع) قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِأَخِيهِ فَرَأَى ثَوْبَهُ قَدِ انْكَشَفَ عَنْ بَعْضِ عَوْرَتِهِ أَكَانَ كَاشِفًا عَنْهَا كُلِّهَا أَمْ يَرُدُّ عَلَيْهَا مَا انْكَشَفَ مِنْهَا، قَالُوا: بَلْ نَرُدُّ عَلَيْهَا، قَالَ: كَلَّا بَلْ تَكْشِفُونَ عَنْهَا كُلِّهَا، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مَثَلٌ ضَرَبَهُ لَهُمْ، فَقِيلَ: يَا رُوحَ اللَّهِ وَكَيْفَ ذَلِكَ، قَالَ: الرَّجُلُ مِنْكُمْ يَطَّلِعُ عَلَى الْعَوْرَةِ مِنْ أَخِيهِ فَلَا يَسْتُرُهَا، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَا تُصِيبُونَ مَا تُرِيدُونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ وَلَا تَنَالُونَ مَا تَأْمُلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ، إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً، طُوبَى لِمَنْ جَعَلَ بَصَرَهُ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ بَصَرَهُ فِي عَيْنِهِ، لَا تَنْظُرُوا فِي عُيُوبِ النَّاسِ كَالْأَرْبَابِ وَانْظُرُوا فِي عُيُوبِكُمْ كَهَيْئَةِ الْعَبِيدِ، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا الْمُبْتَلَى وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْعَافِيَةِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ سَبَّكَ وَأَنْصِفْ مَنْ خَاصَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ كَمَا أَنَّكَ تُحِبُّ أَنْ يُعْفَى عَنْكَ، فَاعْتَبِرْ بِعَفْوِ اللهِ عَنْكَ، أَلَا تَرَى أَنَّ شَمْسَهُ أَشْرَقَتْ عَلَى الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَأَنَّ مَطَرَهُ يَنْزِلُ عَلَى الصَّالِحِينَ وَالْخَاطِئِينَ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، لَا تَتَصَدَّقْ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لِيُزَكُّوكَ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَوْفَيْتَ أَجْرَكَ، وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَ بِيَمِينِكَ فَلَا تُطْلِعْ عَلَيْهَا شِمَالَكَ فَإِنَّ الَّذِي تَتَصَدَّقُ لَهُ سِرًّا يُجْزِيكَ عَلَانِيَةً عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي لَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا يُطْلِعَ النَّاسَ عَلَى صَدَقَتِكَ، وَاخْفِضِ الصَّوْتَ إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ قَدْ عَلِمَ مَا تُرِيدُونَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ، وَإِذَا صُمْتَ فَلَا تَغْتَبْ أَحَدًا وَلَا تَلْبِسُوا صِيَامَكُمْ بِظُلْمٍ، وَلَا تَكُنْ كَالَّذِي يَصُومُ رِئَاءَ النَّاسِ مُغْبَرَّةً وُجُوهُهُمْ شَعِثَةً رُؤُوسُهُمْ يَابِسَةً أَفْوَاهُهُمْ لِكَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُمْ صِيَامَى.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، الْخَيْرُ كُلُّهُ أَمَامَكَ وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ أَمَامَكَ، وَلَنْ تَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَّا بَعْدَ الْآخِرَةِ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الْجَنَّةِ وَالشَّرَّ كُلَّهُ فِي النَّارِ لِأَنَّهُمَا الْبَاقِيَانِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ وَهَبَ اللهُ لَهُ الْهُدَى وَأَكْرَمَهُ بِالْإِيمَانِ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَرَكَّبَ فِيهِ عَقْلًا يَتَعَرَّفُ بِهِ نِعَمَهُ وَآتَاهُ عِلْمًا وَحُكْمًا يُدَبِّرُ بِهِ أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ وَلَا يَكْفُرَهُ، وَأَنْ يَذْكُرَ اللهَ وَلَا يَنْسَاهُ، وَأَنْ يُطِيعَ اللهَ وَلَا يَعْصِيَهُ، لِلْقَدِيمِ الَّذِي تَفَرَّدَ لَهُ بِحُسْنِ النَّظَرِ، وَلِلْحَدِيثِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بَعْدَ إِذْ أَنْشَأَهُ مَخْلُوقًا، وَلِلْجَزِيلِ الَّذِي وَعَدَهُ وَالْفَضْلِ الَّذِي لَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ طَاعَتِهِ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَمَا يَعْجِزُ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَضَمِنَ لَهُ الْعَوْنَ عَلَى تَيْسِيرِ مَا حَمَلَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَنَدَبَهُ إِلَى الِاسْتِعَانَةِ عَلَى قَلِيلِ مَا كَلَّفَهُ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَمَّا أَمَرَهُ وَعَاجِزٌ

عَنْهُ، قَدْ لَبِسَ ثَوْبَ الِاسْتِهَانَةِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، مُتَقَلِّدًا لِهَوَاهُ مَاضِيًا فِي شَهَوَاتِهِ مُؤْثِرًا لِدُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَتَمَنَّى جِنَانَ الْفِرْدَوْسِ، وَمَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَطْمَعَ أَنْ يَنْزِلَ بِعَمَلِ الْفُجَّارِ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ، أَمَا إِنَّهُ لَوْ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ وَجَاءَتِ الطَّامَّةُ وَنَصَبَ الْجَبَّارُ الْمَوَازِينَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ وَبَرَزَ الْخَلَائِقُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَيْقَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ لِمَنْ تَكُونُ الرِّفْعَةُ وَالْكَرَامَةُ وَبِمَنْ تَحِلُّ الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ، فَاعْمَلِ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا بِمَا تَرْجُو بِهِ الْفَوْزَ فِي الْآخِرَةِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ فِي بَعْضِ مَا أَوْحَى: إِنَّمَا أَقْبَلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ يَتَوَاضَعُ لِعَظَمَتِي، وَيَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَجْلِي، وَيَقْطَعُ نَهَارَهُ بِذِكْرِي، وَلَا يَتَعَظَّمُ عَلَى خَلْقِي، وَيُطْعِمُ الْجَائِعَ وَيَكْسُو الْعَارِيَ وَيَرْحَمُ الْمُصَابَ وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ، فَذَلِكَ يُشْرِقُ نُورُهُ مِثْلَ الشَّمْسِ، أَجْعَلُ لَهُ فِي الظُّلْمَةِ نُورًا وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا، أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِي وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلَائِكَتِي، يَدْعُونِي فَأُلَبِّيهِ وَيَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، فَمَثَلُ ذَلِكَ الْعَبْدِ عِنْدِي كَمَثَلِ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ، لَا يُسْبَقُ أَثْمَارُهَا وَلَا تَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهَا.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، الْإِسْلَامُ عُرْيَانٌ فَلِبَاسُهُ الْحَيَاءُ وَزِينَتُهُ الْوَقَارُ وَمُرُوءَتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَعِمَادُهُ الْوَرَعُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الْإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سُورًا مِنْ نُورٍ مَحْفُوفًا بِالزَّبَرْجَدِ وَالْحَرِيرِ مُنَجَّدًا بِالسُّنْدُسِ وَالدِّيبَاجِ، يُضْرَبُ هَذَا السُّورُ بَيْنَ أَوْلِيَائِنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا، فَإِذَا غَلَى الدِّمَاغُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَضِجَتِ الْأَكْبَادُ مِنْ طُولِ الْمَوْقِفِ أُدْخِلَ فِي هَذَا السُّورِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَكَانُوا فِي أَمْنِ اللَّهِ وَحِرْزِهِ، لَهُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَعْدَاءُ اللَّهِ قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَقَطَعَهُمُ الْفَرَقُ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ، فَيَقُولُونَ ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ فَيَنْظُرُ

إِلَيْهِمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِمَّنْ أَعَانَ مُؤْمِنًا مِنْ أَوْلِيَائِنَا بِكَلِمَةٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.



الدرس الأوّل

أحبّاء أهل البيت (ع) الواقعيون

- التقرّب إلى الله دافع إنسانيّ فطريّ
- اتّباع أهل البيت (ع) طريق الوصول إلى العرفان الحقيقيّ
- أكبر المخاطر التي تحيق بالسالك
- خصائص أحباب أهل البيت (ع) القعيون

«يَا عَبْدَ اللهِ لَقَدْ نَصَبَ إِبْلِيسُ حَبَائِلَهُ فِي دَارِ الْغُرُورِ فَمَا يَقْصِدُ فِيهَا إِلَّا أَوْلِيَاءَنَا، وَلَقَدْ جَلَّتِ الْآخِرَةُ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى مَا يُرِيدُونَ بِهَا بَدَلًا، ثُمَّ قَالَ: آهِ! آهِ! عَلَى قُلُوبٍ حُشِيَتْ نُورًا وَإِنَّمَا كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشُّجَاعِ الْأَرْقَمِ وَالْعَدُوِّ الْأَعْجَمِ، أَنِسُوا بِاللهِ وَاسْتَوْحَشُوا مِمَّا بِهِ اسْتَأْنَسَ الْمُتْرَفُونَ، أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا، وَبِهِمْ تُكْشَفُ كُلُّ فِتْنَةٍ وَتُرْفَعُ كُلُّ بَلِيَّةٍ»[1].

التقرّب إلى الله دافع إنسانيّ فطريّ

من الدوافع الفطريّة لدى الإنسان والتي تُعدّ من أعلى وأعمق الدوافع الفطريّة فيه هو الوصول إلى الكمالات المعنويّة والتألّق الروحيّ في فضاء الملكوت. للإنسان ضالّةٌ بالفطرة يسعى لاستعادتها وكأنّه يريد أن يُحلّق ويعرج في فضاء الملكوت ويرتقي فيه. يريد اكتساب المزيد من الكمالات والوصول إلى المقامات العليا وتبديل علمه الحضوريّ شبه الواعي بالله، إلى علمٍ حصوليّ وحضوريّ واعٍ. وبعبارة أبسط، يريد أن يزيد من معرفته وأن يجد ضالّته. إنّ ضالّة الإنسان هي القرب من الله. ولأجل هذا، كانت الشعوب المختلفة وعلى مدى التاريخ تسعى للوصول إلى الكمالات المعنويّة وتسلك طرقًا مختلفة وتسمّيها «العرفان». فمثل هذا التوجّه العرفانيّ موجودٌ في أعماق فطرة جميع البشر لكنّه كان في أعلى مراتبه في الأنبياء

---

(١) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٧٩.

وأولياء الله ولا سيّما لدى الوجود المقدّس للنبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من بعده، وكلّ إنسانٍ يتّبعهم بصورة أفضل ويلتزم بأحكامهم أكثر سيكون أنجح في إدراك هذه الضالّة. ولكن هناك طرقٌ ومسالك أخرى ابتُليت بأنواع من الانحرافات والأخطاء والتي كان بعضها يؤدّي إلى مخاطر كبرى.

على أيّ حال، في وجودنا دافعٌ عميقٌ نحو الله ونحو معرفته والوصول إلى قربه، وكلّما ازداد شفافيّة وازددنا وعيًا بحضوره سنلتفت إلى ما نسعى نحوه؛ أمّا إذا اختفى وراء أستار الأوهام والأهواء والهوس والتوجّهات الماديّة فإنّنا سوف نتصوّر خطأً أنّنا نسعى نحو الرغبات الماديّة والدنيويّة. وهذا الاحتياج هو أمرٌ فطريّ وهو بالأساس الهدف من خلق الإنسان، الذي هو الوصول إلى الكمال النهائيّ وإلى مقام قرب الحقّ. إنّ نزول الوحي والكتب السماويّة والشرائع الإلهيّة إنّما كانت لتأمين الأرضيّة لهذا السير والتحرك الإنسانيّ. وقد جاء جميع الأنبياء من أجل تعبيد هذا الطريق الموصل إلى التكامل المعنويّ للإنسان.

إنّ الإمام الراحل رَحِمَهُ اللهُ، في أوج القضايا السياسيّة والاجتماعيّة التي كانت تحدث في البلاد وفي أوج الحرب، غالبًا ما كان يشير إلى هذه النكتة في كلماته وهي: صحيح أنّ الإسلام قد جاء لإحلال العدالة الاجتماعيّة، وأنّ الأنبياء قد جاؤوا لأجل تطبيق الأحكام الإلهيّة في المجتمع وإقامة الحكومة الإلهيّة، لكن كلّ ذلك كان مقدّمة لهدفٍ أعلى وأسمى وهو معرفة الله. إنّ هذا الاحتياج هو أمرٌ فطريٌّ فينا وإنّ كمالنا النهائيّ يتحدّد على ضوء ارتباطنا به. والإسلام أيضًا قد دعا الناس للوصول إلى هذا الهدف. كما أنّ النبيّ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد صرّحوا بذلك لبعض أصحابهم وأتباعهم ذوي اللياقة والاستعداد.

اتّباع أهل البيت (ع) طريق الوصول إلى العرفان الحقيقيّ

كلّما كان الشيء أهمّ وأعلى قيمةً كان له أعداء أكثر. فكلّما ارتفعت قيمة سلعة ما فسوف نجد المزيد من الغشّ والتقليد فيها. فعلى سبيل المثال، لأنّ الألماس حجرٌ ثمين، هناك الكثيرون ممّن يسعون لصناعة أحجار أخرى تشبهه ويبيعونها على أساس أنّها ألماس، فمثل هذه القضيّة تحدث بسبب ندرة السلعة الأساسيّة من جهة، وقيمتها العالية من جهةٍ أخرى. إنّ العرفان والسير والسلوك الواقعيّ هو طريق صعبٌ وشاقّ يتطلّب سلوكه الإخلاص الكامل والاستقامة والعمل الحثيث؛

كما أنّ كلّ شخص يستطيع أن يطوي مراحل منه على قدر همّته واستعداداته. من بين ملايين البشر، يمكن لأشخاص معدودين فقط - لا يتجاوز عددهم أصباع اليد - الوصول إلى المراتب العليا للعرفان. وبسبب المرغوبيّة والإقبال الشديد على هذه البضاعة، هناك أشخاص كثيرون يعرضونها بصورة مغشوشة ومقلّدة. للأسف، إنّ سوق العرفان المغشوش رائجٌ جدًّا في عالم اليوم، ومثل هذا الأمر ليس خلاف المتوقّع. الآن وفي ظلّ هذا الواقع، ما الذي ينبغي أن نفعله لكي نشبع احتياجنا الفطريّ هذا ونوفّق للوصول إلى كمالنا النهائيّ؟

برأينا، إنّ الطريق الوحيد للوصول إلى هذا الأمر هو ضرورة معرفة أهل البيت ومدرستهم ونهجهم بصورة أفضل وأكبر وربط سائر الأشياء بهم. فعلينا أن نقارن كلّ معرفة تُقدّم إلينا وكلّ برنامج يُعرض علينا بمعارفهم وبرامجهم ونقيسها على هذا الأساس، فإذا كانت منسجمة معهم فهي حقيقيّة وإلّا فهي مغشوشة وغير أصليّة. وباعتماد هذه الضابطة، يمكننا تمييز الأصحّ والأكثر فائدة من بين مناهج السير والسلوك والتكامل الإنسانيّ التي تُعرض علينا.

ومن بين الروايات الموجودة في هذا المجال هي وصيّة الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ لأحد أصحابه الخواصّ المدعوّ «عبد الله بن جندب»، والذي حاز على مقامات رفيعة في المعنويّات والمعارف. ففي هذه الوصيّة، يحذّره الإمام بداية ويُذكّر أولئك الذين يسلكون الطريق الصحيح ويريدون طيّه لمعرفة الله أن يلتفتوا إلى وجود مخاطر كثيرة أمامهم. وإنّ عرض هذه النكتة من جانب الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في بداية هذه الراوية هو لأجل التذكير بهذه النكتة: فرغم أنّه وبحمد الله، قد جعل الله الإيمان به في قلوبنا وقد آمنّا بالإسلام، الذي يُعدّ الأكمل من بين جميع الأديان السماويّة، وقد اخترنا مذهب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من بين جميع المذاهب المنسوبة إلى الإسلام، وبحسب الظاهر لقد اهتدينا الطريق إليه، ولا نواجه أيّ مشكلة في هذا المجال، لكنّنا لا ينبغي أن نغفل عن هذه النكتة.

أكبر المخاطر التي تحيق بالسالك

يوجد ميلٌ دائمٌ في الإنسان إلى الراحة والكسل، ما يجعل الإنسان يتصوّر أنّه إذا وصل إلى مكانٍ ما فلن يكون هناك أيّ مشكلة بعدها، وسيكون كلّ شيء على أتمّ ما يُرام، في حين أنّه لو فكّر جيّدًا لوجد أنّ المشكلة ما زالت قائمة. فكلّما ارتقى

الإنسان في سلّم التكامل يصبح خطر السقوط أشدّ. فتصوّروا جبلًا عاليًا وهناك أشخاص يريدون الوصول إلى قمّته، فأولئك الذين ما زالوا في السفوح لن يواجهوا مخاطر جدّيّة، لكن كلّما ارتقوا فإنّ أدنى زلّة يمكن أن تؤدّي إلى سقوطهم، والذين يقتربون من القمّة فإنّ سقوطهم سيكون وخيمًا وقد لا يُكتب لهم فرصة النجاة.

إنّ وضعنا على مسير التكامل يُشبه هذا الأمر. فصحيح أنّنا قد قطعنا الكثير من مراحل الكمال وعبرنا مسافة طويلة ولو أكملنا فسوف نصل إلى المقصد، ولكنّنا إذا سقطنا عند هذه المرحلة أثناء الطريق فإنّ خطر هلاكنا يكون محتومًا.

إنّ الشيطان هو العدوّ الأكبر للإنسان وقد أقسم قائلًا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]. وهو يسعى لحرف الإنسان عن مسير الحقّ. وكلّما تقدّم الإنسان على الصراط المستقيم، ازداد سعي الشيطان لحرفه عنه. ليس للشيطان شغلٌ مع أولئك الذين من البداية لم يضعوا قدمهم على هذا الطريق. فهؤلاء بحدّ ذاتهم منحرفون، ولن يحتاج الشيطان لحرفهم. ولكن ما إن يضع الشخص أوّل قدم له على الطريق الصحيح حتّى يلتفت إليه الشيطان ويسعى لحرفه منذ البداية، ولو تقدّم بكلتا قدميه فإنّ سعي الشيطان سيتضاعف.

بناءً عليه، فإنّ عداوة الشيطان لنا، نحن الذين عرفنا طريق الحقّ واخترنا الأصحّ من بين الأديان والمذاهب، هي أكبر، وهو يبذل جُلّ طاقته لحرفنا وإضلالنا. لهذا، ينبغي أن نلتفت ونحذر من الوقوع في الزلل ونكون يقظين جدًّا في مواجهة هذا الشيطان. فلا ينبغي أن نغترّ بما نحن عليه الآن من الهداية، لأنّنا نجهل عاقبة أمرنا. وعلينا أن نكون حذرين جدًّا تجاه المستقبل لأنّ الشيطان يبذل جلّ طاقته لإضلالنا وغوايتنا، وهذه هي النقطة الأولى التي يستند إليها الحديث. بالطبع، لأنّ مخاطَب الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أحد أصحابه الخواصّ فلم يجد الإمام ضرورة للتفصيل فقال: «**يَا عَبْدَ الله لَقَدْ نَصَبَ إِبْلِيسُ حَبَائِلَهُ فِي دَارِ الْغُرُورِ فَمَا يَقْصِدُ فِيهَا إِلَّا أَوْلِيَاءَنَا**»[2].

وبعبارةٍ أخرى، إنّ الهدف الأساسيّ للشيطان هو إسقاط أتباعنا في الفخّ.

---

(١) سورة ص، الآية ٨٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٧٩.

خصائص أحباب أهل البيت (ع)

أ. عظمة الآخرة في أعينهم

ثمّ يذكر الإمام توصيفًا لأوليائه لكي يُعلم من هم الذين يترصدهم الشيطان. ويُعدّد الإمام بعض الصفات التي يتميّز بها هؤلاء، وأوّل صفة فيهم هي: «**وَلَقَدْ جَلَّتِ الْآخِرَةُ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى مَا يُرِيدُونَ بِهَا بَدَلًا**». فلو دار الأمر ما بين الأمور الدنيويّة والأخرويّة، فإنّ الآخرة في أعينهم من العظمة بحيث لا يكونوا مستعدّين لمقايضتها بأي شيء دنيويّ.

ب. قلوبهم المليئة بالنور

«**آهٍ آهٍ عَلَى قُلُوبٍ حُشِيَتْ نُورًا!**». إنّ مدى أنسنا بمثل هذه التعبيرات يرتبط بمدى أُنسنا بمعارف أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. إنّ باطن الإنسان وقلبه وروحه يُشبه وعاء أو صندوقًا أو مستودعًا توضع فيه أشياء مختلفة، ومثل هذا المستودع يكون مليئًا بالقوّة المتراكمة. وكما يحصل في المحسوسات، حيث يمكن تكديس الكثير من الإمكانات والقدرات في مكان ما وتخزينها، ففي المعنويّات أيضًا يُمكن أن نفعل الأمر نفسه. ففي قلب الإنسان طاقات معنويّة مدّخرة، وكما أنّ النور في عالم المحسوسات هو أبرز مظاهر الطاقة وأوضحها، ففي عالم المعنويات، يوجد نورانيّة معنويّة أيضًا تستقرّ في قلب الإنسان وتُستودع فيه. وهذا النور هو هِبة إلهيّة. ويمكن لكلّ إنسانٍ أن يجعل قلبه مستعدًّا للامتلاء بالنور، وذلك من خلال اكتساب الاستعداد المناسب. وإنّ علامة امتلاء القلب بالنور هو عدم اعتنائه بالدنيا وزخرفها، وعدم تعلّقه باللذائذ المادّيّة، وانحصار توجّهه إلى المسائل المعنويّة والأخرويّة. وفي المقابل، أولئك الذين يتطلّعون إلى زخارف الدنيا وزبرجها، ويسعون نحو رغباتها المادّيّة، فسوف يمتلئ باطنهم بالظلام، فلا تعود أعينهم ترى الحقائق ولا يدركون قيمة القضايا المعنويّة. وفي النهاية، سينخدعون بتلك المظاهر البرّاقة.

ج. اجتناب النزعة الدنيوية

«**وَإِنَّمَا كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشُّجَاعِ الْأَرْقَمِ**». الدنيا بالنسبة لهؤلاء (أولياء أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) تُشبه تلك الأفعى شديدة الخطورة التي تتوثّب لهم. فبعض الأفاعي والتي تكون سامّة جدًّا قد تقف على ذيلها في البادية لكي تخدع بقيّة

الكائنات، فكلّ من يشاهدها من بعيد يتخيّل أنّها جذع شجرة يابسة وحين يقترب منها فإنّها تبتلعه. يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ أولياءنا يرون الدنيا على هيئة الأفعى المخادعة التي تترصّد لهم وتنتظر وقوعهم في شباكها، وهم ينظرون إليها هكذا على الدوام ويحذرون من خداعها. «**وَالْعَدُوَّ الْأَعْجَمِ**»، فالدنيا بنظرهم تُشبه ذلك العدوّ الفاقد للمنطق الذي لا يدرك الكلام الصحيح، فمتى ما تسلّط على الإنسان فإنّه لا يرحمه.

د. الأُنس بالله

«**أَنِسُوا بِاللَّهِ**»، ومثل هؤلاء يأنسون بالله، خلافًا لعبّاد الدنيا الذين لا يستطيعون أن يُدركوا حقيقة هذا الأنس وقد صرفوا كلّ همّهم وهوسهم نحو المادّيّات. فإذا أراد عبّاد الدنيا أن يستقرّوا لبعض الوقت في غرفة لوحدهم ويصلّوا ركعتين بحضور قلب يكونون كمن أُلقي في زنزانة مظلمة ينتظر الخروج منها بأيّ نحو. أمّا أولياء الله فعلى العكس، فهم لا يأنسون بتلك الأشياء بل ينتظرون لحظة اعتزال الأغيار للرجوع إلى محبوبهم الأصليّ والاتّصال به، لهذا فهم ينتظرون وقت الصلاة ووقت صلاة الليل حتّى يخلوا للعبادة، فالتذاذهم هو في هذه الأمور. فالخلوة مع الله ومناجاته هي أعظم لذائذهم، «**وَاسْتَوْحَشُوا مِمَّا بِهِ اسْتَأْنَسَ الْمُتْرَفُونَ، أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا**»، فهؤلاء هم الذين يتعقّبهم الشيطان ويصرف كلّ همّه من أجل خداعهم. «**وَبِهِمْ تُكْشَفُ كُلُّ فِتْنَةٍ وَتُرْفَعُ كُلُّ بَلِيَّةٍ**».

إنّ المقصود من عبارة «الفتنة»، بلسان القرآن وأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هو غالبًا الفتن المعنويّة والاعتقاديّة والفكريّة. فالانحرافات الفكريّة والعقائديّة التي تظهر في المجتمع إنّما تزول بواسطة أمثال هؤلاء.

وحصيلة ما يُستفاد من هذا المقطع من كلام الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أنّ الطريق الصحيح لمعرفة الله والقرب منه يتحقّق في ظلّ ولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وأوّل علامات أصحاب ولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو عدم الاعتناء بالدنيا. وبالطبع، إنّ هذا يختلف عن إهمال المسؤوليّات الدنيويّة، فهناك فرقٌ بين تعلّق القلب بالدنيا وبين القيام بالمسؤوليّات الدنيويّة. فالدنيا هي محلّ إنجاز التكاليف وعلى الإنسان أن يرى في كلّ لحظة ما هي مسؤوليّته ويسعى للقيام بها بكلّ قوّته، ولكن في الوقت نفسه لا ينبغي أن ينخدع بالدنيا، فأولئك الذين حازوا على الولاية

أحبّاء أهل البيت (ع) الواقعيون ■

الواقعيّة لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يمكن اعتبارهم من أوليائهم فتكون الدنيا في نظرهم حقيرة وتعظم الآخرة في أعينهم ويكون أنسهم في عبادة الله، بخلاف أعداء أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين يأنسون بالأمور الدنيوية والشيطانيّة.



- القرآن والسنّة الإكسير الضائع للبشريّة
- محاسبة النفس
- العامل الذي يدفع الإنسان للمحاسبة
- مراحل المحاسبة
- نقاط في باب المحاسبة

«يا ابْنَ جُنْدَبٍ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنَا أَنْ يَعْرِضَ عَمَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ مُحَاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَزَادَ مِنْهَا وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لِئَلَّا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

في القسم الأوّل من وصايا الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ لعبد الله بن جندب، تمّ التطرّق إلى جملة من الموضوعات مثل: الدافع الفطريّ للإنسان في التقرّب إلى الله، ولاية أهل البيت كعنوان للعرفان الحقيقيّ، أكبر المخاطر التي تحيق بالسالك إلى الله مع بسط الشيطان لمصائد وحبائله، وبعض الخصائص التي يتميّز بها أولياء أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ (عظمة الآخرة في أعينهم، نورانيّة في قلوبهم، اجتنابهم لحبّ الدنيا، وأنسهم بالله). والآن نُكمل البحث.

القرآن والسنّة الإكسير الضائع للبشريّة

يستطيع الجميع لحدٍّ ما أن يميّز طريق السعادة عن طريق الشقاء، وذلك ببركة اتّباع أهل البيت وولايتهم. إنّ بعض المعارف التي قد تبدو لنا صغيرة وقليلة الأهميّة، تكون بالنسبة لأولئك الذين لا يمتلكونها كالجوهرة النفيسة التي ينبغي أن يكدحوا مدّة طويلة للحصول عليها. إنّ هذه الجواهر النفيسة التي وصلت إلى أيدينا بكلّ سهولة، إنّما كان ذلك ببركة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ. ولهذا السبب، فإنّنا، وللأسف، قد لا نولي هذه الجواهر هذا القدر من الأهميّة في حياتنا، ولا نستعملها بنحوٍ

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٧٩.

جيّد؛ فنتصوّر أنّنا إذا أردنا الوصول إلى السعادة فعلينا البحث عن أمرٍ آخر ليس موجودًا في كتاب، ولم يتحدّث عنه إنسانٌ؛ في حين أنّ الأمر ليس كذلك. إنّ مثل هذا التصوّر هو تصوّرٌ خاطئ. فما هو ضروريٌّ لسعادتنا قد ورد في الكتاب والسنّة، وما يحظى بأهميّة أكبر من بين هذه المسائل، قد تمّ التأكيد عليه أكثر وتبيانه بشكلٍ أوضح، لأنّ الله يريد إيصال عباده إلى مقام قربه ولقائه. بناءً عليه، لا ينبغي أن نستخفّ بهذه الجواهر ونسعى نحو تلك البرامج والقضايا العجيبة الغريبة.

محاسبة النفس

ومن الموضوعات التي تمّ التركيز عليها كثيرًا في الروايات الشّريفة وبحث بشأنها علماء الأخلاق كثيرًا هي قضيّة محاسبة النفس. ففي هذه الرواية أيضًا، نجد التأكيد على هذه القضيّة وهي أنّ على كلّ إنسان أن يحاسب نفسه وأن يقوم بهذه المحاسبة مرّة واحدة كلّ ليلة بالحدّ الأدنى. إنّ أفضل الأوقات للقيام بهذا العمل هو الليالي، حيث نتأمّل قبل النوم ولعدّة دقائق على الأقلّ في سلوكيّاتنا وأفعالنا، فنرى إذا ما قمنا به كان صحيحًا أو لا. وإذا وجدنا أنّنا قد ارتكبنا خطأً ما، نعترف به ونسعى لجبرانه.

يقول الإمام الصادق عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ في هذه الرواية مخاطبًا ابن جندب: «**يا ابْنَ جُنْدَبٍ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنَا أَنْ يَعْرِضَ عَمَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ مُحَاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَزَادَ مِنْهَا وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لِئَلَّا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

العامل الذي يدفع الإنسان للمحاسبة

يؤكّد الإمام الصادق عَلَيۡهِ‌ٱلسَّلَامُ في هذه الرواية على هذه النقطة، وهي أنّ على كلّ مسلمٍ يعرفنا وينتمي إلينا ويريد أن يأخذ برنامج حياته منّا أن يحاسب نفسه ويراقب أعماله.

من بين الخصائص التي ميّز الله تعالى بها روح الإنسان هي أنّه يمكنه أن يراقب أعماله ويُشرف عليها، وهذه من القضايا التي حيّرت الكثير من فلاسفة العالم. كلّ إنسان في العادة يمكنه أن ينظر إلى الآخرين وإلى أعمالهم وتصرّفاتهم،

لكن أن يتمكّن من النظر إلى نفسه فهذه من الخصائص المهمّة للروح البشريّة. أولئك الذين لديهم دراسات حول معرفة النفس يدركون جيّدًا هذه الحقيقة وهي أنّ الإنسان كائنٌ يمكنه أن يُحفّز نفسه ويحثّها ويؤدّبها ويوبّخها. وإذا أردنا أن نعرف من أين تنشأ هذه الخصوصيّة فهذا يتطلّب بحثًا مفصّلًا، لكن بغض النظر عن ذلك، فإنّ هذه الخاصيّة هي من الألطاف الإلهيّة التي ترحّم بها الله على الإنسان. بناءً عليه، فقد جرى التأكيد على أن يراقب الإنسان أعماله في كلّ ليلة مرّة واحدة على الأقلّ ليرى ما قام به من حسنٍ وسوء.

وطبق هذه الرواية، يجب أن يكون الإنسان حسيبًا على أعماله، فإذا شاهد عملًا صالحًا فيها، فيجب عليه أن يلتفت إلى أنّه لطفٌ حاصلٌ من جانب الله وعليه أن يسأله التوفيق للقيام بهذا العمل أكثر. فقد ورد في روايات أخرى أن يقوم هذا العبد أوّلًا بشكر الله على هذا الأمر، ومن ثمّ يسأله هذا التوفيق لكي ينهض مجدّدًا ويقوم بأعمال أفضل وأكثر، وإذا شاهد خطأً في أعماله فليتداركه ويتوب قبل أيّ شيء. بالطبع، قد يكون للتوبة بعض المستلزمات، فمثلًا إذا فاته عمل ما عليه أن يقضيه، أو إذا كان قد أضاع حقّ أحد فعليه أن يؤدّيه إليه أو يعوّض له عن ذلك الفعل القبيح بفعلٍ حسن لكي يُكفّر عنه ولا يترسّخ ذلك الفعل السيّئ في روحه فيُخزى يوم القيامة.

وضمن إشارته إلى المحاسبة، يُذكّر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلماته بهذه النكتة حيث يقول: «**لِئَلَا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَة**». ومثل هذا التنبية يوجب علينا أن نراقب أنفسنا مراقبة تامّة ولا نقوم بما يمكن أن يؤدّي إلى خزينا يوم القيامة، وذلك لأنّه لا يمكن جبران ما فات في ذلك اليوم، فنُبتلى بالحسرة الأبديّة.

ومن الناحية الروحيّة، فإنّ مثل هذه التنبيهات مهمّة ومؤثّرة، وذلك لأنّه ما دام الإنسان لم يرَ المنفعة أو الضرر في عملٍ ما، فإنّه لن يُظهر تلك الرغبة للقيام به أو تركه. إنّ العامل الذي يدفع الإنسان للقيام بعملٍ ما هو تلك المصلحة والمنفعة التي تعود عليه من هذا العمل، كما أنّ الذي يمنع الإنسان من القيام بعملٍ ما هو الخوف من الخسارة أو المصيبة. فإذا أردنا أن نطبّق برنامجًا صحيحًا يجب علينا أن نجسّد فوائده أمام أعيننا لكي تنبعث تلك الدوافع المناسبة للقيام به وأدائه بصورة أفضل. إنّ عدم الالتفات إلى هذه القضايا، وفي النتيجة القيام بالأعمال من دون

دافع، يؤدّي إلى صيرورة الإنسان شخصًا متكاسلًا ولا يأخذ القضايا على محمل الجدّ. بناء عليه، ولأجل الحؤول دون الندم والذي يُعدّ أشدّ ألمًا من أيّ عذاب يجب على الإنسان أن يبدأ بمحاسبة نفسه من هذه اللحظة.

فمن أسماء القيامة «يوم الحسرة»، وهذا يدلّ على حجم العذاب الروحيّ الناشئ من قضيّة الندم. ومن الأسماء الأخرى لذلك اليوم هو «يوم الحساب»، فإذا لم يلتفت الإنسان إلى أنّه سوف يُحاسب على أعماله ويُسأل عنها فإنّه لن يشعر بالمسؤوليّة، ولن يفكّر بمراقبة أعماله وتنظيمها ولن يهتمّ بترك ما لا ينبغي وفعل ما ينبغي. أمّا إذا علم أنّ القضيّة جادّة فسوف يتنبّه إلى جزئيّات أعماله. وقد أشير في القرآن إلى هذه الحقيقة أيضًا، حيث ذكر أنّ عذاب القيامة ناجم عن نسيان يوم الحساب، فذلك النسيان هو الذي يؤدّي بالإنسان لاجتراح السيّئات فيُبتلى في النهاية بالعذاب الأبديّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[1]. فمثل هذا العذاب يكون لأولئك الذين نسوا يوم الحساب وإن كانوا يعتقدون به، لكنّ اعتقادهم كان باهتًا ولم يكن ناشطًا ومؤثّرًا في أعمالهم.

ينقل **القرآن الكريم** قصّة أخوين كان أحدهما متفلّتًا ولا يراقب نفسه في أمواله وأعماله. ورغم كلّ ما بذله أخاه في توصيته لمراقبة أعماله وأفعاله، كان يجيبه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾[2]. فهو لم يكن يتصوّر بأنّ الساعة ستتحقّق، وكان يعتبر أنّه في حال حصل ذلك وكان هناك ربّ وقيامة فإنّه سيرجع إلى ربّه وسيجد في ذلك العالم منزلًا أفضل من منزله في هذه الدنيا. إنّ هدف القرآن من نقل هذه القصّة هو أن يقول لنا إنّ مثل هذا الاعتقاد بالمعاد لا فائدة له، لأنّ الركن الأساس للاعتقاد بالمعاد هو الاعتقاد بالحساب. فما هو مهمّ في هذا الاعتقاد هو أنّنا سنحيى مرّةً أخرى في ذلك العالم لنرى نتيجة أعمالنا. أمّا مجرّد الاعتقاد بالعودة إلى الحياة لا فائدة منه. إنّ من لوازم مثل هذا الاعتقاد التوجّه والالتفات إلى عاقبة أفعالنا في ذلك العالم. يُنقل عن النبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ في رواية أنّه قال: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»[3].

---

(١) سورة **ص**، الآية ٢٦.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٣٦.

(٣) الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل** (لبنان- بيروت: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الجزء ١٢، الصفحة ١٥٤.

فلو وُجد مثل هذا الاعتقاد في الإنسان بأنّه سيأتي يوم يُحاسب ويُسأل فيه عن جميع أفعاله وينال الثواب أو العقاب وفق تلك الأفعال، فسوف يفكّر بمحاسبة نفسه ومساءلتها.

مراحل المحاسبة

إنّ قضيّة محاسبة النفس مهمّة إلى الدرجة التي جعلت بعض العلماء يؤلّفون كتبًا بخصوص هذا الموضوع، ولدينا في هذا المجال آيات وروايات كثيرة، وقد أُعدّ عليها أبحاث وافرة. وهناك في الكتب الأخلاقيّة برامج عمل تُقدَّم للأفراد لكي يتمكّنوا من أداء هذه المهمّة بصورة أفضل، وقد عدّدوا ثلاث أو أربع مراحل في محاسبة النفس وهي:

المرحلة الأول: هي المشارطة، وهي أن يشارط الإنسان نفسه في بداية اليوم على أن يؤدّي تكاليفه بشكل جيّد ويجتنب المعاصي.

المرحلة الثانية: هي المراقبة، وهي أن يراقب الإنسان نفسه طيلة اليوم وينظر إلى أعماله لكي لا يخالف ما اشترط على نفسه وتعهّد.

المرحلة الثالثة: المحاسبة، والتي تكون في آخر الليل حيث ينهض إلى تقييم أعماله ويرى إلى أي مدى التزم بمسؤوليّاته وإلى أي مدى وقع في التقصير.

المرحلة الرابعة: التي ذكرها بعض علماء الأخلاق، هي المعاتبة؛ أي إذا التفت الإنسان إلى وجود زلل وأخطاء في سلوكه فعليه أن يعاتب نفسه وينبّهها من أجل جبران ذلك، فيُلزم نفسه مثلًا أن يصوم في اليوم التالي أو ينفق مبلغًا ما، أو يقرأ القرآن إلى حدٍّ ما، أو يقوم بعمل خيرٍ لكي يجبر ما فات. وما هو أهمّ من كلّ شيء في قضيّة المحاسبة هو محاسبة الإنسان نفسه لكي يشكر الله على ما وفّقه من عمل صالح ويسأله توفيق المداومة عليه، وإذا وجد أنّه وقع في التقصير أن يفكّر بتدارك ما فات.

نقاط في باب المحاسبة

يوجد نقاط أخرى مهمّة في مجال محاسبة النفس نشير ها هنا إلى بعضها:

أ. اجتناب المعصية

يجب على الإنسان أن يفكّر أكثر بشأن المعصية. فماذا تعني المعصية في الأساس؟ نحن نعتقد بأنّ الله تعالى قد خلقنا وألهمنا معرفة جادة الصواب وتمييزها عن جادة الخطأ، كما أنّنا نعتقد بوجود عالم آخر، غير هذه الدنيا، تتمّ محاسبتنا فيه على أعمالنا وخياراتنا في هذه الدنيا، فنُثاب ونُعاقب. ومقتضى مثل هذا الاعتقاد هو أن نستفيد بأفضل صورة من رأسمال عمرنا الذي وُضع بتصرّفنا. لقد جئنا إلى هذه الدنيا لكي نُمتحن ولكي نبني أنفسنا على مراحل، ولنصل إلى الكمال، ونستفيد من نتائج ذلك وثماره في الحياة الأبديّة. بناءً عليه، يجب علينا الالتفات إلى أنّ الحياة في هذه الدنيا مؤقّتة وهي مثل حياة الجنين في بطن أمّه إذا ما قورنت بالحياة الآخرة، فمثلما أنّ الجنين يبقى في بطن أمّه عدّة أشهر من أجل أن يصبح مستعدًّا للحياة في هذا العالم، فنحن أيضًا سنعيش لمدّة قصيرة في الدنيا لأجل أن نستعدّ للحياة الأبديّة، مع هذا الاختلاف وهو أنّ نموّ الجنين أمرٌ حتميّ، أمّا تكاملنا في هذا العالم فاختياريّ. بالإضافة إلى ذلك، إنّ حياة الجنين يمكن مقارنتها من حيث المدّة مع الحياة الدنيويّة، أمّا الحياة الآخرة فلأنّها أبديّة فلا يمكن أن تُقارن بأي وجهٍ من الوجوه مع الحياة المحدودة في هذا العالم.

على أيّ حال، فإنّ هذه الدنيا هي محل الابتلاء والبناء كما عرّفها لنا هذا الدين ويجب علينا أن نستعدّ فيها ونتهيّأ لأجل العالم الآخر. فلو نظرنا من هذه الزاوية، سنجد أنّنا سنحصل على أمور هي مفيدة جدًّا ونافعة لحياتنا الأبديّة مقابل ما نبذله من رأسمال هنا، وعلينا أن نشكر الله «**إِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَزَادَ مِنْهَا**». أمّا إذا لم نمتلك مثل هذه الرؤية فسوف نُبتلى بالغفلة ونكون قد هيّأنا لأنفسنا ذلك الخزي الأبديّ مقابل إنفاق هذا الرأسمال الوحيد والنفيس. فإذًا، علينا أن نفكّر بجبران ذلك، «**إِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لِئَلَّا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فما أكبر الفرق بين ذاك الذي يتاجر هنا وتكون مشكلته فقط هي أنّه لم يحصل على ربح لكنّ رأسماله بقي كما هو، وبين ذاك الذي لا يربح في تجارته بل يخسر ويفقد رأسماله أيضًا. إنّ المعصية هي كالنوع الثاني من التجارة والمبادلة، فهي عبارة عن إنفاق رأس المال وشراء الخسارة، فهي خسارة العمر والسعادة الأخرويّة والابتلاء بالعذاب الأبديّ.

ب. التوجّه إلى كمّيّة المعاصي المرتكبة

النقطة الثانية بشأن محاسبة النفس هي أنّه بعد أن أدركنا مدى قبح المعصية، يجب علينا أن نرى كم ارتكبنا من معاصي من أجل أن نسعى للتكفير عنها. فعلى الإنسان أن يعترف بذنوبه بين يدي الله، لا أن يتنكّر لذلك أو يتناسى الأمر. بالطبع، إنّ الإنسان لا يمكنه أن يحدّد بدقّة كم ارتكب من معاصٍ من أوّل اليوم إلى آخره (كم استغاب وكم كذّب وكم أساء)، لكن يجب علينا أن ندقّق لنرى كم بذلنا من وقتٍ في المعصية. إنّها مسألة مهمّة أن نتمكّن من التفكّر في كمّيّة معاصينا. وهكذا يكون للمحاسبة أثرٌ في تكامل الإنسان ويؤدّي ذلك إلى أن تكون حياته كلّ يوم أفضل من اليوم السابق.

ج. التوجّه إلى كيفيّة المعاصي المرتكبة

النقطة الثالثة هي الالتفات إلى كيفيّة ونوعيّة المعاصي. فبعض المعاصي تساوي سبعين سنة من العصيان والذنب مع أنّ ارتكابها لا يكون سوى في لحظة واحدة. فالالتفات إلى كون المعصية صغيرة أو كبيرة أمرٌ مهم. فعلى سبيل المثال ورد بشأن الغيبة وخطورتها روايات كثيرة تؤكّد على شدّة قبحها، ففي هذا المجال يجب علينا أن نلتفت أيضًا إلى هذه النقطة المهمّة وهي أنّه صحيح أنّ بعض المعاصي صغيرة وهي أقلّ خطورة من الكبائر، إلّا أنّ استصغار المعاصي الصغيرة يُعدّ ذنبًا كبيرًا أيضًا، وهذه من جملة حبائل الشيطان التي يسعى من خلالها إلى إيقاع الإنسان في الغفلة.

د. القيام بجميع الواجبات

النقطة الرابعة هي أن نكون ملتفتين ومراقبين لتأدية كلّ واجباتنا. يمكن أن يكون تصوّرنا في البداية أنّنا لا نترك تلك التكاليف مثل الصلاة والصيام وأمثالها، فأيّ واجب يمكن أن نكون قد تركناه! فهذا الأمر أيضًا من مصائد الشيطان، لأنّ هناك الكثير من التكاليف التي نغفل عنها، حتّى أولئك الذين هم على اتّصال دائم بالفقه والآيات القرآنيّة وأحاديث أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قد يغفلون عن الكثير من الواجبات. فالإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وقضاء حاجة المؤمن الذي أظهر حاجته والكثير الكثير من الأمور تعدّ من الواجبات التي يمكن أن لا نكون قد

فكّرنا في القيام بها على مدى سنوات عديدة، ولو أضفنا إلى هذا كلّه واجباتنا ومسؤوليّاتنا الاجتماعيّة والسياسيّة سنجد أنّ عددهم يصبح أكثر بكثير.

واليوم، فإنّ شعبنا ببركة الثورة قد أصبح ملتفتًا إلى القضايا السياسيّة والاجتماعيّة إلى حدٍّ كبير، ولكن كان هناك زمنٌ غفل فيه الناس عن الكثير من هذه المسؤوليّات والواجبات، وإن كان هناك اليوم عدد لا بأس به من الأشخاص الذين ما زالوا غافلين عن هذه التكاليف، بل إنّهم لا يعتبرونها من المسؤوليّات والواجبات. إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الجاهل ومحاربة الظلم ومواجهة الانحرافات العقائديّة والفكريّة والدينيّة وغيرها هي من أهمّ الواجبات التي يُعدّ التقصير فيها ذنبًا كبيرًا. سنتمكّن من القيام بكلّ هذه الوظائف بشكلٍ جيّد حين نخطّط لها مسبقًا ونضع جدولًا نحدّد فيه كلّ هذه التكاليف.

هـ. الالتفات إلى شروط صحّة الأعمال

النقطة الخامسة هي أنّنا أحيانًا قد نتلهّى ونُطمئن أنفسنا بأنّنا قد أدّينا تكاليفنا، غافلين عن أنّ أعمالنا كانت فاقدة لقيمتها الحقيقيّة وأنّنا قد أفسدناها أثناء العمل أو بعده. فعلى سبيل المثال، قد يكون تكليفنا هذه الصلاة فنُسَرّ من أنّنا قد صلّيناها وشاركنا في صلاة الجماعة من أجل أن ننال الثواب الأكبر، لكنّنا لا نلتفت إذا ما كانت صلاتنا صحيحة ومقبولة عند الله أم لا. فهل خالطها رياء؟ وهل راعينا شروط حسن العمل؟ وهل ابتُلينا بالعجب والغرور بعد القيام بذلك العمل؟ أو إذا أنفقنا مثلًا، هل أنّنا أتبعنا ذلك بالمنّ والأذى؟... بناءً عليه، يجب أن نلتفت أيضًا إلى شروط صحّة الأعمال وقبولها.



- المحاسبة فيما يتعلّق باجتناب اللغو
- سعة نظر أولياء الله في العبادة
- الاستغفار من الصلاة!
- شدّة محبّة أولياء الله
- ذكرى المرحوم الشيخ الأنصاري

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنَا أَنْ يَعْرِضَ عَمَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ مُحَاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَزَادَ مِنْهَا وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لِئَلَّا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

المحاسبة حتّى فيما يتعلّق باجتناب اللغو والشبهات والمكروهات

قيل في الدرس السابق إنّ الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لعبد الله بن جندب إنّ كلّ من نال فخر الانتماء لمذهبنا وأدرك معرفة الإسلام مسؤول عن محاسبة نفسه كلّ ليلة. وبعبارة أخرى، يجب على كلّ إنسان أن يحاسب نفسه، فإن رأى توفيق الأعمال الصالحة فعليه أن يسأل الله المزيد من هذا التوفيق، وإذا رأى الزلّات والمعاصي فعليه أن يستغفر الله لكي لا يبتلى يوم القيامة بالخزي.

وفي المحاسبة، يجب الالتفات إلى تلك الأعمال الحسنة التي تصدر منّا لكي نرى فيما إذا كانت مؤثّرة في الواقع ووقعت موقع القبول أو أنّها كانت فاسدة ولم تبلغ مرتبة المقبوليّة؟ لأنّ الأعمال الحسنة إنّما تكون حسنة في الواقع وتؤثّر في سعادة الإنسان إذا أدّاها الإنسان بنيّة سليمة. فإذا قام الإنسان بأعمالٍ حسنة ولكن بدوافع سيّئة كالرياء والسمعة، أي لأجل أن يراه الناس ويسمعوه ويُثنوا عليه ويمدحوه، فبالإضافة إلى عدم تحصيل أي ثواب وعدم الوصول إلى السعادة، فإنّه قد يتسبّب لنفسه بالسقوط.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٧٩.

لكي يدرك الإنسان موقعيّته في مقابل تصرّفاته وأعماله فمن الجيّد أن يتأمّل ويدقّق ويحاسب نفسه على أعماله مثلما يفعل في أمواله. من الطبيعيّ، بالنسبة لمن لديه رأسمال أن يقلق ويهتمّ بما يحقّقه من أرباح. فحين يقوم التاجر بإجراء حساباته فإنّه ينظر إذا كان قد ضيّع رأسماله ولم يحقّق ربحًا. والحالة الأسوأ هو أن يكون قد اشترى شيئًا برأسماله، وليس أنّه لم يحقّق لنفسه ربحًا فحسب، بل أن يكون قد جلب لنفسه الأضرار الجسمانيّة والروحيّة والعائليّة والخزي والعار. إنّ الذين يقومون بحساب أموالهم، فبالإضافة إلى السعي الحثيث لاجتناب هاتين الحالتين، يعملون دومًا على تحقيق الربح الأكبر في أعمالهم التجاريّة. ومثل هذا النمط من الأشخاص، إذا وجد أنّه قد حقّق ربحًا معيّنًا بوضع رأسماله في أحد الأعمال، فإنّه لن يكون مستعدًّا لوضع رأسماله في عملٍ آخر يحقّق له ربحًا أقلّ، وسيقول لنفسه: لماذا أنفق رأسمالي في عملٍ ربحه قليل؟

وفيما يتعلّق بالأعمال التي نقوم بها يوجد ما يشبه هذه الحالات. فقد نقوم ببعض الأعمال التي لا تجلب لنا أي ربح، لا بل قد تؤدّي إلى خزينا وذلّنا يوم القيامة. أليس في هذا الأمر حسرة وندامة؟! فلو أنّ الإنسان بدل أن ينفق رأسماله في عملٍ يجلب له الربح، قام بتجميده أو بإنفاقه بطريقةٍ غير مناسبة، ألا يُعدّ ذلك عبثًا ولغوًا؟ فلعلّه لم يتسبّب بأيّ ضرر، ولكن كلّ من كان من أهل التجارة والحسابات الماليّة فإنّه لا يتألّم من الضرر فحسب، بل يتألّم من أيّ تجارة لا تعود عليه بالفائدة، ومثل هذه الأعمال الخالية من الفائدة تُسمّى بلسان الشرع باللغو. ونحن نقرأ في سورة **المؤمنون**: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1]. فحين نمتلك رأسمالًا يمكننا من خلاله تحقيق أرباح كثيرة، فلماذا ننفقه في أمور لا تعود علينا بأيّ فائدة؟

إنّ بعض الأشخاص تكون حساباتهم واهتماماتهم دقيقة إلى درجة أنّهم يعيشون القلق في الليل لئلّا تعود البضاعة التي اشتروها عليهم بالربح في اليوم التالي، ويخافون أن تكون البضاعة مضروبة. ونحن في أعمالنا ينبغي أن نكون كذلك، فنقلق بشأن الشبهات، أي الأعمال التي لا يعلم الإنسان إذا ما كانت حلالًا

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

أو حرامًا، والتي يمكن أن تبدو بناءً على مبدأ «أصل الإباحة» حلالًا، ولكن لأنّها من الشبهات ويوجد احتمال كونها حرامًا، فعلى المؤمن أن يَقلق لئلّا يقوم بعملٍ هو في الواقع حرامًا.

فطالما أنّنا نستطيع أن نشتري بضاعة نتيقّن بسلامتها فهل من المعقول أن ندفع مالنا لشراء بضاعة مشتبه بشأنها أو نحتمل أنّها مضروبة؟! فلنحذر من ذاك اليوم الذي نتحسّر فيه على ذلك الوقت الذي كنّا نستطيع فيه أن نقوم بالأعمال الصالحة ١٠٠٪، لكنّنا حمنا حول الشبهات وقمنا بعملٍ مشكوكٌ بأمره. فلو كان الإنسان محاسبًا جيّدًا ومدركًا لقيمة العمر ولرأسماله فسوف يعيش مثل هذا الهاجس، فما بالك بالمكروهات (تلك الأمور التي لا يُعذّب عليها، ولكنّها على أيّ حال مرجوحة بنظر الشرع).

سعة نظر أولياء الله في العبادة

من كان مثلي في المراتب الدنيا من الإيمان يجب أن يسأل الله توفيق أداء الواجبات وترك المحرّمات. ولكن علينا أن نعلم أنّ لله عبادًا يتطلّعون إلى ما هو أعلى بكثير من هذا، فحساباتهم تختلف عن حساباتنا. أولئك الذين لا يرتكبون الحرام أبدًا، وإذا صدرت منهم زلّة تكون في مجال المكروهات والشبهات، فهؤلاء ليسوا قلقين تجاه فعل الحرام بل يسعون لاجتناب أي لغو. وهم يحذرون من القيام بأي عمل لا يكون مفيدًا لآخرتهم، فما بالك بالأعمال المضرّة.

نحن نظنّ أنّ دائرة الواجبات والمستحبّات محدودة وضيّقة وأنّ أكثر أعمالنا مباحة مثل التنفّس والنظر وتناول الطعام والنوم ولكن بغضّ النظر عمّا إذا كانت هذه الأمور بالعنوان الثانويّ واجبة أو محرّمة، فإنّنا لو علمنا ما يجب علينا من تكاليف بالعنوان الثانوي سنرى أنّنا لو قضينا كلّ عمرنا بالقيام بهذه الواجبات لما وجدنا الوقت الكافي. فعلى سبيل المثال، لو التفتنا نحن طلّاب العلوم الدينيّة إلى حجم المسؤوليّات الملقاة على عاتقنا ومسؤوليّتنا تجاه ردّ الشبهات العقائديّة التي يطرحها الآخرون، فسوف نصل إلى هذه النتيجة وهي أنّه لو قضينا الساعات الأربع والعشرين من كلّ يوم بالمطالعة والبحث لما كفانا الوقت، فما بالك لو أردنا هداية مليارات البشر في العالم إلى معارف أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والتي يحتاجون إليها. إنّ علينا مسؤوليّة إيصال هذه المعارف إلى كلّ أبناء العالم، فهذه أمانة في

أعناقنا، **والقرآن الكريم** يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1]. فلو التفتنا إلى مثل هذه التكاليف فسوف يتبيّن لنا أنّه لا مجال للمستحبّات، فما بالك بالمباحات.

أولئك الذين يتطلّعون إلى الأعلى، لو وجدوا فرصة للقيام بالمستحبّات، فإنّهم يستغفرون الله من كلّ عمل غير هذا الواجب والمستحبّ. للحرام قصّته، فمثل هؤلاء يستغفرون حتّى من الشبهات والمكروهات لأنّ الله لا يحبّ للإنسان أن يكون من أهل اللغو: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[2]. ومثل هؤلاء الأشخاص حين يحاسبون أنفسهم في الليل ليروا ما ارتكبوه من حرام في النهار، فإنّهم لا يقلقون من هذه الجهة لكنّهم يحاسبون أنفسهم على كلّ لغوٍ صدر منهم. فهؤلاء الأفراد تتوجّه محاسبتهم أكثر شيء إلى تحديد تلك الأعمال التي كان يُفترض أن يقوموا بها، والتي إذا لم يقوموا بها فإنّها تضرّ بآخرتهم؛ فإلى أين نظروا؟ وماذا قالوا؟ وأيّ صوت سمعوا؟... وحيث إنّهم إذا لم يفعلوا ذلك فلن يكون هناك مشكلة تتعلّق بآخرتهم. فقلقهم هو حول سبب قيامهم بأعمالٍ من هذا القبيل، وعدم صرف وقتهم بالعمل المتيقّن الفائدة.

الاستغفار من الصلاة!

لعلّنا نتصوّر أنّه لا يوجد أعلى ممّا ذكرنا، ولا يوجد من هو أفضل من هؤلاء، لكنّ هذا التصوّر خاطئ. فهناك من ينظر إلى ما نعتبره نحن عبادة ونطمئن له ونرضى بأنّنا وُفّقنا لأدائه على أنّه معصية حيث إنّ: «حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِين»[3].

إنّ من أفضل الأعمال التي تتصدّر أعمالنا الصالحة هي الصلاة، حيث قيل: «الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّين»، «الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوع»، و«الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِي». ولكن هل إنّ لصلاتنا مثل هذه الحيثيّة والمنزلة؟ إنّ أولياء الله يستغفرون الله من هذه الصلوات التي نؤدّيها، وهم يعتبرونها من المعاصي التي يمكن أن تصدر منهم، فمثل هذه الصلاة لا تتناسب مع شأن أولياء الله. إنّ المدّة الزمنيّة التي نقضيها في

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٨.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٥، الصفحة ٢٠٥.

الصلاة طوال الأربع وعشرين ساعة كلّ يوم لا تتجاوز الساعة الواحدة، وهذه الساعة الواحدة تكون في الأغلب فاقدة للتوجّه الكامل والحضور القلبيّ. فإذا كانت الصلاة مخاطبة ومكالمة مع الله، فينبغي أن تكون منزّهة عن التوجّه إلى غيره، وإنّه لمنتهى قلّة الأدب أن يكون القلب في محل آخر واللسان يخاطب الله. تصوّروا أنّ أحد أصدقائكم كان يتحدّث معكم لكنّه أثناء الحديث أدار ظهره لكم وتوجّه إلى شخصٍ آخر، ألا تعتبرون مثل هذا الفعل نوعًا من الإهانة وعدم الاحترام لكم؟ فحين نصلّي نكون متوجّهين بأبداننا إلى الله، وإذا لم نتوجّه بقلوبنا إليه نكون كمن أدار ظهره لله. إنّ الله ليس بجسم بحيث تكون وجوهنا نحوه، بل ينبغي لقلوبنا أن تكون متوجّهة إليه، فحين لا تتوجّه القلوب إلى الله يكون مثلها كمثل من أعرض بوجهه عنه. ففي هذه الحال، هل إنّ مثل هذه الصلاة تستحقّ الثواب؟ وهل يحقّ لنا أن نعتزّ بأنفسنا ونتبجّح بأنّنا أدّينا عبادة كهذه؟ أم ينبغي أن نخجل من سوء أدبنا؟

وفي رواية عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: «أَمَا يَخَافُ الَّذِي يُحَوِّلُ وَجْهَهُ فِي الصَّلَاةِ أَنْ يُحَوِّلَ الله وَجْهَهُ وَجْهَ حِمَارٍ؟»[1]. أولئك الذين هم أفضل منّا وأعلى، إذا حاسبوا أنفسهم على أعمالهم، فإنّهم يسألون أنفسهم من باب المثال هل إنّ صلاة الصبح التي صلّيناها، أو الدعاء الذي قرأناه، أو القرآن الذي تلوناه، كانوا مصحوبين بحضور القلب والتوجّه إلى الله؟ ولهذا، فإنّهم يستغفرون الله دائمًا لأنّهم يرون أنّهم لا يملكون ما يقدّمونه لله، حتّى إنّهم قد أساؤوا الأدب حين كانوا يطلبون الأنس بمحبوبهم.

بالطبع، نحن لسنا في هذا المستوى، لكن إنّ أقلّ فائدة من مثل هذا التوجّه إلى هذه المقامات هو أن نعلم من نحن! وماذا نفعل! حتّى لا نغترّ بمثل هذه العبادات العرجاء. فلو وُفّقنا ذات ليلة لأداء ركعتين فإنّ الشيطان يوسوس لنا فنُعجب بأعمالنا وعبادتنا! أولياء الله لا يستغفرون الله من ذنوبهم بل من الذكر والعبادة التي أدّوها في محضر الله، ونحن أيضًا ينبغي أن نسأل الله التوفيق للوصول إلى أمثال هؤلاء. إنّ التشيّع والولاية لأهل البيت عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ تعني أن يسعى الإنسان للتشبّه بهؤلاء العظماء. يقول الإمام علي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٨١، الصفحة ٢١١.

عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[1]. فعلينا أن نسعى لنكون مثلهم. وحين يعلم الإنسان بوجود أمثال هؤلاء فإنّه يطلب من الله توفيق نيل مثل هذه الحالات.

وعلى أيّ حال، إنّ من مراتب المحاسبة هي عدّ التوجّه إلى غير الله في أيّ حال من الأحوال معصية وذنبًا، فبعض عباد الله يحاسبون أنفسهم على هذا الأمر. مثلما أنّ التوجّه إلى غير الله في الصلاة يُعدّ معصية عند المقرّبين. أمّا هذه الصلوات التي تصدر من أمثالنا فهي من السيّئات عندهم.

بالطبع، إنّ المقرّبين درجات، حتى إنّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أنفسهم ليسوا في مرتبة واحدة كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2]. إنّ بعض أولياء الله يعدّون مجرّد التوجّه إلى غير الله معصية لأنّهم دائمو الحضور في محضر الله. في حين أنّنا نحن نحصر الحضور بين يدي الله بالصلاة فقط. أمّا في الحالات الأخرى، فإنّنا ننصرف إلى الدراسة والمباحثة والشؤون المنزليّة والأبناء، ولا نطمع أن نتوجّه إلى الله في غير أوقات الصلاة. أمّا بعض عباد الله فإنّهم يرونه حاضرًا دائمًا. وبناءً على قول الإمام الراحل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنّ العالم هو محضر الله وأولياء الله يرون أنفسهم دائمًا في هذا المحضر. بناءً عليه، إذا حصل لهم أيّ توجه إلى غيره وانصرف قلبهم عنه فإنّهم يستغفرونه، ويقول الله تعالى في وصف هؤلاء: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3]، فهذا المقام مقامٌ رفيع جدًّا. يوجد من بين طلاب العلوم الدينيّة أشخاص لا يغفلون عن ذكر الله حتى أثناء الدرس والمباحثة، وحتى حين تتعمّق أفكارهم في حلّ المعضلات العلميّة فإنّ قلوبهم تبقى مع الله.

---

(١) خطب الإمام علي (ع)، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٣، الصفحة ٧٠.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٣.

(٣) سورة **النور**، الآية ٣٧.

شدّة محبّة أولياء الله

هل إنّ مثل هذا الأمر ممكنٌ في الواقع؟ لعلّ تصوّرًا مثل هذا الأمر فيه شيء من الصعوبة بالنسبة لنا، لكن لا ينبغي أن نعدّ ما هو صعبٌ علينا أمرًا مستحيلًا. إنّ الذي يعتبر تفكّره وسيلة لتلقّي العلم من الله، كيف يمكن أن يغفل عنه؟ فقد جرّب كيف يأخذ كلّ هذه المعارف من الله فهل يمكن أن يرى الله غائبًا؟ فإذا كان يُحادث شخصًا فإنّه يلتفت إلى أنّ الله يريد أن يُجري هذه الكلمات على لسانه ويهدي من يشاء إلى صراط الله، وهو يعلم أنّه ينطق بهذا الكلام في محضر الله وبأمر الله، فمثل هذا الشخص لا يغفل عن الله أبدًا. فالله لديه مثل هؤلاء العباد. وإذا كنّا لا نعرفهم، فهذا ليس بدليل على عدم وجودهم، فبفضل وجود هؤلاء ينزل الله بركاته على الناس؛ إنّهم الشيعة الخلّص الذين، ببركتهم، يرفع الله العذاب والبلاءات عن أهل الأرض.

ولتقريب مثل هذه المسائل إلى أذهاننا، يمكننا أن نضرب بعض الأمثلة من بين الأمور التي تحدث معنا أحيانًا. فذاك الشخص الذي يفقد عزيزًا لا سمح الله حين يأتي إلى الدرس فإنّه يكون متوجّهًا بقلبه إلى ذلك العزيز، فهو يدرس ويستمع ويباحث لكنّه من أعماق قلبه متوجّه إلى ذلك الفقيد. أو على سبيل المثال، أولئك الذين تحترق قلوبهم بحرقة الحبّ والعشق، فإنّهم وإن انشغلوا بالأعمال اليوميّة، لكنّهم متوجّهون بقلوبهم إلى ذلك المحبوب والمعشوق. وأولئك الذين عرفوا الله لا يعتبرون جمال الله وجلاله أقلّ من جمال مخلوقاته، ولأجل ذلك فإنّهم يحبّون الله أكثر وأشدّ من محبّتهم لمخلوقاته، وحين تتحقّق مثل هذه المحبّة لا يمكن أن لا يتوجّه القلب إلى ذلك المحبوب، لأنّ القلب يتوجّه إلى المحبوب بشكل تلقائي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1].

لهذا، علينا أن نسأل الله ونطلب منه الاستفادة من تعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ، وعلينا أيضًا أن نتوسّل بهم لكي ينوّر الله ببركة أنوارهم المقدّسة قلوبنا بنور معرفته ومحبّته. فلو تحقّقت مثل هذه السعادة للإنسان واستقرّت محبّة الله في قلبه وتجذّرت، فلن يكون ذكر الله أمرًا صعبًا عليه، بل على العكس لو غفل

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

لحظة واحدة عن ذكره يكون كمن فقد أمرًا عظيمًا.

ذكرى عن المرحوم الشيخ الأنصاري

إنّ لله عبادًا يحبّهم حقًّا. وأمثال هؤلاء لا يمكن أن يعوّضهم عن حبّ الله شيء، بل تجدهم دائمي البحث عن أيّ فرصة يخلون فيها بربّهم ويناجونه. وينقل أحد الأعاظم عن المرحوم الشيخ الأنصاري (رض) أنّ الشيخ دخل إلى منزله في أحد الأيّام الحارّة وكان عطشه شديدًا فطلب بعض الماء (لعلّكم رأيتم أو سمعتم أنّ في تلك الأيام لم يكن هناك في النجف ثلجٌ أو برّاد، بل كان هناك إبريق يعلّقونه في بعض السراديب لكي يبرد قليلًا). فقال الشيخ في نفسه: فلأصلّي الركعتين حتى يأتون لي بالماء. فتصوّروا أنّ الوقت هو وقت الظهر وفي حرّ الصيف، الذي قد تصل فيه الحرارة إلى خمسين درجة مئويّة في النجف الأشرف، والشيخ متعبٌ جدًّا من التدريس وهو عطشانٌ، لكنّه لا يجلس في هذه البرهة الزمنيّة بلا عمل. وأثناء انشغاله بهذه الصلاة تحصل له حالة تحمله على قراءة إحدى السور الطوال فيمتدّ وقت الصلاة عدّة ساعات. وحين ينتهي ويتناول الكوب ليشرب منه الماء، يجد أنّ الماء قد أصبح حارًّا جدًّا فيضطر لشربه والرجوع إلى عمله.

أجل، إنّ أمثال الشيخ الأنصاري يستغلّون مثل هذه الفرصة للصلاة وكأنّهم أدركوا محبوبهم. وأيّ أنسٍ يعيشه هؤلاء! يلتذّون بمثل هذه الصلاة إلى الدرجة التي ينسون فيها عطشهم. إنّها قصص واقعيّة تحكي عن مدى أنس هذا الرجل العظيم بربّه. إنّنا لا نعرف من الشيخ الأنصاري سوى رسائله ومكاسبه وقلّ ما نعرف عن مقاماته المعنويّة. فعلينا أن نسأل الله أن يترحّم علينا بمثل هذه المعرفة لكي نقدّر أهميّة عمرنا ونخطو بصورة أكثر جدّيّة على طريق العبوديّة ونقترّب نحو التشبّه بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لعلّنا بذلك ننال شفاعتهم.



- اجتناب الانبهار بالدنيا
- الحكمة في عدم تساوي الناس في التمتّع بزينة الدنيا
- أفضليّة رزق الله على الأرزاق الدنيويّة
- الغبطة الممدوحة بشأن مال الدين

«طُوبَى لِعَبْدٍ لَمْ يَغْبِطِ الْخَاطِئِينَ عَلَى مَا أُوتُوا مِن نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا. طُوبَى لِعَبْدٍ طَلَبَ الْآخِرَةَ وسَعَى لَهَا، طُوبَى لِمَنْ لَمْ تُلْهِهِ الْأَمَانِيُّ الْكَاذِبَة»[1].

اجتناب الانبهار بالدنيا

لو دقّقنا في مواعظ النبيّ الأكرم وأهل بيت العصمة والطهارة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فسوف نرى أنّ من القضايا المحوريّة والمهمّة التي تمّ التركيز عليها كثيرًا وجرى ذكر العديد من المطالب المرتبطة بها هي قضيّة التوجّه إلى الآخرة واجتناب الانبهار بالدنيا. وبين قوسين، أقول إنّ جميع تعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مشتقّة من **القرآن الكريم** وكلماتهم ومواعظهم تابعة لبيانه والتعليم والتربية الإلهيّة. فهم الذين تربّوا عند الله من دون أيّ واسطة، والقرآن في الواقع عِدْلهم. وبعبارة أخرى، إنّهم تجسيد للقرآن؛ مصاديق له في كلّ جزئيّاته، ولو التفتنا جيّدًا إلى كلماتهم لرأينا أنّها مستنبطة من القرآن ومتطابقة معه. وهم أنفسهم قد أكّدوا على هذه النقطة وهي أنّ كلّ ما يقولونه هو من القرآن، وأنّ ما يميّزهم عن سائر الناس هو أنّهم يفهمون من كلام الله أمورًا لا يفهمها غيرهم أو يفهمون القليل منها.

على أيّ حال، إنّ من المسائل التي تمّ التركيز عليها كثيرًا في **القرآن الكريم** هي استحقاره للدنيا واستصغاره لها وفنائها. ويؤكّد أنّ الآخرة هي خيرٌ وأبقى وأنّ الحياة الدنيا تؤدّي إلى غرور الإنسان وخداعه ومنعه من الوصول إلى الكمالات إلى

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٧٩ و ٢٨٠.

الدرجة التي جُعل تعلّق القلب بالحياة الدنيا مُرادفًا للكفر: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾[1]. وبحسب هذا البيان، فإنّ الكفّار هم أولئك الذين يرجّحون الحياة الدنيا على الحياة الآخرة، وحين يدور الأمر بين الرغبات الدنيويّة وما ينفع للآخرة فإنّهم يرجّحون تلك اللذائذ العابرة الفانية على السعادة الدائمة والأبديّة لعالم الآخرة.

وفي هذا المقطع من حديث الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول مخاطبًا عبد الله بن جندب بأسلوب البيان القرآني: «**طُوبَى لِعَبْدٍ لَمْ يَغْبِطِ الْخَاطِئِينَ عَلَى مَا أُوتُوا مِن نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا. طُوبَى لِعَبْدٍ طَلَبَ الْآخِرَةَ وسَعَى لَهَا، طُوبَى لِمَنْ لَمْ تُلْهِهِ الْأَمَانِيُّ الْكَاذِبَةُ**».

وهذه الرواية عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ تشبه مخاطبة الله لنبيّه الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في القرآن حيث يقول: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2]. بالطبع، يجب الالتفات إلى أنّ هذا النوع من الخطابات القرآنيّة يتوجّه بالظاهر إلى شخص النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لكن وكما بيّن الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فإنّ هذا أسلوب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة»، وبحسب قولنا في إيران «نطرق الباب ليسمع الجدار».

قد يكون الإنسان في حالةٍ تكون عينه مفتوحة وينظر إلى هنا وهناك ويؤدّي ما عليه وهو يرى ضمن ذلك تلك النعم التي يحصل عليها الآخرون في حياتهم، فهذه نظرة عابرة، لكن أحيانًا قد يتطلّع الإنسان إلى شيء ويقع تحت تأثيره. في هذه الآية الشريفة، يقول الله إنّه لا ينبغي أن تمدّ عينيك إلى تلك النعم التي حبونا بها الآخرين، فكلّ ذلك من زخارف الدنيا وزينتها، وقد أعطيناها للناس من أجل أن نختبرهم ونفتنهم.

ومن الطبيعيّ أنّ الناس لا يتساوون من حيث الاستفادة من الحياة الدنيا ونعمها. فقد كان مثل هذا الاختلاف تكوينيًّا منذ البداية وحتّى الأبد. ولهذا الموضوع أسباب عديدة يمكن الحديث عنها في محلّها. وعلى أيّ حال، حين يقع

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان ٢ و٣.

(٢) سورة طه، الآية ١٣١.

نظر الإنسان على النعم التي وُضعت في أيدي الآخرين، من الممكن أن يقع تحت تأثيرها، كأن يرى مثلًا أنّ للآخرين بيوتًا وسيارات وبساتين وغير ذلك، بينما هو ما زال يعيش في بيتٍ حقير مستأجرٍ ولا يمتلك سيارة وليس لديه حديقة وعشرات المشاكل الأخرى التي تقف في طريقه. فحين يتطلّع الإنسان إلى مثل هذه النعم والظواهر الحياتيّة قد ينشأ في نفسه هوس تجاهها، وحين يشتدّ هذا الهوس سوف يسعى للحصول على تلك الأمور. ففي البداية، يقول سوف أحصل على هذه الأشياء عن طريق الحلال، ولكن حين يرى أنّه لا يمكنه الحصول عليها بالحلال فإنّه يتّجه نحو الشبهات ويلبسها لباسًا شرعيًّا، وحين يرى أنّه لم يصل إلى ما يريد بهذه الطريقة، فإنّه يضطر للدخول في الحرام للحصول على مشتهياته. فعلى سبيل المثال، لأجل أن يحقّق حياة أفضل، فإنّه يقترض مهما أمكن ويمضي على أوراق بنكيّة وحوالات، وحين لا يقدر على تسديد تلك الشيكّات، ولأجل أن لا يذهب ماء وجهه، فإنّه يقترض عن طريق الربا أو يُخلف وعوده. وفي النتيجة، يتلوّث بالحرام القطعيّ. يوجد الكثير من الأشخاص الذين سلكوا مثل هذا الطريق، فما أكثر أولئك الذين لم يكونوا يمتلكون أي شيء لكنّهم بسبب ذلك الهوس سعوا للحصول على تلك الثروات الطائلة.

فإذا أراد الإنسان ألّا يبتلى بمثل هذه المعاصي والعواقب السيّئة، يجب عليه في البداية أن يسدّ منافذ هذه المعاصي فلا تعدو عيناه إلى ظواهر الدنيا وإمكانات الآخرين، بل ينظر نظرة عابرة إليها. صحيح أنّ هذه زخارف وزينة الحياة الدنيا، لكنّ النظر إليها سيؤدّي إلى حرمان الإنسان من الحياة الأخروية التي هي خيرٌ وأبقى.

الحكمة في عدم تساوي الناس في التمتّع بزينة الدنيا

يخاطب الله نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذه الآية الشريفة حول سبب تفضيله بعض الناس بالعطاء، ويبين في هذا المجال نقطتين:

النقطة الأولى: هي أنّ تفضيل بعض الناس بالنعم لا يدلّ على أنّهم أكثر محبوبيّة عند الله، بل إنّ ذلك يشير إلى الفتنة الإلهيّة والامتحان الربّانيّ. وفي آية أخرى، يقول الله تعالى مشيرًا إلى هذا الموضوع: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ

فِتۡنَةٞۚ﴾[1]. وفي موضع آخر، يقول تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾[2]. فالفتنة في الأساس تعني الاختبار. الأموال التي رزقنا الله إياها إنّما تُعتبر فتنة، حتّى يُختبر الإنسان فيما إذا ما كان سيراعي الأحكام الشرعيّة في الحصول عليها وفي إنفاقها أم لا. بناءً عليه، فإنّ ما يكون وسيلة للاختبار لا يستحقّ أن نتطلّع إليه بأعيننا ونمدّها نحوه. بلى لو كان هناك شيء له أصالة ومطلوبيّة بالذات فإنّه يستحقّ منّا أن نفكّر فيه ونركّز أنظارنا عليه، لكن بما أنّ هذا الأمر يُعدّ وسيلة للاختبار فينبغي بعد هذا الاختبار أن ندعه، فإنّه لا يستحقّ منّا أن نشغل بالنا به، كتلك الورقة التي تُعطى للطالب في الامتحانات لكي يكتب عليها الإجابات فلا ينبغي أن يشغل باله في جماليّة هذه الورقة وشكلها، بل عليه أن يفكّر بالامتحان لكي ينجح فيه.

النقطة الثانية التي أُشير إليه، في هذه الآية الآنفة الذكر، هو مقارنة هذه النعم بالنعم الأخرويّة، فالتعبير الذي استعمله القرآن في هذا المورد مليءٌ بالمعنى والدقّة: ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[3]. هذا الأمر يتّضح جيّدًا حين نلتفت إلى أنّ الرازق بحسب الرؤية القرآنيّة والتعاليم الإسلاميّة هو الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[4]. وفي الوقت نفسه، يقول لنا لا تمدّوا أعينكم إلى هذه النعم التي تعدّ في الحقيقة وسيلة للاختبار، فإنّ رزق الله الخاصّ هو شيء آخر، ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾[5]، هو ذلك الرزق الذي ذكره بشأن الشهداء ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾[6]. فهذا هو الرزق الذي يستحقّ الاهتمام والمتابعة والسعي.

أفضليّة رزق الله على الأرزاق الدنيويّة

يجب الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ جميع الأرزاق هي رزق الله باعتبار، أمّا ما يُنسب إلى الله من باب التشريف، فإنّه يتمتّع بأهميّة رفيعة؛ كتعريف الكعبة بـ

---

(١) سورة **التغابن**، الآية ١٥.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٣٥.

(٣) سورة **طه**، الآية ١٣١.

(٤) سورة **الذاريات**، الآية ٥٨.

(٥) سورة **طه**، الآية ١٣١.

(٦) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٩.

﴿بَيْتِىَ﴾[1]، في حين أنّ جميع البيوت هي بيوت الله، فمثل هذه الإضافة تُسمّى بالإضافة التشريفيّة أيّ إنّه بسبب الشرافة الموجودة في بعض الأشياء فإنّ الله ينسبها إلى نفسه. والنموذج الآخر لهذا المطلب موجود في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[2] فلكلّ كائنٍ حيّ روح، وروحه هي من الله، لكنّ الله نسب روح الإنسان فقط إلى روحه.

بناءً عليه، فإنّ النعم الدنيويّة هي وسيلة للاختبار والفتنة قبل أيّ شيء. وثانيًا، لا يمكن عدّ أيّ واحدة منها رزقًا إلهيًّا، فالرزق الإلهيّ بحسب ما يراه الله تعالى لنا هو ذاك الذي يكون من نصيب عباده الخواصّ في الآخرة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾[3].

يوجد لدينا آيتان أُخريان بنفس هذا المضمون (عدم التأثّر بتمتّع الآخرين بنعم الدنيا) حيث يقول الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[4]. والآية الأخرى في سورة **التوبة** الرقم ٨٥ تشبه هذه الآية تمامًا مع اختلاف في كلمتين، وهذه الآيات نزلت بشأن المنافقين.

وقد استعمل الله تعالى في هذه الآيات كلمة «الإعجاب». وللإعجاب مفهومٌ أعمق من استحسان الإنسان للشيء، فكلّ شيء يجعل الإنسان تحت تأثيره ويجعله منفعلًا نقول عنه بأنّه أعجبه. والله تعالى يقول للنبيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لا تشغل قلبك بكثرة أموالهم وأولادهم. هؤلاء لن يذوقوا طعم الحياة وعذوبتها. وأوّل آلام الرأس والمتاعب التي تصيب محبّي المال تكمن في عمليّة الجمع والتكديس، ثمّ في عمليّة المحافظة على تلك الأموال، ولأجل ذلك فإنّهم لا يدركون جماليّة الحياة. فحين الموت أيضًا سيرون أنّهم يفقدون كلّ ما شقوا في جمعه وحراسته، فيُصابون بالحسرة والحزن الشديدين.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٣٥.

(٢) سورة **الحجر**، الآية ٢٩.

(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٦٧.

(٤) سورة **التوبة**، الآية ٥٥.

وها هي الأموال التي جنوها بزهرة شبابهم وبذلوا العمر وظلموا وتجاوزوا حقوق الآخرين من أجلها، ها هي الآن تُسلب من أيديهم. ففي مثل هذه الحالة، ينتقلون من هذه الدنيا كفّارًا. وفي مقام التعبير عن موت هؤلاء، لا يقول الله تعالى «يموتون» بل يقول: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾[1]، أي إنّهم يعانون من أسوأ الآلام؛ وكلّ ذلك نتيجة الفشل في الاختبار والذي سيرونه أثناء الموت ظاهرًا أمامهم. فالله يستعمل هذه التعابير لكي يحذّر الإنسان من التعلّق بالدنيا ومدّ العين إلى زينتها.

أمّا لماذا جعل الله في قلب الإنسان مثل هذا الميل نحو هذه الظواهر الدنيويّة فيتطلّب بحثًا آخر. ولكن على أيّ حال، من الواضح أنّ هذه الآيات والروايات هي بصدد تحذير الناس من مدّ العين إلى المظاهر المادّيّة للحياة.

الغبطة الممدوحة بشأن مال الدنيا

يجب الالتفات إلى أنّ نعم الدنيا لا تختصّ بالكفّار، بل إنّ بعض العظماء وأولياء الله قد حازوا على الكثير من النعم كحضرة سليمان النبيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي تمتّع بالكثير من النّعم الإلهيّة، كما قال **القرآن الكريم** بشأنه: ﴿مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيَ﴾[2]. وقد جاء في أحوال هذا النبيّ أنّ جميع الجنّ والإنس وحتّى الحيوانات المفترسة والطيور كلّها كانت تحت إمرته. بناءً عليه، لا ينبغي أن نعتبر أنّ كلّ من يحوز على النعم هو شخص سيّئ وأنّه سيتعذّب بسبب ذلك، بل إنّ هذا النوع من النعم هي أسباب للاختبار والفتنة. هناك من يخرج من هذه الفتنة مرفوع الرأس وهناك من سيخرج مطأطئ الرأس، وأولئك الذين لم يراعوا الموازين الشرعيّة في جمع هذه الأموال واستعمالها سيصيبهم الخزي. بناءً عليه، لا عيب في أن يطلب الإنسان من ربّه تلك الأموال الدنيويّة لكي يستعملها في سبيل الآخرة. فالنعم التي تُعطى للمؤمنين، إذا أحدثت لدينا الغبطة لأنّهم يصرفونها في سبيل الله فلا إشكال في ذلك، كتلك الأموال التي كانت بيد حضرة السيدة خديجة عَلَيْهَا السَّلَامُ والتي أنفقتها في سبيل نشر الإسلام وإحيائه. فالخطير هو أن نتحسّر على تلك

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٥٥.

(٢) سورة **ص**، الآية ٣٥.

الأموال والإمكانات الدنيويّة التي للكفّار والتي لا يستفيدون منها لأجل عمارة الآخرة. ويضرب الله لنا مثلًا في القرآن لكي نرى عاقبة أولئك الذين لم يستعملوا تلك الأموال والإمكانات لأجل آخرتهم.

لقد كان قارون شخصًا يمتلك الكنوز الكثيرة والتي كان يعجز عن حمل مفاتحها عددٌ كبيرٌ من الرجال الأشدّاء: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾[1]. وكان يستعرض أمواله أمام قومه. ونجد هنا أنّ بعض أتباع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانوا يقولون: يا ليت لنا مثل ما لديه. ولا نعتبر أنّ ما قالوه هو معصية أو حرام ولكن حين شاهدوا كلّ تلك المجوهرات والثروات وقعوا في ذلك الهوس: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2]. فحين عصى قارون موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخسف الله به وبداره وممتلكاته الأرض، فإنّ أولئك الذين كانوا يتمنّون الحصول على ثرواته رجعوا إلى أنفسهم وقالوا: لقد أخطأنا ولو كان لدينا مثل أمواله لابتُلينا بهذه العاقبة، ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

ينقل القرآن المجيد هذا النحو من القصص لكي نتدبّر فيها وندرك أنّ تلك النعم التي يعطيها الله للآخرين لا قيمة لها حتى نتطلّع إليها بأعيننا ونعلّق القلب بها. أجل، لو أنّ الإنسان حصل على الأموال بطريق صحيح وأنفقها في سبيل الله فهذا حسن، لكن لا يستحقّ المال أن نعلق القلب به، بل هو مجرّد وسيلة للفتنة والاختبار وهو يشبه ورقة الامتحان التي لا تستحق منّا أن نتعلّق بها. إذًا، «**طُوبَى لِعَبْدٍ لَمْ يَغْبِطِ الْخَاطِئِينَ عَلَى مَا أُوتُوا مِن نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، طُوبَى لِعَبْدٍ طَلَبَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا، طُوبَى لِمَنْ لَمْ تُلْهِهِ الْأَمَانِيُّ الْكَاذِبَةُ**».

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٧٩.

(٣) سورة **القصص**، الآية ٨٢.



- التأثيرات المتبدالة بين الناس في أقوالهم
- ضرورة الالتفات إلى مستوى المخاطَب
- «الأسرار» أو الكلام الذي يفوق قدرّة التحمّل
- انطباق القول مع الفعل شرطٌ أساسيّ

«رَحِمَ اللهُ قَوْمًا كَانُوا سِرَاجًا وَمَنَارًا، كَانُوا دُعَاةً إِلَيْنَا بِأَعْمَالِهِمْ وَمَجْهُودِ طَاقَتِهِمْ، لَيْسُوا كَمَنْ يُذِيعُ أَسْرَارَنَا».

التأثيرات المتبادلة بين الناس في أقوالهم وأفعالهم

لا شكّ أنّ جميع الناس يؤثّرون ويتأثّرون ببعضهم بعضًا في الحياة الاجتماعيّة، وذلك يجري على أنحاء مختلفة، وتكون هذه الآثار سلبيّة أو إيجابيّة. وأكثر هذه التأثيرات تحدث من جرّاء الأقوال، وبنسبةٍ أقلّ من جرّاء الأفعال. وهذه القضيّة كانت موضوع أبحاث مستفيضة في العديد من فروع العلوم الإنسانيّة. بالطبع، إنّ أساس ذلك يرتبط بعلم النفس. بناءً عليه، لا يمكننا أن نحيط بجميع أبعاد هذا الموضوع بذكر بعض الجمل. ونحن هنا نشير إلى عدّة نقاط بصورة إجماليّة: قد يظهر هذا التأثير الذي يحدث في الناس من جرّاء محاوراتهم وتخاطبهم بصورة التعليم والتعلّم، وينشأ في العلاقة التي تكون بين المعلّم والمتعلّم سواء كان هذا التعليم والتعلّم بصورة رسميّة أو غير رسميّة.

بالطبع، إنّ نطاق التعليم والتعلّم وسيع جدًّا ويمكن أن يتّخذ أشكالًا كثيرة التنوّع، ومن هذه الأشكال التبليغ والدعاية. فإنّ تأثير الأجهزة الدعائيّة على الأفراد لا يقلّ عن تأثير الأجهزة التعليميّة والتربويّة، بل إنّه يكون في بعض الأحيان أكثر. وفي أحيانٍ أخرى، قد نشعر بأنّ سلوكنا قد تغيّر من دون أن نلتفت إلى منشأ هذا التأثّر، فقد كنّا بالأمس على نحو واليوم أصبحنا على نحو آخر. في كثيرٍ من الأوقات، نتصوّر أنّنا أردنا هذا التغيير بأنفسنا وأنّه لم يكن هناك من عامل في البين، لكنّ الواقع يظهر أنّنا قد وقعنا تحت تأثير أمرٍ ما وقد اكتسبنا هذا السلوك من مكانٍ آخر.

كما أنّ نطاق التأثير السلوكيّ على الآخرين شديد التغيّر. ويمكن بالعموم الإشارة إلى تأثير الفئات والفرق الاجتماعيّة؛ والنموذج البارز لذلك هي تلك الجماعات التي تشكّلت في بلدنا ، سواء قبل الثورة أو بعدها ، واستقطبت الكثير من الناس. وإذا أردنا الحديث على مستوًى أدنى، يمكننا تقديم مثال على تأثير أحد التلامذة على زملائه في الصف، فيمكن للتلميذ الذي يتمتّع بمكانة خاصّة في الصف، سواء من ناحية قدرته على التكلّم أو جاذبيّة بيانه وأمثال ذلك، أن يؤثّر بنسبة تسعين بالمئة على زملائه من ناحية طريقة التفكير والسلوك والموضة وكيفيّة الجلوس وأمثال ذلك. لقد تمّ التحقيق بشأن هذه القضيّة وأثبتتها التجارب. فعلى سبيل المثال، التلميذ الذي يرتدي لباسًا خاصًّا يجعل غيره من التلامذة، وفي مدّة وجيزة، يرغبون بهذا اللباس ويسعون إلى تقليده. والأمر على هذا النحو في سائر المجالات السلوكيّة أو القوليّة. فعلى سبيل المثال، قد يطرح أحدٌ قضيّة ويستدلّ عليها بطريقة منطقيّة ويقبل المستمع كلامه تحت تأثير ذلك الاستدلال. لكن في بعض الأحيان، لا يكون الاستدلال محكمًا، إنّما طريقة بيانه وتعامل المتكلّم معه يجعل المخاطَب تحت شعاع تأثيره. فقد يكون المتكلّم مثلًا شخصًا مميّزًا، وفي هذه الحالة يكون خمسين بالمئة من التأثّر بكلامه بسبب شخصيّته ومكانته في ذهن المخاطَب، والعكس صحيح.

فبسبب هذه التأثيرات التي تنشأ من السلوك والقول، فقد ركّز الإسلام على قضايا من قبيل الدعوة والإرشاد والتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ضرورة الالتفات إلى مستوى المخاطَب في الكلام

إنّ طبع الإنسان وخصوصًا الشباب يكون على هذا النحو بحيث إنّهم إذا سمعوا كلامًا جديدًا يحبّون أن ينقلوه إلى الآخرين. فهذه القضيّة من حيث الأساس، هي أمرٌ طبيعي ولا إشكال فيها، لكن ينبغي أن نتوجّه ها هنا إلى بعض النقاط ومنها أن نعرف نوع الشخص الذي نخاطبه ونتأمّل في مستوى تأثير كلامنا عليه. فإذا كان المطلب علميًّا يمكنه إدراكه؟ إنّ الكثير من المعارف غير قابلة للإدراك بالنسبة لأكثر الناس. علينا أثناء نقل المسائل أن نلتفت إلى الاستعداد الذهنيّ والأرضيّة المعرفيّة في الأفراد المخاطَبين، فلا ينبغي أن نقول كلّ شيء لأيّ أحد.

وفيما يتعلّق بهذه النقطة التي ذكرناها، يوجد في الكتب الروائيّة باب تحت

عنوان «كتمان السرّ»، وقد نُقلت روايات كثيرة عن أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ في هذا المجال تقضي بضرورة كتمان أسرارهم وعدم إذاعتها. ولعلّه يُطرح هذا السؤال وهو: ما هي تلك الأسرار التي ما كان ينبغي ذكرها للآخرين؟ ولماذا لُعن بعض أولئك الذين كانوا يفشون أسرارهم؟ ولماذا ذُكر أنّ سبب نزول العذاب على بعض الأشخاص كان بسبب إفشائهم لأسرار أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ؟ وهل نحن نعلم أنّ هناك بعض الأسرار التي يجب علينا كتمانها عن الآخرين؟ فهل تشملنا هذه الروايات أم ترتبط ببعض أصحاب السّر الذين كان عليهم كتمانه فحسب؟ فهل يمكن أن نقول كلّ شيء أمام الجميع؟ وما هو ملاك ومعيار هذا الأمر؟

يشير الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في هذا المقطع من رواية عبد الله بن جندب: إذا كان الإنسان في مقام إرشاد الآخرين فينبغي أن يلتفت إلى استعدادهم، فلا ينبغي أن ينقل كلّ المسائل دفعةً واحدة إلى مخاطبه، فمن الممكن أن لا يكون الفرد مستعدًّا لتقبّل هذا الحجم من المسائل. وبالإضافة إلى ذلك، إنّ بعض الموضوعات ترتبط بتلك المعارف السامية التي تدور حول التوحيد ومقامات الأنبياء والأولياء عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ، والتي لا يقدر كلّ أحد على إدراكها، فهذا النوع من المسائل يُعدّ من الأسرار التي لا ينبغي إذاعتها للجميع وإلّا تسبّبت بضلالتهم. يقول النبيّ صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ في إحدى الروايات «لَوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَه»[1]، ولقد آخى بينهما رسول الله صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ مع أنّ كلًّا من سلمان وأبي ذر كانا متقاربين من ناحية الإيمان والمعرفة الرفيعة.

نستنتج من هذا الأمر أنّ هناك معارف عالية لا يمكن أن يُعبّر عنها اللفظ، وحين نخرجها إلى عالم الألفاظ فإنّ الناس سيفهمون منها معانٍ أخرى. بناءً عليه، لا ينبغي عرضها أمام أيّ إنسان وإلّا يمكن أن يُتّهم ناقلها بالكفر أو تؤدّي إلى كفر المستمع أو توجِد سوء الظنّ تجاه الآخرين. وتصدق هذه القضيّة في مورد الكتاب والتأليف، فلا ينبغي أن نكتب كلّ شيء وننشره في الكتب وإلّا أدّى ذلك إلى انحراف بعض الناس أو إلى تفسير تلك المطالب بما يتوافق مع الفهم العامّي والعرفيّ. وكمثال على ذلك، يمكن الإشارة إلى قضيّة وحدة الوجود في الفلسفة

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٤٠١.

والعرفان. فالكثير من الناس يفهمون هذه الكلمة بنحوٍ مخالف لما يقصده الفلاسفة والعرفاء، ولهذا يتّهمون العرفاء بالكفر، ويقولون لو كان كلّ شيء هو الله أو أنّنا إذا ركّبنا كل أجزاء العالم فسوف يكون الله، فهذا كفر. لكنّ العرفاء لم يقصدوا من وحدة الوجود مثل هذا المعنى أبدًا، فربّما لم نفهم ما قصده العرفاء، لكنّ ذلك لا يعني أنّهم أرادوا ذلك المعنى الخاطئ، فربما قصدوا معنًى رفيعًا يعجز اللفظ عن التعبير عنه.

ومثل هذا الأمر موجود بشأن مقامات الأنبياء والأولياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فبحسب بعض الراويات كان النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جالسًا فمرّ عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أمامه وهناك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «لولا أنّني أخشى على الناس أن يقولوا فيك يا علي كما قالت النصارى في عيسى بن مريم لأخبرتهم عن مقاماتك»[1]. أي إنّ عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان صاحب مقامات لو بيّنها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ للناس لأدّى ذلك إلى سوء فهمهم، ومثلما أنّ المسيحيّين اعتبروا عيسى هو الله لكان هؤلاء المسلمون سيقولون إنّ عليًّا هو الله! ففي مثل هذه الحالة، هناك من لا يقدر على إدراك حقيقة مقامه ويصبحون من جماعة «علي اللهي». وعلى هذا الأساس، فإنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يبيّن جميع مقامات عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى لأصحابه الخواصّ.

فإذا كنّا اليوم نشاهد اختلافات بين الناس بشأن بعض الشخصيّات الكبرى فذلك بسبب اختلاف مراتب فهمهم. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الجميع أن يدركوا عظمة مقام الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ. ومثل هؤلاء الأشخاص ليسوا مبغضين لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والعياذ بالله لكنّ فهمهم لا يتعدّى ذلك. لهذا، لا ينبغي أن ننتظر أن يكون جميع الناس في مرتبة معرفة خواصّ أولياء الله.

---

(١) نصّ الرواية: «يَا عَلِيُّ لَوْلَا أَنِّي أُشْفِقُ أَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفُ مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ الْيَوْمَ مَقَالًا لَا تَمُرُّ بِمَلَإٍ مِنْهُمْ إِلَّا أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ». [**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢١، الصفحة ٨٢.]

«الأسرار» أو الكلام الذي يفوق قدرة التحمّل

يجب أخذ استعداد السامع بعين الاعتبار، إذا كنّا في مقام الإرشاد والتعليم، فلا نخبره إلّا ما يكون قادرًا على فهمه، فما لا يكون للمستمع الاستعداد لأن يسمعه يكون من الأسرار. ومن المسائل التي تُعدّ من الأسرار والتي لا ينبغي أن تُذكر أمام الجميع كما مرّ سابقًا هي تلك المعارف المرتبطة بالتوحيد وبالأنبياء والأولياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فإذا لم نلتفت إلى هذه القضيّة سنتسبّب بضلالة الآخرين ونساعد على وقوع الاختلاف بين أفراد الأمّة. لكنّ الأسرار لا تنحصر بهذه القضايا، فبعض الأسرار قد تكون مرتبطة بالقضايا الاجتماعيّة والسياسيّة.

لقد كانت حياة الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بعد الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بمعظمها حياة التقيّة، لأنّ الحكومات لم تكن لتتقبّل كلامهم المبنيّ على ادّعاء حقّهم ولياقتهم بالخلافة، فلو صرّحوا بهذه المسألة في كلّ مكان لتعاملت معهم تلك الحكومات كما تعاملت مع الأئمّة من قبلهم، ولأدّى ذلك إلى استشهادهم جميعًا وبسرعة. لأجل ذلك، نرى أنّهم كانوا أوّلًا يحدّدون أهل هذه المسائل، ثمّ يدرسون استعدادهم وبعدها يهيّئونهم بالتدريج ثمّ يذكرون لهم من هو الإمام الحقيقيّ، ولماذا لا يتمتّع مدّعو الخلافة باللياقة لهذا المنصب.

بناءً عليه، إنّ حفظ هذه الأسرار هو من الواجبات وإلّا أصبحنا شركاء في دمّ الإمام المعصوم.

من هنا، نجد أنّه في هذا المقطع من وصايا الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبد الله بن جندب، تمّ التعريف بأولئك الذين يمتلكون الأسلوب الصحيح في إرشاد الآخرين وذلك بصورة التلميح. ومن جانبٍ آخر، نلاحظ الذمّ لأولئك الذين يذيعون أسرار الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ففي زمن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان عدد أولئك الذين يؤمنون بإمامته محدودًا، ولم يكن أكثر الناس مطّلعين على حقّانيّته. وحتّى إنّنا نجد من بين أبناء الأئمّة، من لم يكن يفهم قضايا الإمامة فهمًا صحيحًا رغم كونه من الصالحين. وقد ذكر إمامنا الراحل رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأمر في كلماته مرّة أو مرّتين: لا تتصوّروا أنّ قضيّة الأئمّة الاثني عشر التي هي واضحة بالنسبة لنا اليوم، أنّها كانت بهذا الوضوح لجميع الناس منذ اليوم الأوّل.

جاء في إحدى الروايات أنّه جرى حوار بين الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ وزيد بن علي بن الحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (زيد الذي أصبح من شهداء الإسلام العظام وقد جرى مدحه في عدّة روايات، فقد قام لله ضدّ الحكومة الغاصبة). وكان البحث بينهما حول من الذي ينبغي أن يكون إمامًا بعد الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ وكان زيد يستدل قائلًا إنّ والدي كان يحبّني كثيرًا ويلقّمني الطعام بيده، فقال له الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: لو كانت الإمامة لك من بعده فلماذا لم يطلعني؟[1].

فالقضيّة هي أنّه قد كان في زمن أئمّة الهدى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أمورٌ لم تكن واضحة حتى بالنسبة للمقرّبين منهم، لقد كانوا يذكرونها لبعض الناس بصورة سرّيّة. بالطبع، إنّ بعض هذه القضايا لا تثير الحساسيّات في زماننا وفي مجتمعنا، ولكن على أيّ حال هناك أمورٌ تُطرح يجب أخذ مستوى المخاطَبين بها بعين الاعتبار عند عرضها.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية الشريفة: «**رَحِمَ الله قَوْمًا كَانُوا سِرَاجًا وَمَنَارًا**». فهو يترحّم على تلك الفئة من شيعته الذين كانوا مصابيح هداية

---

(١) نصّ الرواية كاملًا: «**أَخْبَرَنِي الْأَحْوَلُ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بَعَثَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا جَعْفَرٍ مَا تَقُولُ إِنْ طَرَقَكَ طَارِقٌ مِنَّا أَتَخْرُجُ مَعَهُ؟ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ كَانَ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ خَرَجْتُ مَعَهُ، قَالَ فَقَالَ لِي: فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ أُجَاهِدُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَاخْرُجْ مَعِي، قَالَ قُلْتُ: لَا مَا أَفْعَلُ جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ فَقَالَ لِي: أَتَرْغَبُ بِنَفْسِكَ عَنِّي؟ قَالَ قُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ حُجَّةٌ فَالْمُتَخَلِّفُ عَنْكَ نَاجٍ وَالْخَارِجُ مَعَكَ هَالِكٌ وَإِنْ لَا تَكُنْ لِلَّهِ حُجَّةٌ فِي الْأَرْضِ فَالْمُتَخَلِّفُ عَنْكَ وَالْخَارِجُ مَعَكَ سَوَاءٌ، قَالَ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا جَعْفَرٍ كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَ أَبِي عَلَى الْخِوَانِ فَيُلْقِمُنِي الْبَضْعَةَ السَّمِينَةَ وَيُبَرِّدُ لِي اللُّقْمَةَ الْحَارَّةَ حَتَّى تَبْرُدَ شَفَقَةً عَلَيَّ وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَيَّ مِنْ حَرِّ النَّارِ إِذًا أَخْبَرَكَ بِالدِّينِ وَلَمْ يُخْبِرْنِي بِهِ؟ فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مِنْ شَفَقَتِهِ عَلَيْكَ مِنْ حَرِّ النَّارِ لَمْ يُخْبِرْكَ، خَافَ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَقْبَلَهُ فَتَدْخُلَ النَّارَ وَأَخْبَرَنِي أَنَا فَإِنْ قَبِلْتُ نَجَوْتُ وَإِنْ لَمْ أَقْبَلْ لَمْ يُبَالِ أَنْ أَدْخُلَ النَّارَ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنْتُمْ أَفْضَلُ أَمِ الْأَنْبِيَاءُ؟ قَالَ: بَلِ الْأَنْبِيَاءُ، قُلْتُ: يَقُولُ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ لِمَ لَمْ يُخْبِرْهُمْ حَتَّى كَانُوا لَا يَكِيدُونَهُ وَلَكِنْ كَتَمَهُمْ ذَلِكَ فَكَذَا أَبُوكَ كَتَمَكَ لِأَنَّهُ خَافَ عَلَيْكَ، قَالَ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ حَدَّثَنِي صَاحِبُكَ بِالْمَدِينَةِ أَنِّي أُقْتَلُ وَأُصْلَبُ بِالْكُنَاسَةِ وَإِنَّ عِنْدَهُ لَصَحِيفَةً فِيهَا قَتْلِي وَصَلْبِي، فَحَجَجْتُ فَحَدَّثْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَقَالَةِ زَيْدٍ وَمَا قُلْتُ لَهُ فَقَالَ لِي: أَخَذْتَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ وَمِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ وَلَمْ تَتْرُكْ لَهُ مَسْلَكًا يَسْلُكُهُ**». [**الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٧٤.]

للقريب وللبعيد. فالسراج يشمل المصباح الصغير والكبير سواء وُضع في مكانٍ مرتفع أو منخفض، لكنّه إذا جُعل إلى جانب المنار فيكون بمعنى المصباح الصغير لأنّ معنى المنار هو المصباح المتوهّج الذي يوضع في مكانٍ مرتفع لكي يهتديَ به السائرون. وعلى أيّ حال، فإنّ من قصدهم الإمام من هذا الكلام هم أولئك الذين يهدون المقرّبين ولا يتركون هداية البعيدين.

انطباق القول مع الفعل شرطٌ أساسيّ لتأثيره

من النقاط الأخرى، التي ينبغي الالتفات إليها في مقام الإرشاد والتعليم، وخصوصًا في التربية والتبليغ المرتبط بالدين الصحيح، هي أن يتطابق قولنا مع فعلنا. إنّ النور يؤثّر في الآخرين بصورة هادئة ومعتدلة في حين أنّ النار تحرق وتؤلم، فينبغي أن يكون الإنسان مثل النور إذا كان في مقام إرشاد الآخرين وهدايتهم ولا ينبغي أن يكون كالنار. فلا ينبغي أن نتحدّث بطريقة تؤذي المخاطَب والسامع ولا ينبغي أن نتعامل معه بحدّة وعنف، بل نتصرّف بطريقة لطيفة معتدلة لكي يؤثّر الكلام الحقّ في المستمع. ويقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمّة هذا الحديث: «**كَانُوا دُعَاةً إِلَيْنَا بِأَعْمَالِهِمْ وَمَجْهُودِ طَاقَتِهِمْ**»، فهؤلاء لم يدعوا الناس بمجرّد اللسان بل بأعمالهم وبأقصى ما يقدرون عليه.

وكما أشير سابقًا، فقد يؤدّي تصرّف شخصٍ ما إلى انجذاب الآخرين إليه، وإذا كان في كلامه ضعف أو نقص فيمكنه أن يجبر ذلك بسلوكه وشخصيّته. بناءً عليه، فإنّ تأثير العمل إذا كان في مقام الإرشاد والنصيحة لا يكون أقلّ من القول، ولأجل ذلك يترحّم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ على أولئك الذين يسعون إلى هداية الناس بأعمالهم وجهدهم.

وعلينا أن نلتفت إلى أنّ مسؤوليّتنا لا تنحصر في إطار العمل الفرديّ بتعاليم الإسلام، فإنّ من أهمّ مسؤوليّاتنا هداية الآخرين سواء كنّا من المشايخ حيث إنّنا قبلنا هذه المسؤوليّة رسميًّا أو غيرهم. فعلى كلّ واحدٍ أن يهدي الآخرين على قدر استطاعته: لو شاهدت الأعمى والبئر لكنت عاصيًا إذا سكتّ[1].

---

(١) ديوان سعدي.

فحين نشاهد الآخرين يضلّون، يجب أن نمسك بأيديهم ونرشدهم. وإنّما يقع إرشادنا موقع التأثير حين يتطابق سلوكنا مع كلامنا. وفي بعض الأحيان، إذا كان سلوكنا صحيحًا فلا نحتاج إلى الكلام وذلك بشرط أن نعتبر الهداية مسؤوليّتنا ونكون مراقبين لسلوكنا وأقوالنا. يجب علينا أن نلتفت إلى أنّنا نستطيع أن نكون قدوة للأزواج والأبناء والأصدقاء والمقرّبين.

ويُلمّح الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في القسم الآخر من كلامه إلى أولئك الذين يريدون هداية الناس إلى الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لكنّ عملهم هذا يؤدّي إلى نتيجة سلبيّة، فيذمّ هؤلاء: «**لَيْسُوا كَمَنْ يُذِيعُ أَسْرَارَنَا**». فأمثال هؤلاء بدل أن يأخذوا بأيدي الناس إلى الطريق الصحيح بواسطة الأسلوب الصحيح، فإنّهم يحولون دون هدايتهم بسبب إفشائهم لأسرار أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. بناءً عليه، يجب أن نكون منتبهين ونسعى لكي يترك سلوكنا الأثر المطلوب في الآخرين ويؤدّي إلى هدايتهم بدل أن يتسبّب لا سمح الله بضلالتهم.



الدرس السادس
علائم الإيمان والمؤمن الحقيقيّ

- الإيمان الظاهريّ والإيمان الواقعيّ
- شرط نجاة الإيمان
- اختلاف الإسلام والإيمان الظاهريّين
- بعض علائم الإيمان والمؤمن الواقعيّ

«يَا ابْنَ جُنْدَب، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ وَيُشْفِقُونَ أَنْ يُسْلَبُوا مَا أُعْطُوا مِنَ الْهُدَى، فَإِذَا ذَكَرُوا اللهَ وَنَعْمَاءَهُ وَجِلُوا وَأَشْفَقُوا، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، مِمَّا أَظْهَرَهُ مِنْ نَفَاذِ قُدْرَتِه، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾»[1].

الإيمان الظاهريّ والإيمان الواقعيّ

يرتبط هذا القسم من الرواية بمجال إيضاح الإيمان الحقيقيّ وآثاره. هذه الآثار التي يمكن من خلالها تحديد المؤمن الحقيقيّ. ويوجد الكثير من الروايات والآيات التي وردت بشأن الإيمان الواقعيّ وآثاره وتعريف المؤمن الحقيقيّ ومراتب الإيمان ودرجاته. وبالحدّ الأدنى، فإنّ من أسباب ذكر هذه المسائل هو تصوّر بعض الأفراد السطحيّين أنّ الإنسان إمّا أن يكون كافرًا أو مؤمنًا؛ فإن لم يكن كافرًا ومنكرًا لله ويوم القيامة فهو مؤمن، فإذا صار مؤمنًا فلا يختلف عن غيره من المؤمنين وسوف تتحقّق له كل آثار وفوائد الإيمان، في حين أنّ الأمر ليس كذلك. ويظهر من الروايات والأبحاث التاريخيّة أنّ هذا النوع من الإعوجاج الفكريّ كان موجودًا منذ صدر الإسلام.

إنّ إسلام بعض الأشخاص يكون إسلامًا ظاهريًّا في مقابل الكفر الظاهريّ. فآثار هذا النوع من الإسلام يرتبط بالحياة الدنيا ولا يترتّب عليه سوى أحكام خاصّة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٠.

فيها. فمن الممكن أن يكون الإنسان مسلمًا في الظاهر، وتثبت له جميع أحكام الإسلام في هذه الدنيا أيضًا، لكنّه لن ينال أي ثواب في الآخرة بل سيبقى في جهنّم ويحترق في أسفل سافلين. فمثل هذا الشخص هو شخصٌ منافق أسلم في الظاهر فقط. وأحكام الإسلام تثبت لهذا الشخص كحرمة إراقة دمه وعدم جواز التصرّف في أمواله وجواز الزواج منه واستحقاقه للإرث من الأب والأم المسلمَين وغير ذلك، لكنّ هذه هي أحكام ظاهريّة فقط ترتبط بهذه الدنيا.

وفي صدر الإسلام، كان هناك جماعة أسلمت على مستوى الظاهر، كانت تحضر في المسجد وتصلّي، وبعض أفرادها كان يصلّي في الصفّ الأوّل، وباختصار كانت هذه الجماعة تلتزم بالأحكام الظاهريّة للإسلام، لكنّها لم تكن مسلمة واقعيًّا. يوجد الكثير من الآيات القرآنيّة التي تحدّثت عن هؤلاء. فمثل هؤلاء وإن كانوا لا يؤمنون في قلوبهم بالله والنبيّ والإسلام، لكن طالما أنّهم أسلموا بالظاهر تنطبق عليهم الأحكام الظاهريّة للإسلام. وملاك هذا الإسلام هو التلفّظ بالشهادتين، فالذي ينطق بالشهادتين يُعدّ من المسلمين. والشهادتان هما الشهادة بالوحدانيّة والشهادة بالرسالة للنبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ بمعنى إعلان القبول بكلّ ما يأتي به هذا الرسول من جانب الله.

بناءً عليه، إذا علم الإنسان أنّ هناك أمرًا قد صدر عن النبيّ حتمًا، لكنّه أعلن عدم قبوله به، فإنّ ذلك يتناقض مع تقبّله للرسالة. فكيف يمكن القول إنّني أقبل برسالة النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ، لكنّني لا أقبل بما جاء به من الله؟! فهذا تناقض. لهذا، فإنّ إنكار ضروريّات الدين يوجب الكفر، وهذا هو الكفر الظاهريّ. أمّا المنافق فلا يكون كذلك، فهو يقول بالظاهر أقبل وأسلّم بكلّ ما جاء به النبيّ، وإذا كان يحمل إنكارًا فإنّه يبقيه في باطنه وفي قلبه؛ أمّا إذا أعلن إنكاره، فهذا كفرٌ ظاهريّ يستلزم تنفيذ بعض الأحكام الظاهريّة للإسلام بحقّه في هذه الدنيا، إلى جانب العذاب الأخرويّ. وقد صرّح بعض الفقهاء مثل الإمام رَحِمَهُٱللَّهُ أنّ إنكار ما هو ضروريّ في الدين يرجع إلى إنكار الرسالة؛ أيّ إنّ الذي يعلم بأنّ النبيّ قد جاء بشيءٍ ما، كالصلاة، بما يمثّله كرسولٍ من الله، لا يجوز له إنكاره. فكلّ مؤمنٍ وكافرٍ يعلم أنّ ما جاء به النبيّ يُعدّ من رسالته، لهذا إذا قال لا أقبل بذلك فهذا تناقض.

وعلى أيّ حال، هذا ما يرتبط بالإسلام الظاهريّ، أي مع التلفّظ بالشهادتين تثبت أحكام الإسلام لهذا الشخص، إلّا إذا ثبت نقضه لها؛ كأن يقول مثلًا إنّني

أخطأت بإعلان إسلامي أو أنكر إحدى ضروريّات الدين، التي يرجع إنكارها إلى إنكار الرسالة. فالأحكام التي تطبّق على إسلام المنافق والإسلام الظاهريّ لا ترتبط أبدًا بالحياة الآخرة وثوابها وعقابها، فهي أحكام ظاهريّة وملاكها هو هذه المسائل الدنيويّة. وفي المقابل، هناك الكفر الظاهريّ أي الشخص الذي لا يتلفّظ بالشهادتين أو ينكر إحدى ضروريّات الدين.

ولأجل التفكيك بين الإيمان الظاهريّ والإيمان الواقعيّ، من الأفضل أن نعبّر عن الإيمان الظاهريّ بالإسلام، ونستخدم لفظ الإيمان فقط في مورد الإيمان الذي يستلزم سعادة الآخرة، مثلما قال الله تعالى في كتابه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1]. فالإسلام هو الإظهار اللفظيّ وأداء الأعمال الظاهريّة والتظاهر الخارجيّ، أمّا الإيمان فيرتبط بالباطن والقلب ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[2]. فلو اعتقد أحدٌ بالتوحيد والنبوّة والمعاد والحقائق الإسلاميّة فمن غير الممكن أن لا يظهر هذا الاعتقاد في الخارج وعلى ظاهره. فلو صدّق الإنسان بشيء لا بدّ أن تظهر بعض لوازمه على مستوى الظاهر.

بالطبع، يمكن للإنسان أن يكون مؤمنًا في بعض الموارد من دون أن يظهر إيمانه حتى آخر العمر، فيكون في حالة التقيّة مثل مؤمن آل فرعون أو أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي لم يظهر إيمانه. وقد جاء في الروايات أنّ أبا طالب هو بمنزلة مؤمن آل فرعون، وقد أدّت هذه القضيّة إلى اشتباه بعض المسلمين، وما زالت إلى يومنا هذا، فأكثر المسلمين (أهل التّسنّن) يعتقدون أنّ أبا طالب لم يؤمن، في حين أنّ الشيعة يعتقدون أنّه قد آمن بالنبيّ منذ بعثته ولكنّه كان يكتم إيمانه كي يتمكّن من الدفاع عن النبيّ في مقابل الكفّار وحمايته.

والنموذج الواضح لهذه القضيّة في القرآن هو مؤمن آل فرعون الذي ذُكر بأنّه: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾[3]، أو في موضعٍ آخر حيث يقول الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٤.

(٢) سورة **الحجرات**، الآية ١٤.

(٣) سورة **غافر**، الآية ٢٨.

﴿مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[1]. فمن الممكن أن يُجبر الإنسان على إظهار الكفر حيث يهدَّد مثلًا إذا لم يسبّ النبيّ الأكرم أو الأئمّة الأطهار عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ والعياذ بالله فإنّه سيُقتل، أو يُهدّد أنّه إذا لم يُهِن الكعبة المعظّمة فسوف يهرقون دمه، فيضطر للتظاهر بالتبرّي، من أجل حفظ حياته، لكنّه لا يعتقد في باطنه بما يقول: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾[2]. فالتّقيّة في مثل هذه الموارد واجبة ولا تضرّ بالإيمان. لهذا، من الممكن أن يكون هناك شخصٌ مثل مؤمن آل فرعون أو أبي طالب يقضي عمره بالتقيّة ولا يعرف الناس أنّه كان مؤمنًا، وذلك لأنّ الإيمان في الأساس هو شأن القلب والباطن.

ولنفرض أنّ مؤمنًا لا يقدر على أداء ركعتين من الصلاة، فعليه في مثل هذه الحالة أن يصلّي بقلبه. بالطبع، إنّ هذا الفرض بعيد، لكن في العصور السابقة وفي أزمنة الرقّ كان بعض الغُلمان يضطرّون إلى ذلك لأنّهم كانوا دائمًا تحت أعين أسيادهم.

شرط نجاة الإيمان

هناك مسألة كانت مورد بحث منذ صدر الإسلام وهي: ما الذي يثبت الإيمان وما الذي يقضي عليه ويزيله؟ يقول البعض إنّه من الممكن أن يؤمن الإنسان وإن كان يرتكب جميع المعاصي ولم يكن يؤدّي أي عمل، ولكن بما أنّه قد آمن فسوف يذهب إلى الجنّة، وقد عُرف هؤلاء بالمرجئة. وفي المقابل، اعتقد البعض بأنّ المؤمن إذا ارتكب الكبيرة فسوف يكون كافرًا، ويُنسَب هذا الاعتقاد إلى الخوارج. كان هؤلاء يقولون إنّ الإيمان هو العمل بالواجبات وترك الكبائر، ولهذا اعتبروا مرتكب الكبيرة كافرًا. ولهذا، استحلّ الخوارج دماء أتباع أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ واعتدوا على أعراضهم وارتكبوا كلّ تلك الفجائع؛ وكانوا يقولون إنّ أولئك قد كفروا، وقد أعلنوا هذا أيضًا بشأن الإمام أمير المؤمنين عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأنّه قبِل بالحكم وهو كفرٌ وشرك، فلذلك أعلنوا أنّه خرج عن الإسلام، ومثل هذا التفكير هو نوعٌ من

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٠٦.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٢٨.

الاستنباط المنحرف فيما يتعلّق بالإيمان.

أمّا من ناحية أئمّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ، فلا يُعدّ أيٌّ من هذين الرأيين صائبًا، فلا رأي المرجئة صحيح ولا رأي الخوارج. فلا يصحّ أن يُقال إنّ مجرّد حصول الإيمان القلبيّ يكفي ليكون الإنسان من أهل الجنّة وإن قضى كلّ عمره بالمعاصي: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[1]؛ كما أنّه لا يصحّ أن يُقال إنّ حياة الإنسان تُختصر بلحظة إيمان ويجوز له بعد ذلك ارتكاب كلّ أنواع المعاصي ويبقى أصل إيمانه محفوظًا. أجل، إذا استطاع الإنسان أن يحافظ على إيمانه حتى آخر لحظة من حياته، وبعد أن يشهد عذاب عرصات يوم القيامة بمقدار معاصيه، وإذا كان يمتلك الاستعداد لنيل الشفاعة، فقد تشمله الشفاعة في بعض المراحل ويدخل الجنّة.

إنّ للإيمان مثل هذه القيمة وهي أنّه إذا استطاع الإنسان أن يحافظ عليه حتى آخر لحظة في حياته، سوف ينجيه. لكن لا يمكن لأيّ إنسان أن يحصل على هذه الطمأنينة وذلك لأنّ ارتكاب المعاصي يؤدّي إلى إضعاف الإيمان بالتدريج وزواله في النهاية ليصبح بعدها هذا الإنسان كافرًا في باطنه. ومصاديق مثل هذه الحالة ليسوا قلّة. ولو دقّقنا قليلًا يمكن أن نحدّدهم، فقد كانوا موجودين في السابق وسوف يبقون إلى النهاية، هذه هي سنّة الله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[2]. فأولئك الذين لا يتردّدون بارتكاب المعاصي ويصبح الذنب عندهم أمرًا عاديًّا فلا يُستبعد انجرارهم إلى الكفر، وسوف يؤدّي ذلك إلى أن يكذّبوا بآيات الله.

إذًا، فإنّ رأي المرجئة بأنّه لا تأثير للمعصية أبدًا على مستوى سعادة الإنسان وشقائه ليس بصحيح، وكذلك قول الخوارج بأنّ الإنسان إذا ارتكب الكبيرة يخرج عن الإيمان فورًا ويصبح كافرًا ليس صحيحًا أيضًا. فلو ارتكب المؤمن كبيرة فإنّ الله يمهله كي يتوب، وإذا لم يتب فإنّه يعذّبه بحسب تلك المعصية في عالم البرزخ، وإذا حُفظ إيمانه فسوف ينجو في نهاية المطاف يوم القيامة.

---

(١) سورة **الزلزلة**، الآيتان ٧ و٨.

(٢) سورة **الروم**، الآية ١٠.

اختلاف الإسلام والإيمان الظاهريّين والواقعيّين

يتّضح ممّا قلنا إنّ كلًّا من الإسلام الظاهريّ والإيمان ينتميان إلى مقولتين مختلفتين هذا أوّلًا؛ وثانيًا إنّ الإسلام الظاهريّ هو مِلاك لأحكام ظاهريّة اجتماعيّة فقط ولا يستلزم السعادة الأخرويّة؛ وثالثًا إنّ الإسلام الظاهريّ يتحقّق بالإقرار بالشهادتين هذا في حال التزم هذا الشخص بلوازمهما، وإن كان على مستوى الظاهر فقط. بناءً عليه، إذا نطق شخصٌ ما بالشهادتين ولكنّه لم يقرّ بالمعاد ولم يقبل به فهو كافرٌ قطعًا ولا يُعدّ مسلمًا بالظاهر. لقد تصوّر البعض أنّ الإقرار بالشهادتين يوجب الإسلام، وأنّ الإسلام يوجب النجاة وإن لم يقرّ هذا الفرد ببعض الأصول والضرورات الموجودة في الإسلام مثل الإقرار بالمعاد؛ ومثل هذه التصوّرات ناشئة من نقصان معرفة الإنسان بالمسائل والمعارف الإسلامية. فالشهادة بالرسالة تعني الشهادة بالرسالة ولوازمها، وهذا يعني أن يقبل الإنسان بكلّ ما جاء به النبيّ من الله. ولا شك بأنّ من الأمور التي يجب أن يلتزم بها المسلم، وهذا ما كان يعرفه المسلمون في صدر الإسلام أيضًا، هو الاعتقاد بالمعاد؛ وقد ذُكر هذا الأمر في السور الأولى من القرآن. فكيف يمكن أن يقول الشخص بأنّني مسلمٌ وأقبل برسالة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لكنّه لا يعلم فيما إذا كان ادّعاؤه شاملٌ للمعاد وأنّه جزءٌ من الرسالة؟ بالطبع، يمكن اجتماع الإسلام الظاهريّ مع الكفر الباطنيّ الذي يؤدّي إلى العذاب الأبديّ. لهذا، وكما ذُكر سابقًا، من الممكن أن يبقى الإنسان مسلمًا حتى آخر عمره ويتصوّر الناس أنّه مسلم صالح وملتزم ولكنّه في الواقع لا يمتلك في قلبه ذرّة إيمان ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1]. وهذا هو الإسلام الظاهريّ الذي يستلزم فقط أن يكون الإنسان مشمولًا بقوانين الإسلام وحقوقه في هذه الدنيا. بالطبع، إنّ بحثنا الآن ليس في ذاك الذي ينبغي اعتباره مسلمًا بحسب الظاهر والذي تشمله الأحكام الظاهريّة للإسلام، فهذه المسألة يحدّدها الفقهاء وهم الذين يقولون ما هي الحقوق الاجتماعيّة التي تثبت لهؤلاء وأيّها لا تثبت.

النقطة الأخرى هي أنّ للإسلام مراتب أخرى أيضًا، وحتّى الأنبياء كانوا يطلبون من الله الوصول إليها، فحين بنى إبراهيم وإسماعيل الكعبة كان من دعائهم أن قالا:

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٤.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[1]، وهذا يدلّ على وجود مراتب عليا للإسلام يُعبّر عنها بالتسليم المطلق لله.

كذلك نؤكّد أنّ توجّه المرجئة ليس صحيحًا وهو أنّ الإيمان يستلزم النجاة مطلقًا، حيث قالوا إنّ الذي يموت مؤمنًا لن يُعذَّب أبدًا، فمن الممكن أن ينتقل الإنسان من هذا العالم مؤمنًا أي يحمل في قلبه الإيمان الواقعيّ لكن بسبب ذنوبه الكثيرة قد يواجه مختلف أنواع العذاب في المراحل اللاحقة. ويوجد روايات متعدّدة في هذا المجال وهي أنّ المؤمن حين ينتقل من هذا العالم إذا لم يتب من ذنوبه ولم تُغفر له هذه الذنوب فسوف يقبض ملك الموت روحه بشدّة ومثل هذه الشدّة قد تستلزم غفران ذنوبه، فإذا حصل ذلك سيرتاح في البرزخ أمّا إذا لم يطهر من ذنوبه على أثر شدّة النزع فسوف تكون الليلة الأولى شديدة عليه وقد ذُكر في الروايات بعض أنواع العذابات في هذه الليلة، فإذا طهر في هذه المرحلة فبها ونعمة، وإلّا فإنّ هذه العذابات ستستمرّ في عالم البرزخ حتى تطهر نفسه وإذا لم يطهر هذا المؤمن طيلة عالم البرزخ رغم كلّ تلك العذابات فإنّه سيلاقي في عرصات القيامة وفي المحشر من الجوع والندم والأسى والوحشة والاضطراب وأنواع المصائب ما يلاقي حتى يطهر. وفي جميع هذه المراحل، من الممكن للإنسان أن تشمله الشفاعة بحسب استعداده وبحسب أعماله: في مرحلة النزع أو في الليلة الأولى من القبر أو في عالم البرزخ وفي النهاية في القيامة[2].

وقد ورد في إحدى الروايات أنّ الأئمة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يقولون لشيعتهم إنّنا نضمن لكم الشفاعة يوم القيامة وعليكم أن تفكّروا في عالم برزخكم وعلى هذا الأساس فلا يعني أنّ كلّ من كان مؤمنًا وشيعيًّا فإنّه سيكون مرتاحًا في عالم البرزخ؛

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٢٨.

(٢) نص الرواية: تفسير الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ لَا يَدْفَعُ عَنهَا عَذَابًا قَدِ اسْتَحَقَّتْهُ عِنْدَ النَّزْعِ، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يَشْفَعُ لَهَا بِتَأْخِيرِ الْمَوْتِ عَنهَا، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لَا يُقْبَلُ فِدَاءٌ مَكَانَهُ يُمَاتُ وَيُتْرَكُ هُوَ، قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَهَذَا يَوْمُ الْمَوْتِ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ وَالْفِدَاءَ لَا يُغْنِي فِيهِ [عَنْهُ]، فَأَمَّا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّا وَأَهْلَنَا نَجْزِي عَنْ شِيعَتِنَا كُلَّ جَزَاءٍ. [**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨، الصفحة ٤٤].

فمن الممكن أن يرزح لسنوات مديدة تحت العذاب في عالم البرزخ، إلى كم سنة يطول هذا العذاب، الله وحده يعلم! فلعلّه يطول لآلاف السنين أو ملايين السنين نعوذ بالله! وعلى أيّ حال، إنّ الشفاعة ليست خارجة عن القوانين. فحين يُقال إنّ فلانًا سوف تناله الشفاعة، فهذا لا يعني أنّها ستناله من اللحظة الأولى التي ينتقل بها من هذه الدنيا. فللشفاعة مراحل ومن الممكن أن تنال الشفاعة الإنسان بواحدة منها، لكنّ تلك الشفاعة النافعة هي التي تختصّ بيوم القيامة وذلك حين يفرغ الناس من الحساب. فإذا لم يوفّق بعدها للطهارة فإنّه سوف يُخلّد في عذاب جهنّم. لأجل ذلك، فقد صرّحت الروايات بضرورة حماية أولادنا من أفكار المرجئة. لقد كان هؤلاء يدفعون الشباب نحو ارتكاب المعاصي ويقولون لهم لا تقلقوا فإنّ كلّ مَن كان مؤمنًا سوف يدخل الجنّة؛ لهذا، كان الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يطلبون من الناس أن يحذروا من أفكار هؤلاء الانحرافيّة: «عَلِّمُوا صِبْيَانَكُمْ مَا يَنْفَعُهُمُ الله بِهِ لَا يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْمُرْجِئَةُ بِرَأْيِهَا»[1]، فمثل هذا التصوّر حول الإسلام خطرٌ جدًّا فحين يظنّ الإنسان أنّه سيُغفر له مهما فعل، فإنّه لن يجتنب أي جناية أو جريمة، ولو كان الأمر كما يقولون حقًّا فلماذا كلّ هذه التعاليم والنذر والإرشادات التي صدرت من النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟

القضية الأخرى هي أنّ الناس ليسوا سواسية في تحصيل الإيمان الواقعيّ، لأنّ للإيمان مراتب كثيرة، وقد تمّ التركيز في رواياتنا على هذه المسألة المتعلّقة بدرجات الإيمان. فبعضها ذكر أنّ الإيمان على عشر درجات، وبعضها ذكر أنّ للإيمان سبع درجات، ولكن بحسب التحقيق والنظر الدقيق يمكننا أن نقول إنّ مراتب الإيمان لا تنتهي؛ فيمكن أن نلاحظ الاختلاف بمراتب الإيمان بين الأفراد إلى الدرجة بحيث لا نجد شخصين متساويين بشكل كامل في هذا المجال.

وما هو مهمّ بالدرجة الأولى هو أن نسعى لجعل إيماننا واقعيًّا ولا نكتفي بالإسلام الظاهريّ؛ فلا نطمئن ونركن إلى أنّنا أصبحنا من المسلمين، وأنه يمكننا أن نرث آباءنا وأمّهاتنا، وأنّ ذبائحنا أصبحت حلالًا، أو أنّ أبداننا طهُرت. فمثل هذه الأمور لا تبعث على الطمأنينة، لأنّها أحكام ظاهريّة مرتبطة بهذه الدنيا. ولأجل

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٧.

تحقيق السعادة الأخرويّة، يجب تحقيق الإيمان في الباطن، وفي الدرجة الثانية ينبغي أن نرى مرتبتنا في الإيمان، فلا نكتفي بالمراتب الأوّليّة. فللإيمان مراتب سامية بحيث أنّه مهما وصل الإنسان، فإنّه إذا نظر إلى المرتبة الأدنى سيدرك مدى ترقّيه أو، أنّه لا سمح الله، إذا تنزّل سيرى أيّ رأس مالٍ عظيم قد أضاع من يده. بالطبع، إنّ هذه التحوّلات يمكن أن تحصل للجميع فقد نوفّق لتقوية إيماننا على مدى حياتنا، ويمكن لا سمح الله أن يتحقّق العكس، فنختبر ونجد أنّ إيماننا أصبح أقلّ. فكلّما أصبح إيماننا أقوى يكون تأثيره في العمل أكثر وقد يصعب تحديد آثار الإيمان في بعض الأحيان.

بعض علائم الإيمان والمؤمن الواقعيّ

هناك بعض الآيات القرآنيّة التي تعرّف الناس على الإيمان الواقعيّ وترغّبهم بتحصيله والسعي لتكميل إيمانهم وعدم الاكتفاء بمراتبه النازلة، ومن هذه الآيات الآية الثانية من سورة **الأنفال**: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]. العلامة الأولى للمؤمن الواقعيّ هي أنّه إذا ذكر الله عنده أو تذكّر الله بنفسه فإنّ قلبه سوف يوجل ويهتزّ. ويمكننا أن نختبر أنفسنا لنعلم مدى تحقّق مثل هذه العلامة في وجودنا. وهنا، من المناسب أن نتوسّع قليلًا بشأن توضيح هذه الآية الشريفة.

إنّ القلب بحسب اصطلاح القرآن هو مركز المعرفة للإنسان، وهو كذلك مركز الأحاسيس والعواطف. فمكان اليقين والإيمان والمحبّة والبغض والحقد والخوف والأمل هو القلب. أمّا ما هو هذا القلب، الذي نُسبت إليه كلّ هذه الصفات؟ فإنّ مثل هذا الأمر يتطلّب بحثًا مفصّلًا لا مجال له الآن. على أيّ حال، فإنّ القلب في الاصطلاح القرآنيّ هو الذي تتجلّى فيه تلك الآثار، وبعبارةٍ علميّة إنّ محل المعارف والأحاسيس والعواطف هو القلب. فلو تحقّق الإيمان بمثل هذه الشروط يجب أن يتحقّق ذلك الإحساس الملازم للإيمان. ولو كان الإنسان يحبّ شخصًا حبًّا حقيقيًّا وصدف أن ذُكر عنده أو تذكّره، فإنّه سوف يلاحظ تغيّرًا في حالته. على

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

سبيل المثال، لو سمع اسم إمام الزمان (عج) سيشعر بأنّ قلبه يهتزّ بمقدار معرفته بهذا الإمام وحبّه له وسوف يجد هذا التغيّر بأحواله. فكلّما ازدادت معرفة الإنسان ومحبّته سوف يظهر فيه المزيد من تغيّر الأحوال.

ومن المصاديق المهمّة لهذه القاعدة ذكر الله. فأولئك الذين يعرفون الله بعظمته اللامتناهية وقد استقرّت هذه المعرفة في قلوبهم فإنّهم سيشعرون بتغيّر حالهم أثناء ذكر الله بحسب درجة معرفتهم، وهذا ما ذكره الله تعالى في الآيات الكريمة من قبيل الخشية والخوف والوجل وأمثالها؛ فكلّ هذه التعابير هي ذات معنًى واحد أو أنّها لوازم لحقيقة واحدة. وقد ذُكر في آياتٍ كثيرة أنّ الهداية أو الإنذار الذي يقوم به النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أو القرآن إنّما يختصّ بأولئك الذين يخشون ربّهم: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾[1]. فهؤلاء ومع أنّهم لا يرون الله فإنّهم يخشونه، وما لم تكن تلك الخشية موجودة لما استفاد الإنسان من هداية القرآن. لهذا، يخاطب الله نبيّه بالقول إنّك ستنذر أولئك الذين لديهم هذه الحالة من الخشية. وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[2]، أو ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾[3]، وفي الآية التي نتناولها في البحث يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4]؛ والوجل هو حالة من الارتجاف والاهتزاز ولو لم تتحقّق هذه الحالة في الإنسان فإنّه لن يختلف حاله سواء ذُكر الله أم لم يُذكر. بناءً عليه، لا يصحّ القول إنّ لدى مثل هذا الإنسان إيمانًا واقعيًّا. فالأثر الأوّل للإيمان هو أنّه يحصل في باطن الإنسان ذلك التغيّر في الحال أثناء التفاته إلى الله وتوجّهه إليه.

ثمّ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[5]، والعلامة الأخرى على الإيمان الواقعيّ هي أنّه لا يكون ساكنًا أو جامدًا، بل هو بحسب الاصطلاح متجدّد ومتحرّك وينمو ويتكامل؛ فحين تُتلى الآيات الإلهيّة على أمثال هؤلاء فإنّهم يزدادون إيمانًا. فمن كان في مرتبة من الإيمان فإنّ الله تعالى وبمقتضى لطفه يرسل

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ١٨.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٥٧.

(٣) سورة **النحل**، الآية ٥٠.

(٤) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

(٥) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

له وسيلة لهدايته وهي القرآن. فالقرآن هو رسالة الله لهدايتنا أكثر، ولأجل تقريبنا من الله أكثر. فلو وصلتكم رسالة من شخصٍ تحبّونه فسوف تعيشون حالة من الفرح والشوق والوجد، في حين أنّ حالتكم، قبل الرسالة كانت طبيعيّة. فالقرآن هو رسالة الله لعباده فكيف يمكن لمن آمن بالله أن لا تتغيّر حاله إذا وصلته رسالة منه؟! فإذا لم يحصل هذا التغيّر فهذا دليلٌ على ضعف الإيمان. يقول القرآن إنّ الإيمان حيٌّ بحيث إنّه حين تتلى آيات القرآن فإنّ الإنسان يصغي إليها ويزداد إيمانه.

العلامة الثالثة التي تظهر في قلب الإنسان المؤمن هي: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]. فحين يزداد إيمان الإنسان ويعرف بأنّ مفتاح جميع الأمور بيد الله، وأنّ سلسلة جميع الأسباب والعلل بقبضته، وأنّه محيط بكلّ شيء، وكلّ شيء إنّما يؤثّر بإذنه، فلن يعتمد أو يثق أو يتوكّل إلّا على الله. إنّنا نرى في العادة حلقات سلسلة الأسباب والمسبّبات لكنّنا لا نرى العامل الأساس المحرّك لهذه السلسلة. فهو تعالى من بيده كلّ هذه السلسلة وكلّ شيء يتحرّك بإرادته. فلو أدركنا ذلك سوف يزداد اعتمادنا وتوكّلنا عليه.

افرضوا أنّ شخصًا له شغلٌ في إحدى الوزارات، فهو يعلم أنّه لا بدّ في البداية من أن يصدر الوزير القرار، ثمّ يقوم معاونه بإرجاع الأمر إلى المدير العام، وبعدها يفوّض المدير العام الأمر إلى المسؤول المباشر، إلى أن يصل الأمر إلى ذلك العامل الذي ينبغي أن ينفّذ الأمر؛ ففي مثل هذه الحالة، سيكون اعتماد هذا الشخص على قرار الوزير، لا على ذاك الشخص الذي ينبغي أن ينفّذ الأمر. فلو عرف الإنسان ربّه على هذا النحو وهو أنّ كلّ حركة وسكون في العالم هما بإذنه، فحينها لن يتوكّل إلّا على الله ولن يخضع أمام الأسباب الظاهريّة ولن يتملّق لهذا وذاك لأجل قضاياه الجزئيّة. ومن جانبٍ آخر، حيث إنّ الله تعالى يقول ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[2]، فإنّه يطيع ويظهر الخضوع لوالديه؛ أو إنّه على سبيل المثال، يتواضع مقابل أولياء الله، لأنّ الله أمر بذلك. ففي الأساس، الاحترام هو لله فقط والطاعة منحصرة به ولا ينبغي الخضوع لغير الله تعالى. لأجل ذلك، فإنّ

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٢٤.

خضوعه بعدها، للنبيّ ولأولياء الله ولأولئك الذين أمر الله بطاعتهم كالمعلّم أو الأبّ والأمّ يكون امتثالًا لأمر الله. إنّ للمؤمن عزّة تمنعه من الالتفات إلى غير الله، سواء كان هؤلاء الغير يحترمونه أو لا، فلا شغل له إلّا مع الله ربّ العالمين. وما دخل الآخرين وتأثيرهم حتى يتوكّل عليهم؟! ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]، فتقديم الجار والمجرور في هذه الآية يدلّ على الحصر أي إنّه يتوكّل على الله فقط.

كانت هذه علامات ثلاث من العلامات القلبيّة والباطنيّة للمؤمنين. وفي الآية اللاحقة، يذكر علامتين عمليّتين وظاهريّتين وهي إقامة الصلاة والإنفاق: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[2]. وفي النهاية، يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾[3].

يقول الإمام الصادق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الرواية إنّ المؤمنين هم أولئك الذين: «**إذَا ذُكَرُوا الله وَنَعْمَاءَهُ وَجِلُوا وَأَشْفَقُوا**»، والوجل هو هذا الاهتزاز القلبيّ. والمؤمنون هم أولئك الذين تهتزّ قلوبهم لذكر الله، والله تعالى يقول في وصف القرآن: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾[4]. فخاصّية القرآن هي أنّه إذا تُلِيَ أمام المؤمنين وسمعوه فإنّ جلودهم تقشعر: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[5]. ففي البداية، تحصل لهم تلك الحالة من القشعريرة، ومن ثمّ يسيطر عليهم الأنس والسكينة، وتعود جلودهم إلى نعومتها وحالتها الأولى. فالوجل هو حالة شبيهة بهذا الأمر الذي يحدث في المؤمنين حين يذكرون الله. مثل حال ذلك الذي يكون في محفل شخصٍ عظيم ولكنّه يغفل عنه، ثمّ يلتفت فجأة إلى وجوده؛ فهنا، نجد أنّه سيضطرب ويهتزّ فجأة فنحن في العادة غافلون عن الله وغير ملتفتين إلى حضور الله الدائم في كلّ زمانٍ ومكان فحين يغفل الإنسان عن هذا ثمّ يحصل له ذكر لله فجأة فإنّه يقشعر ويوجل فهذه هي تلك الحالة القلبيّة. ومثل هذا، إنّما يحصل حين نعتقد بوجود مثل هذا العظيم. فلو لم نشعر بذلك، يجب أن نعلم

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٣.

(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٤.

(٤) سورة **الزمر**، الآية ٢٣.

(٥) سورة **الزمر**، الآية ٢٣.

أنّ إيماننا ضعيفٌ. فحين يذكر الله هذه الصفات يقول: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1]. فالإيمان الذي لا يؤثّر في القلب والعمل ليس بإيمان، والإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يقول لابن جندب أيضًا: «**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَخافُونَ الله**»، وهذه هي النقطة الدقيقة التي نغفل عنها. فإنّ خوفنا من الله عادة ينشأ من أعمالنا السيّئة لأنّه يؤدّي إلى العقاب والسقوط. وفي الواقع، إنّنا نخاف من الآثار والعواقب السيّئة لمعاصينا، ولكنّنا نغفل عن أنّنا لو لم نذنب لكان يجدر بنا أيضًا أن نخاف من أن نُسلب ما لدينا.

وهذا الموضوع مهمّ جدًّا ونحن غير ملتفتين إلى حاجتنا لله في كلّ لحظة. فقد أعطانا الله الإيمان لحدّ الآن، لكن هل سنبقى على هذا الإيمان في اللحظات المقبلة؟ فإذا أراد الله سنبقى مؤمنين ولكن يمكن أن يُسلب إيماننا منّا. وفي زيارة حضرة المعصوم عَلَيْهِ‌السَّلَامُ نقرأ: «فَلَا تَسْلُبْ مِنِّي مَا أَنَا فِيه»[2]، فما أعظم هذه الجملة! ويحكي **القرآن الكريم** عن أقوال المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[3]، فبأي شيء نثق بأنّنا لن نُسلب الإيمان؟ وما هي الضمانة الموجودة التي تؤكّد لنا بقاء إيماننا؟ بناءً عليه، يجب أن نمدّ يد الضراعة إلى الله.

لهذا، إنّ خوف المؤمنين من عظمة الله يختلف عن الخوف من المعاصي التي قد ارتكبناها ومن آثارها السيّئة. فالخوف من أن نُسلب ما حصلنا عليه من نِعمٍ مادّية ومعنويّة هو موضوع آخر أيضًا. ويؤكّد الإمام عَلَيْهِ‌السَّلَامُ على هذه النقطة ويقول: «**وَيُشْفِقُونَ أَنْ يُسْلَبُوا مَا أُعْطُوا مِنَ الْهُدَى**»، فإنّ من أسباب تكرار: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[4] كلّ يوم في الصلاة، هو أنّنا قد حصلنا على هداية الله حتّى هذه اللحظة، ولكن ماذا عن اللحظات الآتية؟ فإنّنا سنحتاج إلى الهداية أيضًا وينبغي أن ننال هدايته؛ فإذا لم تصلنا هذه الهداية سنُضلّ، فهدايتنا ليست نابعة من ذواتنا وإنّما نحصل عليها من الله؛ لهذا، ينبغي أن نكون على اتّصالٍ دائمٍ بهدايته. بناءً عليه، فإنّ للمؤمنين في ارتباطهم بالله نحوين من الخوف: **الأوّل**، حين يلتفتون إلى

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٩، الصفحة ٢٦٧.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ٨.

(٤) سورة **الفاتحة**، الآية ٦.

المقام الإلهيّ وإلى عظمة الله، تحصل لهم حالة الوجل والخشية؛ والثانية، حين يتذكّرون نِعم الله ويخافون أن تُسلب منهم هذه النِّعم، وكذلك إذا تُليت عليهم آيات الله فإنّها تزيدهم إيمانًا. فحين يشاهد هؤلاء الآيات الإلهيّة التكوينيّة ويتأمّلون فيها فسوف يرون آثار نفوذ قدرة الله وعظمته، التي ملأت أركان كلّ شيء. وحين تُتلى عليهم الآيات التشريعيّة والآيات القرآنيّة يتأمّلون ويتدبّرون ويتأثّرون.

نسأل الله تعالى أن يترحّم علينا بوافر نعمه من الإيمان الواقعيّ.



الدرس السابع

العلاقة بين استغلال الدين والجهل الدينيّ

- الجهل في الثقافة الإسلاميّة
- العامل الأساس لرواج الجهل الدينيّ بين الناس
- مسؤوليّتنا تجاه دين الله

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، قَدِيمًا عَمِرَ الْجَهْلُ وَقَوِيَ أَسَاسُهُ وَذَلِكَ لِاتِّخَاذِهِمْ دِينَ اللهِ لَعِبًا حَتَّى لَقَدْ كَانَ الْمُتَقَرِّبُ مِنْهُمْ إِلَى اللهِ بِعَمَلِهِ يُرِيدُ سِوَاهُ ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾»[1].

الجهل في الثقافة الإسلاميّة

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من كلامه: منذ قديم الزمان قوي بنيان الجهل وراج سوقه واستحكمت أركانه وتجذّرت. ثمّ اعتبر أنّ من عوامل رواج سوق الجهل واستحكامه التلاعب بدين الله بحيث أنّه حتّى أولئك الذين جعلوا علمهم وسيلة للتقرّب إلى الله لم تكن نيّتهم وقصدهم إلهيًّا وكانوا يتّبعون غيره. وقد وصف الإمام أمثال هؤلاء بوصف الظالمين.

ولأجل تفسير هذا المقطع من الرواية، يجب إيضاح بعض النقاط. أوّلًا، ما هو مقصود الإمام من قوله «**قديمًا عمر الجهل وقوي أساسه وراج سوقه؟**»، ثانيًا، ما علاقة «الجهل» بمعنى عدم معرفة سلسلة من المفاهيم أو عدم معرفة الروابط بين الظواهر الطبيعيّة بالدين؟ من الماضي وحتّى الحاضر، بذل كلّ قومٍ جهدًا لأجل معرفة مسائل الطبيعة وظواهرها فدرسوا وجرّبوا، وبالمقدار نفسه تخلّصوا من جلهلهم ووصلوا إلى العلم، حتى إنّهم أعدّوا مجموعة من المتخصّصين في كلّ فرعٍ من فروع الهندسة والرياضيّات والميكانيك وغيرها من العلوم، فما معنى أنّ الجهل قد راج منذ القديم وذلك لأنّهم اتّخذوا دين الله لعبًا؟

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٠.

ليس مقصود الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من «الجهل» في هذه الرواية هو الجهل المرتبط بالمعلومات المادّيّة. فبحسب ما يراه الأنبياء والأولياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فإنّ المعلومات التي ترتهن سعادة الإنسان بتعلّمها ليست من النوع المادّي. وإنّ المعارف التي توصل الإنسان إلى السعادة وينبغي لكلّ إنسان أن يكتسبها، في أيّ زمانٍ كان أو في أيّ ظروف حياتيّة اجتماعيّة، هي ما يرتبط بالعقائد والأصول الدينيّة: كمعرفة الله ومصير الإنسان وعالم الآخرة والطريق الصحيح إلى الله وأمثال ذلك ممّا بيّنه الأنبياء؛ فما يحتاج إليه الإنسان هو هذا النوع من العلوم، وإذا لم يحصل عليه فإنّه يُعدّ جاهلًا وإن كان فيلسوف زمانه في سائر المجالات. والذي لا يعرف هدف حياته وإلى أين سينتقل بعد الموت وما هو المصير الذي ينتظره هو شخصٌ جاهلٌ وإن كان يستطيع أن يصنع سفينة فضائيّة. فالجهل في ثقافة الأنبياء والأولياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والقرآن يندرج تحت هذا المفهوم. وهذا المعنى يختلف عمّا هو متداول بيننا.

العامل الأساس لرواج الجهل الدينيّ بين الناس

هناك أسبابٌ متعدّدة وراء وصول الناس إلى هذا المستوى من الجهل وقلّة استفادتهم من العلوم والمعارف التي جعلها الله تعالى بين أيديهم عبر أنبيائه. ومن أسباب ذلك أيضًا تدخّل الظالمين والطغاة بهذه القضيّة. فلو كان الناس والمجتمع واعين لما استطاعوا أن يصلوا إلى أطماعهم. فتعاليم الأنبياء تزيد الوعي وتزيل الجهل، وفي النتيجة تكون ضدّ مصالحهم. لهذا، فإنّهم كانوا يسعون دائمًا وما زالوا لمنع انتشار دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

العامل الآخر هو أنّ أتباع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والمتديّنين وحاملي العلوم والمعارف الرساليّة والمتولّين للدين لم يأخذوا الدين على محمل الجدّ بل إنّهم جعلوه وسيلةً للعب وتحصيل المعاش وغيره من الأغراض الدنيويّة. فحين يكون حال المتديّنين والمتولّين للدين على هذا النحو فهل يمكن أن نتوقّع تأثير كلامهم في الآخرين؟ فالناس ينظرون إليهم ويسلكون الطريق الذي سلكوه ويتعلّمون منهم ما يفعلونه وإن كان التلاعب بالدين. لقد كان هذا من الأسباب التي منعت رواج الدين في المجتمع وأدّت إلى تسلّط الجهل على الناس وحرمانهم من المعارف والحقائق التي جعلها الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بين أيديهم.

وكما يدلّ عليه التاريخ وتؤيّده النصوص الدينيّة، فإنّ العامل الأساس وراء انحراف الناس هو الجهل، وإلّا فإنّ أصل فطرة الناس قائمة على التوجّه إلى الدين وعبادة الله وهم يدركون ذلك بصورةٍ لاواعية، ومن هنا فإنّهم يتوجّهون إلى خالق العالم. ولعلّنا لا نجد موردًا واحدًا في القرآن يدلّ على أنّ بعض الناس لم يكونوا متديّنين أبدًا، ففي كلّ الموارد كان الكلام حول أولئك الذين كانوا يعبدون الأصنام أو الشمس أو القمر، لكنّنا لا نجد موردًا واحدًا يحكي عن وجود مجموعة لا تعبد أيّ شيء.

وكلّما تعمّق البحث في التحقيقات التاريخيّة وفي علم الآثار، تراءت للعين تلك الموارد التي تدلّ على وجود الأديان والعبادة في كلّ الأقوام، وهذا بسبب أنّ فطرة الناس قد بُنيت على عبادة خالقهم لكنّهم بسبب العوامل المختلفة انجرّوا إلى الجهل. فقد ادّعوا مثلًا أنّ لله بنات وهنّ الملائكة، وأنّ الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفة. يشير الله تعالى إلى هذه العقيدة الخرافيّة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1].

أو على سبيل المثال كان هناك من يعبد عدّة آلهة، وقد قيل إنّ المسيحيّين أخذوا عقيدة التثليث منهم. لهذا، يقول المسيحيّون إنّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نعوذ بالله هو ابن الله أو يقولون نحن أبناء الله وأبانا الذي في السماوات. إنّ مثل هذه العبارات ناشئة من الجهل، ومثل هذه العقائد الخرافيّة موجودة في الكثير من الأديان والمذاهب، وقد كان يروّج لها منذ القدم، وكان هناك من يستغلّون جهل الناس ويعرّفون أنفسهم بعنوان الوساطة بين الخلق والخالق وكانوا يأخذون من الناس الأموال لكي يحقّقوا لهم الاتّصال بالخالق أو المسيح أو لتُغفر ذنوبهم! وحتى يومنا هذا، ما زال هناك مثل هذا النوع من الجهالات المنتشرة بين الناس تقريبًا وهناك من لا يزال يستغلّ ذلك.

لقد جاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لكي يقضوا على هذا الجهل المنتشر ويصلحوا الانحرافات التي طالت الأديان السابقة ويزيلوا الخلافات. يعتبر **القرآن الكريم** أنّ من أهداف بعثة الأنبياء إصلاح الانحرافات التي ظهرت في الدين: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣.

﴿يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾[1]. ولكن طرأت خلافات على تفسير كلام الأنبياء عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ وفي النتيجة ابتُليت جماعات بالجهل. بعض المحرّمات ظهرت على هذا النحو، أيّ إنّه على أثر الجهل الذي كان شائعًا بين الناس في مجال الدين والارتباط بالله.

أمّا سبب عدم اقتلاع الجهل من المجتمع هو أنّ هناك جماعات كانت تعمل على ترسيخ هذه الجهالات، رغم وجود جماعات كانت تسعى دائمًا لإصلاح أفكار الناس والقضاء على الجهل. فهذه الجهالات قد تجذّرت في الناس واستحكمت أركانها. وكما أشرت سابقًا، فإنّ من أسباب رواج الجهل في المجتمعات هو سلوك المتديّنين. فحين رأى الناس أنّ أولئك الذين يعتبرون أنفسهم متديّنين وأتباعًا للأنبياء عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ ويتصدّون للأمور الدينيّة، لا يأخذون الدين على نحو جدّيّ فقد ابتُلوا بالجهالة.

وفي سفري إلى أمريكا اللاتينيّة، كان هناك أحد القساوسة يقول لي: إنّ أبناء هذه المنطقة لا يعتنون بكلامنا نحن الأساقفة والقساوسة، فهم لا يصدّقون ما نقول. ثمّ قال لي بشكل خاص: الأمر ليس منحصرًا بالناس فنحن أيضًا لا نصدّق ما نقول.

فبالنسبة لهؤلاء، الدين هو وسيلة للعيش؛ لأجل ذلك، فإنّهم وإن لم يعتقدوا بكذبه لكنّهم لا يأخذونه على محمل الجدّ وينظرون إليه فقط في إطار الآداب والرسوم التي يسترزقون بواسطتها. وهكذا أصبح الدين لعبةً بأيديهم وصار وسيلةً لبسط مائدة وسفرة حياتهم، فهم يسعون لتبليغه ونشره وتفسيره بين الناس بما يعجبهم لكي يُقبلوا عليهم. وفي بعض الأحيان، قد يبرّرون مثل هذا الأمر قائلين إنّنا نفعل ذلك لكي لا يبتعد الناس عن الدين ونحن مضطرّون لنشره بهذه الطريقة. وفي يومنا هذا، فإنّ الكنائس تقوم بهذا الدور تقريبًا. فالكثير من الأمور التي كانت الكنيسة في السابق تحاربها وتعتبرها حرامًا، تراجعت عنها وأضحت تعتبرها اليوم حلالًا بعدما وجدت نفسها غير قادرة على مواجهة الناس! لا لأنّها اكتشفت أدلّة جديدة، بل هم يقولون إنّنا إذا لم نفعل ذلك فإنّنا سنخسر ذلك المستوى الاعتقاديّ الموجود بين الناس تجاه المسيحيّة، وسوف ينكرونها بالكامل!

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٣٩.

فعلى سبيل المثال، لقد تمّ إخراج الصوم بشكلٍ تامّ من دين المسيحيّة. ففي النداء الذي وجّهه البابا في عيد الفصح السابق للمسيحيّين، طلب بصراحة من الناس أن لا يشاهدوا التلفزيون يومًا واحدًا، طالما أنّهم لا يصومون، وبالطبع لم يهتمّ أحدٌ لكلامه.

وعلى هذا النحو، تمّ إلغاء الأحكام الدينيّة في المسيحيّة واحدًا بعد الآخر. ولهذا الأمر سابقة تاريخيّة. ففي قصّة أصحاب السبت التي ذكرها القرآن كان هناك قومٌ من بني إسرائيل اتّخذوا دين الله لعبًا. لقد نهاهم الله عن اصطياد الأسماك يوم السبت، ولكنّهم لأجل أن يبقوا في الظاهر على طاعة الله ويحافظوا في الوقت نفسه على مصالحهم الاقتصاديّة فقد صنعوا أحواضًا على الشاطئ. وفي أيّام السبت حين لم يكونوا يصطادون، كانوا يفتحون منافذ الأحواض فتدخل إليها الأسماك ثمّ يغلقونها ليأتوا في اليوم التالي ويأخذوا الأسماك. فأنزل الله تعالى العذاب عليهم لأجل ذلك ومسخهم قردة لأنّهم اتّخذوا دين الله لعبًا: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[1].

بناءً عليه، إنّ لمثل هذه الأعمال سابقة تاريخيّة، وكان المتديّنون يقومون بمثل هذه الأفعال ولم يكن ذلك يجري على يد غير المتديّنين الذين ينكرون هذه القضايا من الأساس. فكان هؤلاء يتلاعبون بدين الله ولا يأخذونه على محمل الجدّ في حياتهم العمليّة. وكأنّ الأحكام الشرعيّة أصبحت عندهم كبعض الآداب والرسوم العرفيّة التي لا يؤثّر عدم رعايتها على مصيرهم. على سبيل المثال، مثلما أنّ الناس يقولون لبعضهم في العرف ومن باب المجاملة والتلاعب اللفظيّ إنّني فِداك! وعبدك! وأمثال ذلك، لكنّهم لا يكونون مستعدّين لأن يفدوا ذلك الشخص بشعرة واحدة من رأسهم، فأولئك قد تعاملوا مع أحكام الشرع بهذا النحو في موارد الصلاة والصوم وغيرها من القضايا، ما أدّى إلى تعاستهم وفشلهم ومنع الآخرين من التعرّف على حقائق الدين.

فحين يرى الناس أنّ الدين رائج في المجتمع وله آثار جيّدة في حياتهم سوف يحبّونه، ولكنّهم إذا لم يروا مدّعي التديّن عاملين وملتزمين فإنّ كلام هؤلاء لن يؤثّر

(١) سورة البقرة، الآية ٦٥.

فيهم بل سيؤدّي إلى سوء ظنّهم بالدين. وفي وصيّته التي يخاطب بها شيعته، أكّد الإمام الصادق على هذه القضيّة. ويجب على أولئك الذين يدّعون اتّباع الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعلوا هذه الوصيّة نصب أعينهم فيما لو كانوا يحبّونه وكانوا يعتبرون أنّ طريقه هو الطريق الصحيح وأرادوا أن ينشروا مذهبه.

مسؤوليّتنا تجاه دين الله

يخاطبنا الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ اليوم أيضًا ويجب أن نأخذ دين الله على محمل الجدّ سواء كان في مجال العقائد المرتبطة بالدين أو القيم الأخلاقيّة أو الأحكام العمليّة. فيجب أن نكون حذرين من التلاعب بأحكام الله، فلا ينبغي لنا إهمالها على مستوى العمل، وعلينا أن نتصرّف بالشكل الصحيح عند تفسيرها وتوضيحها وإلّا سنكون مسؤولين عن جهل الآخرين وكفرهم.

يُقال إنّ أحد علماء مدينة يزد سُئل لماذا يبكي إلى هذا الحدّ؟ فقال: أخشى أن يُقال لي يوم القيامة إنّك مسؤول عن عدم إسلام يهود هذه المدينة، فلو كان سلوكك صحيحًا ولو عملت بتكليفك لتعلّم اليهود منك وأصبحوا مسلمين. ومثل هذا الكلام ليس بعيدًا عن أولئك الذين هم من أهل المراقبة والمحاسبة. وضمن تأييد أصل هذا الأمر، يُعرّف الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أعمال بعض المتديّنين بأنّها مسؤولة عن جهل الناس: «**يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، قَدِيمًا عَمِرَ الْجَهْلُ وَقَوِيَ أَسَاسُهُ**» فلماذا؟ «**وَذَلِكَ لِاتِّخَاذِهِمْ دِينَ الله لَعِبًا**».

إنّ الفارق بين اللعب والجدّيّة يكمن في أنّ الإنسان في الأمور الجدّيّة يعلم بوجود حقائق وأنّه يتعامل مع وقائع معيّنة، فإذا كان يتناول الطعام فهو يعلم بوجود الجوع واقعًا، وأنّ هناك طعامًا وإذا تناوله فسوف يشبع؛ أمّا في الألعاب فإنّ الإنسان يكتفي بالخيال والتصوّر مثل تلك المحادثات غير الجادّة والمجاملات المشهورة.

وعلى هذا الأساس، تتشكّل سلوكيّات الإنسان من قسمين: السلوكيّات الجدّيّة والواقعيّة التي يلتزم الإنسان بها، والسلوكيّات غير الجدّيّة والتي هي لعب ولا تأخذ العمل على محمل الجدّ مثل الملاهي أو المجاملات المتعارفة.

إنّ أولئك الذين يأخذون دين الله لعبًا يعتبرون أعمال الناس العباديّة (مثل

التردّد إلى المسجد) مثل الآداب والرسوم المتعارفة فلا يرونها جدّيّة ويتلاعبون بأحكام الدين ويفسّرونها بطريقة تعجب الناس لكي يرضوا هؤلاء عنهم ولا تكسد بضاعتهم. أما بقيّة الناس فحين ينظرون إليهم فإنّهم لا يمكن أن يأخذوا الدين على محمل الجدّ «حَتَّى لَقَدْ كَانَ الْمُتَقَرِّبُ مِنْهُمْ إِلَى الله بِعِلْمِهِ يُرِيدُ سِوَاه»[1] والعلم هنا هو العلوم الدينيّة لا تلك العلوم كالفيزياء والكيمياء. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2] أي الذين ظلموا البشريّة مثلما أنّهم ظلموا أنفسهم.

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، **تحف العقول**، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة ٢، ١٤٠٤ - ١٣٦٣ هـ.ش)، الصفحتان ٣٠١ و٣٠٢.

(٢) سورة **النور**، الآية ٥٠.



الدرس الثامن

ثمار الاستقامة على التديّن

- «السعادة» هي المطلب الفطريّ للإنسان
- تمتّع المؤمنين بالنعم الإلهيّة الخاصّة في الدنيا والآخرة
- اختلاف الأفراد في التنعّم بالسعادة
- الاستقامة شرطٌ لتحصيل السعادة
- تأثير المصلحة الإلهيّة على استفادة المؤمنين من نعم الدنيا

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ لَوْ أَنَّ شِيعَتَنَا اسْتَقَامُوا لَصَافَحَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَأَظَلَّهُمُ الْغَمَامُ وَلَأَشْرَقُوا نَهَارًا وَ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ وَلَمَا سَأَلُوا اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُم»[1].

الاستقامة تعني الالتزام الصحيح بالمسؤوليّات الدينيّة والتمسّك بالعقائد وعدم الخروج عن الصراط المستقيم. وأشرقوا نهارًا بمعنى أنّ نهارهم سيكون صافيًا وليلهم ماطرًا.

السعادة هي المطلب الفطريّ للإنسان

إنّ جميع الناس يصبون إلى السعادة ويسعون نحوها بالفطرة وهم يتضايقون من المصاعب ويسعون للخلاص منها؛ لكنّهم يختلفون فيما بينهم في عدّة أمور: أوّلها في تعيين «مصداق السعادة»، فالجميع يريدون السعادة والخروج من الشقاء والتعاسة إلا أنّ الكثيرين منهم لا يعرفون ما هي السعادة الحقيقيّة.

أكثر الناس يتصوّرون أنّ مطلوبهم الفطريّ هو تلك اللذائذ الدنيويّة العابرة، لهذا فإنّهم يبذلون كلّ طاقتهم من أجل الوصول إليها لا يلوون عنها إلى شيء، فهؤلاء لا يسعون لإدراك السعادة الواقعيّة.

الفئة الثانية من الناس تعلم بالإجمال أنّ اللذائذ العابرة لا تستحقّ أن يعلّق الإنسان القلب بها. فهؤلاء يرون أنّ الناس في كلّ يوم يتعلّقون بشيء ويتوجّهون

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٠.

بكلّ وجودهم للحصول عليه، ولكن مهما تعلّقوا بالشيء وفرحوا بالوصول إليه، فإنّه لن يدوم لهم وسيزول، فيدركون أنّ مثل هذه الأشياء لا تستحقّ أن يتعلّق القلب بها لكنّهم لا يعرفون ما هو الشيء الذي ينبغي أن يسعوا نحوه. وهؤلاء على قسمين:

الفئة الأولى هم الذين يعرفون عن طريق العقل وإرشادات المُرسلين من جانب الله هدفهم الأساسيّ ويعلمون معنى السعادة الواقعيّة؛ وهي ما نعبّر عنه بـ «القرب الإلهي»، وبحسب تعبير القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[1]. فقد وصلت هذه الفئة إلى هذه النتيجة وهي أنّ السعادة الواقعيّة تكمن في أن يتنعّم الإنسان بالسعادة الأبديّة اللامتناهيّة عند الله.

أمّا الفئة الثانية فهي تقضي الوقت بالتفكير والبحث لكنّها تعيش في ظلّ ظروفٍ لا تساعدها على إدراك الحقيقة. فهؤلاء يُبتلون بالشكّ والشبهات الواهية والوساوس الشيطانيّة، فلا يعرفون الله جيّدًا ولا يؤمنون بوجود القيامة حقًّا، فهم غير مقصّرين لكنّهم لا يستطيعون أن يحدّدوا.

أولئك الذين يسعون ويعرفون الطريق الصحيح ويدركون أنّ السعادة الواقعيّة تكمن في قرب الله وجوار رحمته يجب عليهم أن يسعوا لمعرفة الطريق الصحيح الموصول إليها. لكنّ بعض هؤلاء الأفراد لا يعطون هذا الأمر وقتًا كافيًا ولا يبذلون ما يتطلّبه التحقيق والبحث الوافي. فهؤلاء يلتفتون إلى أنّ السعادة الحقيقيّة تكمن في الإيمان بالله ويوم الحساب وفي صيرورة الإنسان معزّزًا ومقرّبًا عند الله، لكنّهم لا يسعون لمعرفة الطريق الموصل إليه. فهم يثقون بكلّ قائل ويقعون تحت تأثير الظروف المهيمنة على المجتمع ولا يحقّقون بالمقدار الكافي. وأولئك الذين يتواجدون حولهم لا يمكنهم أن يدلّوهم على الطريق الصحيح. بالطبع، إنّ عدم إدراك هؤلاء يتفاوت من حيث الشدّة والضعف، وبعضهم لا يصلون إلى المعرفة الكافية في القضايا الفرديّة، والبعض الآخر في المسائل الاجتماعيّة أو السياسيّة أو غير ذلك.

وفي كلّ هذه الحالات، فإنّ بعض الأشخاص يوفّقون في النهاية للوصول إلى المعرفة الكافية، لكنّ إدراك هذه المعرفة لا يكفي، فبعد ذلك يأتي دور العمل، أي

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٠٧.

إنّ وصول مثل هؤلاء الأشخاص إلى سعادتهم المنشودة يعتمد على مدى ثباتهم على هذا الطريق وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم واجتناب الإفراط والتفريط.

تمتّع المؤمنين بالنعم الإلهيّة الخاصّة في الدنيا والآخرة

لو حقّق الناس، وأدركوا الهدف، وعملوا جيّدًا فهل يمكن أن يَلِتْهم الله تعالى من أعمالهم شيئًا؟ فهل يمكن أن يكون هناك أمرٌ مفيدٌ لهم ولمصلحتهم في الدنيا أو في الآخرة ولا يعطيهم الله إيّاه؟ من المستحيل أن يحصل مثل هذا الأمر لأنّ الله ليس بخيلًا. لقد خلق الله العالم لأجل أن يطوي الناس طريق التكامل بحركتهم الاختياريّة وينالوا بذلك فيوضاته ورحمته الأبديّة. وفي الأساس، إنّ الهدف الإلهيّ هو أنّه حين يعرف الإنسان الطريق الصحيح ويبذل كلّ طاقته في العمل ولا يُقصّر، فإنّ الله تعالى لا يُقصّر بحقّه. إنّ الله يُنعم على أولئك الذين هم من أهل العصيان والتمرّد والغفلة عن ذكر الله بالنعم الكثيرة، فهل يمكن أن لا يعتني بأولئك الذين بذلوا كلّ جهدهم في إدراك طريق الهداية والعمل بأحكام الله وأوامره؟ من الواضح أنّ الله سوف يعطيهم في الدنيا والآخرة كلّ ما يكون لمصلحتهم ومنفعتهم.

أمّا فيما يتعلّق بالنعم الأخرويّة التي لا يوجد فيما بينها أيّ تعارض أو تزاحم فسوف يعطيهم على قدر استعدادهم: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]. فيستطيعون أن يستفيدوا منها بقدر ما يستطيعون ولن يوجد ما يمنعهم من ذلك، لأنّ الجنّة ونِعمها ليست كهذه الدنيا التي إذا أكل الإنسان شيئًا قليلًا منها فإنّه يشبع أو إذا أكل كثيرًا فإنّه يمرض، فلا يوجد تعارض وتزاحم هناك. وليس الأمر بحيث إذا تمتّع الإنسان بشيء فإنّه يتعب ولا يتمكّن من التمتّع بشيء آخر، فهناك لا وجود للتعب ولا السأم ولا الضعف ولا الألم. الله وحده يعلم ما يوجد في ذلك العالم وأيّ نعمٍ تُبسط لعباد الله الصالحين، أولئك الذين أدركوا هذا الطريق جيّدًا وسلكوه بصدقٍ لن يواجهوا في الآخرة أي مشكلة وكلّ ما يريدونه سيتحقّق لهم، بل حتّى ما يفوق تصوّرهم وعقولهم. وفي العادة، يجب على الإنسان أن يتصوّر الشيء حتّى يطلبه، لكنّ الله يُنعم على هؤلاء بما يفوق تصوّرهم: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢١.

﴿ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾[1]. وفي موضعٍ آخر، يقول تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾[2].

أمّا في الدنيا، فإنّ الخيرات والنعم تتزاحم فيما بينها. فالنعم وإن كانت حلالًا ومشروعة فإنّ الإنسان لا يقدر على التنعم بها إلّا بمقدارٍ ما، سواء في الأطعمة أو الأشربة أو الألبسة أو غيرها من النعم. ففي الدينا، كلّ شيءٍ محدود ولا يمكن الاستفادة منه إلّا بمقدارٍ محدود. ولو تجاوز الإنسان الحدّ لأدّى ذلك إلى نتيجة معاكسة، فعلى سبيل المثال إذا أكل كثيرًا فإنّه سيُصاب بالمرض. وحين يريد الله أن يعطي أحدًا شيئًا في هذه الدنيا يعطيه بمقدار، وحين تتزاحم نعمه المادّيّة والمعنويّة وتتعارض فيما بينها فإنّ الله يهبه ما كان هو الأساس.

لأجل ذلك، يُبتلى العباد الصالحون في هذه الدنيا بالمصاعب في بعض الأحيان، فهذه هي طبيعة الدنيا التي لا تكون ممكنة بدون هذه الصعاب بسبب كلّ ذلك التعارض الموجود فيها. لكن من المقرّر أن يعطي الله عباده الصالحين في هذه الدنيا ما يريدونه، إلّا إذا كان هناك مصلحة أقوى في الأمر، أو كان هناك نعمة أخرى تزاحم ما يطلبون. فقد يطلب عباد الله الصالحون أشياء لكنّ هذا الطلب قد يؤدّي إلى حرمانهم من أشياء أخرى، ففي مثل هذه الحالة يعطيهم الله ما يكون لمصلحتهم. وبالطبع، إنّ عباد الله الصالحين يكلون أمورهم إلى الله وهم في العادة لا يسألونه ما يشتهون بل يقولون: اللّهم أعطنا ما تراه خيرًا لنا، والله أيضًا يريد ذلك، فيحفظهم من حرّ الشمس ويُظلّلهم بالسحاب أو يرسل السماء عليهم مدرارًا في الليل لكي لا ينزعجوا في النهار. فإرادة الله اقتضت أنّه إذا تعارضت هذه النعم فيما بينها أن يعطيهم ما يكون خيرًا لهم، حتى إنّه في بعض الأحيان يقلّل من دنياهم ليزيد من نعمهم الأخرويّة ويرفع من درجاتهم.

لهذا، يمكن أن نثبت بواسطة الأدلّة العقليّة والبرهان أنّ الإنسان إذا شخّص الطريق الصحيح وسلكه فإنّ كلّ ما يكون خيرًا له سوف يناله حتّى لو كان الأمر يقتضي أن يظلّله الله بالسحاب وقت حرّ الصيف أو يشفيه إذا مرض، إلّا إذا رأى

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٧١.

(٢) سورة ق، الآية ٣٥.

الله الخير له في غير ذلك. وفي كلّ الأحوال، فإنّ المقرّر هو أن لا يواجهوا أيّ أمرٍ مزعج.

فمن هم هؤلاء؟ وهل إنّ الذين عرفوا المقصد وشخّصوا طريق الوصول إليه جيّدًا فيما يتعلّق بجميع القضايا الفرديّة والاجتماعيّة وفي جميع أبعاد حياتهم والتزموا بمقتضياته العمليّة، هم اليهود أو النصارى أو البوذيّون أو غير ذلك؟

بحسب عقيدتنا، فإنّ الطريق الوحيد الصحيح هو الإسلام، وكلّ مسلمٍ يدرك جيّدًا سعادة الآخرة، وإنّ ضالّة الإنسان الحقيقيّة عند الله وفي العالم الأبديّ. فمطلب المسلم ومطلوبه هو الله، ولأجل الوصول إليه فإنّ الطريق الوحيد هو تطبيق تعاليم الإسلام وأحكامه. بناءً عليه، فإنّ الذي يكون مسلمًا يتعلّم ضرورات الإسلام وأحكامه. فكلّ من أدرك المقصد وعرف الطريق سوف يستحقّ نعم الله اللامتناهية في الدنيا والآخرة.

اختلاف الأفراد في التنعّم بالسعادة

لكنّ المسلمين فِرقٌ متعدّدة. فلطالما وُجد أشخاصٌ كانوا يريدون معرفة الطريق الصحيح، وقد بحثوا ولكنّهم لم يوفّقوا وخصوصًا في زمن الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فقد وُجد أشخاص كُثر في كلّ مكان وكانوا يريدون أن يعرفوا الإسلام بشكلٍ دقيق ولكنّ الظروف الاجتماعيّة لذلك الزمن والحكومات الجائرة حالت دون ذلك. يتحمّل هؤلاء الأشخاص المسؤوليّة بمقدار المعرفة التي أدركوها، وعليهم أن يعملوا بذلك المقدار. وبالطبع، هؤلاء لم ينالوا استحقاق الحصول على العناية الشاملة لأنّهم لم يقطعوا الطريق كلّه. ففي تلك الأمور التي لم يتعرّفوا إليها، يوجد كمالات لم يحصلوا عليها بسبب عدم العمل، وإن لم يكونوا مقصّرين في مجال المعرفة، والله تعالى سيثيبهم بذلك المقدار: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[1]. فهؤلاء لم يقصّروا في المعرفة، بل كانوا قاصرين، لكنّهم عملوا بما عرفوا؛ والله سيثيبهم بهذا المقدار نفسه.

أمّا أولئك الذين عرفوا المقصد وسلكوا الطريق الصحيح بجدٍّ واجتهاد

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٣٠.

وشملهم التوفيق الإلهيّ على هذا الطريق (أي شيعة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) فهؤلاء لن يواجهوا أيّ مشكلة إلّا في مجال العمل، وعليهم أن يعملوا لأنّهم أدركوا الهدف والطريق الصحيح. بالطبع، إنّ هؤلاء مراتب من ناحية المعرفة. فليس كلّ شيعيّ يعرف أحكام وتعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بكلّ أبعادها، فهؤلاء يختلفون من حيث مراتب العلم والمعرفة. من الممكن أنّ البعض لم يصلوا إلى المعرفة الكاملة بجميع الجزئيّات، وبالطبع سيُحرمون من إدراك آثارها. فكلّ من يصل إلى المعرفة الأكمل سينال المزيد من الآثار.

على أيّ حال، فإنّ فرضيّتنا هنا أنّنا نحن الشيعة لا نعاني من النقص في مجال المعرفة وقد أدركنا الإسلام في جميع أبعاده بواسطة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. لهذا إذا عملنا جيّدًا فإنّ الله سيُغرقنا بنعمه في الدنيا والآخرة، ولماذا لا يفعل ذلك؟ فهل إنّ الله يريد ادّخار نعمه لشخصٍ آخر؟ أم أنّ الله بخيل؟ وهل إنّه إذا أعطى البعض ستنتهي نعمه؟ ففي الآخرة، لا يوجد تعارض وتزاحم، فكلّما أعطى أحدًا يمكنه أن يعطي غيره، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. فالمحدوديّة هي من خصائص الدنيا ولا توجد في الآخرة. وهنا، فإنّ كلّ من يطوي طريق المعرفة فإنّه سينال من الله كلّ ما يريد إلّا إذا كانت المصلحة في غير ذلك، بحيث إنّه لو قال لنفسه إنّ فلانًا قد يعطيك شيئًا ويحرمك من شيءٍ آخر، فإنّه لن يقبل وسيقول كلّ ما يريده الله هو الأفضل.

فأولئك الذين عرفوا المقصد جيّدًا وسلكوا الطريق جيّدًا وأعملوا كلّ طاقتهم من أجل الوصول إليه (فإنّ هؤلاء سيستغرقون في نعم الله في الدنيا والآخرة) وهم مسلمون عرفوا مسلك أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جيّدًا وجعلوه محور جميع أبعاد حياتهم. على هذا الأساس، يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ لَوْ أَنَّ شِيعَتَنَا اسْتَقَامُوا لَصَافَحَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَأَظَلَّهُمُ الْغَمَامُ وَلَأَشْرَقُوا نَهَارًا وَ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ وَلَمَا سَأَلُوا اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُمْ».**

---

(١) سورة يس، الآية ٨٢.

الاستقامة شرطٌ لتحصيل السعادة

من الجدير أن نعلم أثناء توضيح معنى «الاستقامة» أنّ الله تعالى قد أمر نبيّه بالاستقامة في عدّة مواضع من القرآن، وأحدها في سورة **هود** حيث نُقل عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أنّه قال: شيّبتني سورة **هود** لمكان هذه الآية: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[(١)و(٢)].

وقد كان الإمام الخميني رَحِمَهُٱللَّهُ يُركّز كثيرًا على هذا الحديث في كلماته. وفي الوقع، إنّ ما يشيّب الإنسان ويكسر الظهر هو «الاستقامة». لأجل ذلك فإنّ الله يبشّر الذين استقاموا في آية أخرى ويقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[(٣)].

بناءً عليه، لا يكفي مجرّد الإيمان بالله وقبول الدين الحقّ ومذهب أهل البيت عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ بل يجب الاستقامة على هذا الطريق. وعلينا أن ننتبه جيّدًا لكي لا ننحرف عنه لحظةً واحدة. فلو تحقّق الإنسان بهذا المقام لن يُقصّر الله بحقّه في أيّ خير. ومثل هذا الإنسان سيكون مستجاب الدعوة وكلّ ما يطلبه من الله سيناله، وهو أيضًا لن يقوم إلّا بما يرضي الله وسوف تصافحه الملائكة. وبالطبع، أولئك الذين وصلوا إلى الدرجات الأعلى والأكمل يرون الملائكة ويدركون مصافحتهم[(٤)].

---

(١) سورة **هود**، الآية ١١٢.

(٢) نصّ الرواية: يَا رَسُولَ الله يُرْوَى لَنَا أَنَّكَ قُلْتَ: "شَيَّبَتْنِي سُورَةُ هُودٍ وَأَخَوَاتُهَا" فَمَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْهَا؟ فَقَالَ: قَوْلُهُ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾. [الراغب الأصفهاني، **مفردات في غريب القرآن** (دفتر نشر الكتاب، الطبعة ٢، ١٤٠٤هـ)، الصفحة ٢٩٨.].

(٣) سورة **فصلت**، الآية ٣٠.

(٤) إنّ رؤية الملائكة لا تختصّ بالأنبياء عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ. فالأئمة **الأطهار** عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ لم يكونوا من الأنبياء ولكنّهم شاهدوا الملائكة، أو أنّ مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ التي لم تكن من الأئمة ولا نبيّ لكنّها شاهدت الملك وقالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾. [سورة **مريم**، الآيات ١٨-١٩].

تأثير المصلحة الإلهيّة على استفادة المؤمنين من نعم الدنيا

يجب علينا الالتفات إلى أنّ ما نُقل في هذه الرواية تحت عنوان النموذج الذي يحصل فيه الشيعة المؤمنون والواقعيّون على الامتيازات ليس قاعدة كلّيّة ودائمة، بل هناك اقتضاءات ذكر الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ بعضًا منها بخصوصهم، أي قد تقتضي أحوال بعض الأشخاص أن يرسل الله تعالى لهم ما يظلّلهم من السحاب في حرّ الصيف أو أن تصافحهم الملائكة. لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الله لا يفعل ذلك بالنسبة لبعض عباده المؤمنين لوجود مصلحة أعلى، فحالهم يقتضي مثل هذه الكرامات من السحاب والمطر في الليل وأمثال ذلك، لكن من الممكن أن لا يُعطَوا مثل هذه الامتيازات بسبب بعض المصالح العليا.

ومن الامتيازات التي يحصل عليها هؤلاء العباد من الله هي أنّهم ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾[1]، ولعلّ هذا التعبير كناية عن النعم التي تحيط بهم من كلّ جانب. وقد جاء في **القرآن الكريم** ما هو بهذا المضمون: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2]. فالمصداق الكامل لأمثال هؤلاء هم الشيعة الخلّص لأهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ الذين: «**وَلَمَا سَأَلُوا الله شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُم**».

(١) سورة **المائدة**، الآية ٦٦.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٩٦.



الدرس التاسع

شرط كون ولاية أهل البيت مُنجية

- التحذير من الإساءة إلى الشيعة والتوصية بالسكوت عن الجهالة
- تأثير ولاية أهل البيت (ع) في سعادة الإنسان، هل هو مطلق أو مشروط؟
- تلازم الإيمان والعمل
- أركان الإيمان
- قضيّة المستضعف الفكريّ

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ لَا تَقُلْ فِي الْمُذْنِبِينَ مِنْ أَهْلِ دَعْوَتِكُمْ إِلَّا خَيْرًا وَاسْتَكِينُوا إِلَى اللهِ فِي تَوْفِيقِهِمْ وسَلُوا التَّوْبَةَ لَهُمْ، فَكُلُّ مَنْ قَصَدَنَا وَتَوَلَّانَا وَلَمْ يُوَالِ عَدُوَّنَا وَقَالَ مَا يَعْلَمُ وَسَكَتَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَوْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ»[1].

التحذير من الإساءة إلى الشيعة والتوصية بالسكوت عن الجهالة

وفي تتمّة هذه الرواية، يحذّر الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ المؤمنين من الإساءة إلى الشيعة ويوصيهم أن لا يقولوا إلّا الخير بشأن بعض هؤلاء الشيعة المذنبين، بل أن يدعوا لهم الله بخضوع وخشوع والتماس لكي يوفّقهم لترك ذنوبهم والتوبة حتّى يشملهم العفو الإلهيّ.

وهذا حكمٌ أخلاقيّ بأنّ المؤمنين لا ينبغي أن يقطعوا ارتباطهم بإخوانهم في الدين لمجرّد أن يروا فيهم خطأً، وأن لا يعدّوهم منحرفين غير قابلين للهداية، ولا يقولوا عنهم إنّهم من أهل جهنّم. فلو كان الشيعة مذنبين ولكن لديهم أساسٌ إيمانيّ واعتقاديّ صحيح فيجب أن ندعو لهم بإخلاص لكي يوفّقهم الله للتوبة وترك المعاصي.

على الإنسان أن يكون حسن الظنّ اتّجاه المؤمنين وعلى فرض أنّهم أذنبوا فلا يعتبر منهم شيئًا سيّئًا إلّا عملهم هذا فلا يعاديهم شخصيًّا. ويوجد رواية في هذا المجال تقول: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ فَمَنْ

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٠.

عَلِمَهُ اللهُ سَعِيدًا لَمْ يُبْغِضْهُ أَبَدًا وَإِنْ عَمِلَ شَرًّا أَبْغَضَ عَمَلَهُ وَلَمْ يُبْغِضْهُ. وَإِنْ عَلِمَهُ شَقِيًّا لَمْ يُحِبَّهُ أَبَدًا وَإِنْ عَمِلَ صَالِحًا أَحَبَّ عَمَلَهُ وَأَبْغَضَهُ لِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ»[1]. ونحن ينبغي أن نكون كذلك تجاه الآخرين، فإذا كان هناك مؤمنٌ صاحب اعتقادٍ سليم يجب أن نحبّه وإن كرهنا فعله إن أذنب، وندعو الله أن يوفّقه لكي يترك المعصية ويُغفر له.

وفي تتمّة هذا الكلام، يقول الإمام: إنّ كلّ من يريد أن يأتي إلينا ويقبل بولايتنا ويرفض ولاية أعدائنا فذلك بشرط أن لا يقول إلّا ما يعلم ويحترز عن قول ما لا يعلم وأن يسكت أمام الشبهات، فتشمله شفاعتنا ويكون من أهل الجنّة.

على هذا الأساس، إذا سُئل شخص حول شيء لا يعلمه ينبغي أن يسكت ويمتنع عن إظهار رأيه. فالكثير من الناس يُسارعون إلى إنكار القضايا من دون أن يكون لديهم علم بها أو تحقيق فيها؛ في الوقت الذي لا يعرفون ما هو دليل إنكارهم. يجب على الإنسان المؤمن أن يمتلك مثل هذه الشجاعة بحيث إذا سُئل عن القضايا الدينيّة وغير الدينيّة أن يقول بكلّ صراحة لا أعلم، وأن يسارع إلى سؤال من لديه العلم والتحقيق في هذا المجال. ومن جانبٍ آخر، على أولئك الذين حقّقوا بشأن الموضوعات جيّدًا وصار لديهم علم بها أن يكونوا ثابتين في كلامهم ويدافعوا عنه بمتانة.

تأثير ولاية أهل البيت (ع) في سعادة الإنسان

وهل هذا التأثير مطلقٌ أو مشروط؟

هناك قضيّة أساسيّة هي منشأ الكثير من التوهّمات وهي أنّ البعض يظنّون طالما أنّهم آمنوا بولاية الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإنّهم لو ارتكبوا معصية فسوف تُغفر، ومن جانب آخر فإنّ كلّ من لا يقبل بولاية الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فلن يُقبل منه عبادة مهما كانت وسوف يذهب إلى جهنّم.

وعلى هذا الأساس وبالالتفات إلى الروايات الكثيرة الموجودة في هذا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ١٥٧.

المجال يتصوّر أشخاصٌ أنّهم شيعة ويحبّون الأئمّة الاثني عشر وأنّهم إذا ارتكبوا معصية فسوف تشملهم شفاعة الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. هؤلاء يتصوّرون أنّهم إذا حضروا مجالس عزاء الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وتشبّهوا بالباكين عليه، فإنّ كل ذنوبهم، بناءً على ما جاء في هذه الرواية: «من بكى أوْ أبكى أوْ تباكى للحسين وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[1]، ستصبح مغفورة. فلو نظر أحدٌ إلى هذه الرواية بهذا اللحاظ، فإنّه من جهة لن يرتدع عن ارتكاب أيّ معصية، لأنّه يظنّ أنّه إذا لطم في ليلة عاشوراء وتباكى على سيّد الشهداء فسوف تُغفر كلّ ذنوبه؛ ومن جانبٍ آخر فإنّه يكون سيّئ الظنّ إلى أبعد الدرجات تجاه أولئك الذين لا يقبلون بإمامة الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ويوجد لدينا رواية بهذا المضمون وهي أنّه إذا لم يقبل أحدٌ بولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإنّه لو عبد الله بين الركن والمقام بحيث أصبح مثل القصب الجاف فإنّ الله سيدخله النار. بغضّ النظر عن مدى صحّة سند مثل هذه الروايات، فمن الضروري هنا أن نشير إلى بعض النكات.

تلازم الإيمان والعمل

هناك قضيّة اعتقاديّة مهمّة وهي هل إنّ الإيمان والعمل شرطان للسعادة أو أنّ العمل لوحده يكفي؟ وبعبارةٍ أخرى، هل إنّ الأصل هو الإيمان أو العمل أو كلاهما؟

الجواب الإجماليّ على هذا السؤال هو أنّه لا شكّ بأنّ العمل من دون الإيمان لا قيمة له بحسب الرؤية القرآنيّة، ولو لم يقبل الإنسان بالله ويوم القيامة ونبيّ الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإنّه مهما فعل من أمورٍ حسنة لن تكون موجبة لسعادته في الآخرة. وفي الأساس، فإنّ الذي لا يعتقد بالجنّة وبجهنّم وبيوم القيامة كيف يريد أن يذهب إلى الجنّة؟ فالله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2].

---

(١) بالطبع لم تأتِ الرواية بهذه التعابير بالدقّة، ولكن لدينا في الروايات ما يشبه هذا المضمون. وكنموذج راجع: الشيخ عبّاس القمّي، **نفس المهموم**، الفصل ٢، الحديثان ١٣ و ١٤.

(٢) سورة **النور**، الآية ٣٩.

وفي العادة، إنّ الناس يحترمون كثيرًا أولئك الذين يقومون بالأعمال الخيّرة مثل بناء مستشفى أو تبرّع بالأموال للشؤون العامّة، في حين أنّ أعمال هؤلاء ربّما لن تكون ذات قيمة عند الله بسبب عدم اعتقادهم بيوم القيامة. ومن الممكن أن يسأل البعض: هل يُعقل أن لا يذهب من اخترع الكهرباء إلى الجنّة رغم استفادة كلّ العالم اليوم من اختراعه؟ والجواب هو، وبحسب الرؤية القرآنيّة، إذا كان وجود الله وحقّانية الإسلام والنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والقرآن والأئمّة الاثني عشر عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ثابتًا لدى هذا الشخص الذي اخترع الكهرباء، لكنّه أنكر كلّ ذلك عنادًا فإنّه لن يذهب إلى الجنّة.

فذاك الذي ينكر الحقيقة عامدًا متعمّدًا ومع أنّه يفهم أو يمكنه أن يفهم فإنّه مقصّر، فإنّ كلّ عمل صالح يؤدّيه لن يؤدّي إلى سعادته في الآخرة. بالطبع، من الممكن أن يثيبه الله على عمله في الدنيا لكنّ أعماله هذه لن تكون مؤثّرة في آخرته.

بناءً عليه، فإنّ الذي لا يكون مؤمنًا أي ينكر عامدًا متعمّدًا تلك المعارف الإلهيّة التي ثبتت لديه، فإنّه بحسب الرؤية الإسلاميّة والقرآنيّة لن يذهب إلى الجنة بل لن يشمّ رائحة الجنّة: «لَا يَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ»[1]. ويمكن إثبات عكس هذا المطلب أيضًا أي في حال كان الإنسان مؤمنًا ولا يقوم بأيّ عمل صالح. بالطبع، لعلّه ليس من الصحيح أن نفرض وجود إنسان مؤمن لا يقوم بأي عمل صالح، لأنّ المؤمن سيقول في الحدّ الأدنى «الله أكبر» أو أنّه سيسجد مرّة واحدة لله أو يتضرّع بين يدي الله ويخضع له. فالإيمان يعني أنّ الشخص يقبل بهذه الأمور وستكون هذه العقيدة مؤثّرة في حياته حتمًا، وإن كان هذا التأثير محدودًا وقليلًا، فمن غير الممكن أن يؤمن الإنسان بأمرٍ ولا يؤثّر إيمانه في حياته أبدًا. فلو كان مؤمنًا بأنّ الله موجود فإنّه حتّى لو لم يكن قادرًا على النطق والتلفّظ بكلمة «الله أكبر» فإنّه سيعيش في قلبه حالة من الخضوع لله. بناءً عليه، من الصعب جدًّا أن نفترض وجود مؤمنٍ واقعيّ لم يقم بأيّ عملٍ صالح.

والفرض المعقول هنا مثلًا أن يكون الإنسان في مطلع شبابه وبداية سنّ التكليف قد عرف الله وآمن به ولكّنه بمجرّد أن يؤمن يموت ويرتحل من هذه الدنيا من دون أن يجد فرصة للعمل الصالح. فعلى كلّ حال، يمكن للإيمان أن

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٦، الصفحة ٦٧.

يكون لوحده منشأً للسعادة بشرط أن يكون الفرض صحيحًا. فادّعاء أولئك الذين يقولون إنّنا نؤمن ولكن لم يقوموا بأيّ عمل صالح طوال حياتهم بل ارتكبوا الكثير من الجنايات، هذا الكلام لا ينطبق مع الواقع وهو كذب. فالإيمان الواقعيّ ليس ممكنًا مع ترك جميع الأعمال الصالحة، اللّهم إلّا إذا لم يجد مثل هذا الشخص أيّ فرصة للقيام بمثل هذه الأعمال. الأصل بأنّ الإيمان يمكن أن يكون منشأً للسعادة هو فرضٌ صحيحٌ بذاته ولكنّ العمل الصالح من لوازم الإيمان بشرط أن تتوفّر ظروفه وتسنح الفرصة لهذا الشخص لكي يقوم به.

لكن، إذا كان العمل الصالح من لوازم الإيمان والإنسان المؤمن لا يرتكب المعصية، فلماذا يوجد الكثير من المؤمنين الذين يرتكبون المعاصي؟ وفي الإجابة عن هذا السؤال، يجب أن نقول إنّ هؤلاء مؤمنون لكنّ إيمانهم ضعيف، فحين تتغلّب عليهم الشهوة والغضب ينسون لوازم الإيمان ويرتكبون المعصية. وبالالتفات إلى الروايات الواردة في هذا المجال، فإنّ روح الإيمان تغادر الشخص المؤمن حين ارتكاب المعصية فيكون في تلك اللحظة غير مؤمن لكنّه لا يُعدُّ أيضًا كافرًا وحين تخمد الشهوة أو الغضب يعود روح الإيمان إليه. فالمؤمن الذي يؤدّي عملًا صالحًا في الإجمال ولكن بسبب غلبة شهوته وغضبه يرتكب المعاصي، فإنّه لو كان هذا العصيان موجبًا لنسيان عقائده ولوازم إيمانه بشكل عام وكان يزداد عصيانًا كلّ يوم، لا سيّما المعاصي الكبيرة، فإنّ ذلك الشخص سيكون معرّضًا للكفر: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1]. ومن الطبيعيّ أنّ قلبًا يتلوّث بهذا المقدار من المعاصي لن يكون لائقًا للإيمان؛ فإيمان مثل هذا الشخص يضعف شيئًا فشيئًا إلى أن يزول في النهاية ولا يرجع إليه أبدًا.

بالطبع، إنّ من لديه الإيمان الصحيح ويؤدّي أعمال الخير، عليه أيضًا أن يرى الخطر ماثلًا أمامه دائمًا، لأنّه إذا تلوّث بالمعاصي لا سمح الله بسبب حبّ الشهوة والشهرة والمقام والحرص على الدنيا والحسد، فمن الممكن أن يكون في معرض الكفر. بناءً عليه، يجب أن يكون للإيمان دوام وبقاء لكي يوجب السعادة. بالطبع، ليس كلّ إيمان موجبًا للسعادة الأبديّة، فلو بقي الإنسان مؤمنًا حتّى آخر عمره لكنّه

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

فقد هذا الإيمان لحظة الموت فسوف يكون مَثَلُه كمثل من كان كافرًا منذ البداية. وعكس هذا الأمر يصدق أيضًا، فلو آمن الإنسان في آخر لحظة من حياته فإنّ ذنوبه السابقة ستُغفر.

والفرض الآخر هو: ما هو مصير الإنسان المؤمن الذي يقوم بالأعمال الصالحة ولكنّه من جانبٍ آخر يرتكب الكثير من المعاصي، ولا يوفّق إلى التوبة قبل موته؟ فهل يذهب مثل هذا الإنسان إلى الجنّة أو إلى النار؟

ولتوضيح هذه القضيّة، ينبغي أن نقول إنّ الإنسان إذا وُفّق قبل الموت للتوبة وهي تلك التوبة النصوح والواقعيّة فإنّ جميع ذنوبه ستُغفر. ومن الممكن أن يقول البعض إنّ ذكر هذا الأمر سيجعل الناس يتجرّأون على المعاصي، لكنّنا نقول من هو هذا الذي يكون مطمئنًّا إلى أنّه سيوفّق للتوبة النصوح؟ فإنّه لو وفّق للتوبة فإنّ الله يضمن غفران ذنوبه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وكذلك، فإنّ الإنسان الذي اجتنب ارتكاب الكبائر طوال عمره وارتكب من الصغائر ما لم يصل إلى حدّ الكبيرة، فإنّه إن لم يتب في آخر لحظات عمره فإنّ الله يغفر له: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[2]. وبالطبع، هذا في حال كانت السيّئات والصغائر التي يرتكبها الإنسان لا تصل إلى حدّ الكبيرة لأنّ الإصرار على الصغائر يُعدّ معصية كبيرة.

لكن ما هو حال من لم يُوفّق قبل موته للتوبة من معاصيه الكبيرة؟ على أساس الروايات الموجودة لدينا في هذا المجال، فإنّ ملك الموت سيقبض روح مثل هذا الإنسان بشدّة. فإذا كان هذا النزع سببًا لطهارته من الذنوب فسوف يذهب إلى الجنّة؛ وإلّا من الممكن أن يبقى معذّبًا طيلة مدّة عالم البرزخ، وفي الجملة، سوف يتعرّض للعقوبات. والله وحده يعلم ماذا سيجري على مثل هؤلاء في الليلة الأولى من عالم القبر والبرزخ! فمن الممكن أيضًا أن يُبتلى بأنواع من العذابات في المحشر كالجوع والعطش وأمثال ذلك. فإذا طهُر من آثار وتبعات المعاصي جرّاء هذه العقوبات فسوف تشمله الرحمة ويذهب إلى الجنّة بشفاعة النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٣١.

والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. بالطبع إنّ شرط الذهاب إلى الجنّة هو أن لا يخدش بأصل إيمانه ويحافظ عليه حتّى آخر لحظة في الحياة.

بالطبع، لا يخفى أنّ الخوارج كانوا يعتقدون أنّ الذي يرتكب الكبيرة يصبح كافرًا، وهذه الكبيرة هي وفق معاييرهم هم؛ وعلى هذا الأساس، اعتبروا الإمام عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كافرًا لأنّه قبل بالحكم في صفّين واعتبروا ذلك كبيرة؛ ولهذا كانوا يقطعون رؤوس الشيعة بسبب تلك العقائد المنحرفة ويعتدون على نسائهم. أجل، لقد كان لأمثال هؤلاء الذين يقومون الليل ويصومون النهار ويحفظون القرآن مثل هذه العقيدة الفاسدة. على أيّ حال، فإنّ قول الخوارج هذا بأنّ كلّ كبيرة تؤدّي إلى الكفر خطأ. بالطبع، إنّ من يرتكب الكبيرة ولا يتوب منها فإنّه سيُبتلى بالعذاب الإلهيّ لكنّه لا يصبح كافرًا، بل إنّه إذا حافظ على إيمانه فسوف يدخل الجنّة بعد تحمّل العقاب على تلك الكبائر. بناءً عليه، فإنّ الإيمان شرطٌ أساسيّ للدخول إلى الجنّة ولا يمكن للإنسان أن يدخل الجنّة من دون إيمان.

أركان الإيمان

هناك مسألة مهمّة تتعلّق بعدد أركان الإيمان؛ وبجملة واحدة يمكن القول إنّ قبول ما قاله النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هو من أركان الإيمان. بالطبع، لقد ذكر النبيّ الكثير من الأمور، ومن أهمّها الأصول التي تُسمّى بأصول الدين وهي التوحيد والنبوّة والمعاد. وماذا عن بقيّة الأمور؟ فإذا علم الإنسان أنّ النبيّ قد نصّب عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ للخلافة بأمرٍ من الله كما حصل في غدير خم أو طيلة حياة النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حيث أشار في عدّة مناسبات لكنّه أنكر ذلك ولم يقبل بولاية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بدافع الحسد والحقد والبغض والرغبة بالانتقام فهل يُعدّ هذا مؤمنًا؟

إنّ الإنسان المؤمن هو الذي يقبل بكلّ ما جاء به النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من جانب الله. فإذا أنكر هذا الإنسان ولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بدافع العناد، وقال مثلًا لأنّ عليًّا قتل والدي في معركة بدر فلا أخضع له ولا أقبل بولايته أو أنّه أنكر ذلك بسبب حسده، فلا شكّ أنّه شخصٌ جهنّمي: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة النساء، الآية ٥٤.

إنّ ما يقوله الفقهاء من أنّ من ينكر ضرورات الدين فإنّه يكون قد أنكر رسالة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في الواقع يرجع إلى هذه القضيّة بالتحديد. بالطبع، إنّ هذه القضيّة لا تختصّ بالاعتقاد بالإمامة أو حتّى بالضروريّات، بل إنّه لو كان هناك شيءٌ أقلّ من الضروريّات لكنّ النبيّ قد ذكره فقام هذا الشخص بإنكاره بدافع العناد فإنّه يكون في الواقع منكرًا لرسالة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

إنّ إنكار الرسالة يرجع بمعنًى من المعاني إلى إنكار الربوبيّة التشريعيّة لله، أي إنّه يقول أنا لا أقبل بحكم الله ولا أؤمن بحاكميّة الله. بالطبع، قد يعلن هذا بلسانه وفي بعض الأحيان يكون ذلك بقلبه فقط. والذي يكون على يقين بأنّ هذا الحكم هو من أحكام الإسلام مثل الأحكام المرتبطة بالحدود والتعزيرات واختلاف حقوق الرجل والمرأة وغير ذلك لكنّه لا يقبل بذلك في أعماق قلبه، فإنّه وإن كان بالظاهر مسلمًا لكنّه في الباطن كافر، أيّ إنّه بالرغم من ثبوت طهارته ومعاملته كمسلم لكنّه لا يذهب إلى الجنّة لأنّ شرط الدخول إلى الجنّة هو الإيمان المطلق. وهنا، يظهر التفاوت بين الإسلام والإيمان.

بناءً عليه، إنّ الإيمان الواقعيّ الذي يوجب الدخول إلى الجنّة والسعادة الأبديّة هو عبارة عن قبول كلّ ما أتى به النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ من جانب الله.

قضيّة المستضعف الفكريّ

هناك سؤالٌ يُطرح ها هنا وهو ما يتعلّق بتكليف أولئك الذين لا يستطيعون تشخيص حقائق الإسلام بسبب بعض الظروف الخاصّة التي تحيط بهم؟ لعلّ تصوّر هذه الحالة بالنسبة لي ولكم ليس أمرًا سهلًا، لكنّنا لو فتحنا أعيننا قليلًا سوف نرى أنّ أكثر أهل الأرض هم من هذا القبيل. فإنّ ظروف الكثير من المجتمعات في العالم لا تسمح للناس بإدراك جميع الحقائق. فلو أنّ الله منّ علينا وعرّفنا على هذه المعارف من أجل أن يتحقّق الإيمان الواقعيّ فينا وندرك حقائق الإسلام، فعلينا أن نكون شاكرين جدًّا، لأنّ الكثير من الناس يعيشون في ظروف يظنّون معها أنّ الحقيقة هي ما يقولونه ولا غير. وكمثال، فإنّ الكثير من الفرق الإسلاميّة، من غير الشيعة، التي تعيش في البلدان الأخرى، وبسبب شدّة ارتباطهم واستئناسهم بالظروف المحيطة بهم لا يتصوّرون أبدًا أنّ هناك طريقًا صحيحًا آخر. وهؤلاء يعتبرون الشيعة مشركين، ويعتقدون أنّ قرآن الشيعة هو قرآنٌ آخر، وأنّ الشيعة

لا يصلّون وأنّهم إذا صلّوا فإنّهم يصلّون صلاة أخرى لا تشبه صلاة المسلمين!... وقد وُضعت أحاديث كثيرة تقول إنّ الشيعة يعتقدون بأنّ جبرائيل قد خان الأمانة ولم يوصل الوحي إلى أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فأوصله عن طريق الخطأ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ! لهذا، فإنّهم حين يصلّون بدل أن يقولوا «الله أكبر» فإنّهم يقولون ثلاث مرات «خان الأمين» أيّ إنّ جبرائل الأمين والعياذ بالله قد خان الأمانة! ومثل هذه الدعايات الواسعة ضدّ الشيعة وصلت إلى درجة أنّنا لو أقسمنا ألف مرّة بأنّ هذه الأمور ليست واقعيّة وأنّه لا يوجد حتى شخصٌ واحدٌ من الشيعة في بلدنا يعتقد بذلك فإنّهم لا يصدّقون. فمثل هؤلاء لا يبحثون أصلًا فيما إذا كان التشيّع حقٌّ أو باطل.

فلو فرضنا أنّ هناك من لم يؤمن بولاية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب وجوده في مثل هذه الظروف واعتقد بأنّ الخلفاء الثلاثة هم على حقّ وأنّ عليًّا هو الخليفة الرابع، فهل إنّ هؤلاء الأشخاص من أهل الجنّة أم من أهل النار؟ فهل تنطبق عليهم تلك الرواية التي تقول إنّ من لم يقبل بولايتنا سيكون من أهل النار أم لا؟

يُطلق على من لا يخطر على باله أبدًا وجود مذهب حقٍّ آخر عنوان «الاستضعاف»؛ فهو المستضعف وبمقدار استضعافه يكون معذورًا. بالطبع، إذا كان الإنسان مستضعَفًا في أمرٍ فرعيٍّ كبعض القضايا الاعتقاديّة، فذلك لا يعني أنّه مستضعفٌ مطلقًا، بل سيكون مسؤولًا بمقدار ما تمّت الحجّة عليه سواء من ناحية العقل أو النقل.

بناءً عليه، إنّ مِلاك سعادة الإنسان هو الإيمان بشرط أن يُحافظ عليه حتّى آخر لحظة من حياته. فإنّ الإيمان يبقى حين يلتزم الإنسان بلوازمه، وفي غير هذه الحالة فإنّه سوف يضعف بالتدريج ثمّ يزول. حتّى إنّ هذا الشخص نفسه من الممكن أن لا يلتفت إلى أنّه أصبح كافرًا، لكنّه يرى في أعماق قلبه الشكّ والريب ولا يمكنه أن يتقبّل بعض الأحكام الإلهيّة. فالعمل لوحده من دون الإيمان، وإن كان يستتبع آثارًا في الدنيا، لكن لا فائدة له في الآخرة.

والآن، ماذا عن أولئك الذين يحملون العقائد الصحيحة والكاملة؛ أي الذين بالإضافة إلى قبول جميع أصول الدين، يعتقدون بإمامة الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لكنّهم يرتكبون المعاصي في بعض الحالات فهل ينبغي أن نعاديهم

ونطردهم؟ ليس جميع الناس معصومين، فمن المسلّم أنّ نسبة المعصومين إلى غير المعصومين هي نسبة ضئيلة جدًّا. بالطبع، إذا تجاهر هذا الإنسان بالفسق فلا ينبغي أن نعاشره، وإذا كان لهذا الشخص بعض الصفات القبيحة فليس من الجيّد أن نصادقه لأنّها من الممكن أن تنتقل هذه الصفات القبيحة إلينا. لكن هذا لا يعني أن نسبّه، بل ينبغي أن نحرص عليه ونعطف ونسعى لإرشاده ونتضرّع إلى الله ونسأله أن يوفّقه لترك المعاصي ثمّ التوبة.

وعلى أيّ حال، أولئك الذين يحفظون إيمانهم فإنّهم سيدخلون الجنّة في نهاية الأمر. بالطبع، إنّ هذا الكلام لا يعني أنّ الإيمان لوحده كافٍ وأنّه لا أثر للمعصية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

فلا يوجد أيّ عمل بلا حساب. فالشفاعة ستكون من نصيب أولئك الذين يستحقّونها، وينبغي الالتفات إلى أنّ ارتكاب بعض الذنوب يمكن أن يسلب الإنسان لياقة نيل الشفاعة. وفي اللحظات الأخيرة من عمره المبارك، جمع الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أهل بيته وأصحابه وقال: «إنَ شَفَاعَتَنَا لَنْ تَنَالَ مُسْتَخِفًّا بِصَلاتِهِ»[٢]. بناءً عليه، فكما أنّ التوبة توجب محو الذنوب فإنّ بعض الأعمال قد تكون سببًا لاستحقاق الشفاعة أو سلب القابليّة للشفاعة.

---

(١) سورة **الزلزلة**، الآيتان ٧ و٨.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٩، الصفحة ٢٣٦.



- مفهوم الخوف والرجاء وتأثير الدافع في الأعمال الاختياريّة للإنسان
- ارتباط الخوف والرجاء بمستوى معرفة الأفراد
- خوف الله ورجاؤه عامل تحرّك الإنسان
- حدود نصاب الخوف والرجاء
- التوازن بين الخوف والرجاء

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ يَهْلِكُ الْمُتَّكِلُ عَلَى عَمَلِهِ وَلَا يَنْجُو الْمُجْتَرِئُ عَلَى الذُّنُوبِ الْوَاثِقُ بِرَحْمَةِ اللهِ، قُلْتُ: فَمَنْ يَنْجُو؟ قَالَ: الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي مِخْلَبِ طَائِرٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ»[1].

مفهوم الخوف والرجاء وتأثير الدافع في الأعمال الاختياريّة للإنسان

يُعرّف الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من وصيّته لابن جندب أنّ الناجين من العذاب الإلهيّ هم أولئك الذين يتساوى الخوف والرجاء الحقيقيّ في قلوبهم: **«يَهْلِكُ الْمُتَّكِلُ عَلَى عَمَلِهِ وَلَا يَنْجُو الْمُجْتَرِئُ عَلَى الذُّنُوبِ الْوَاثِقُ بِرَحْمَةِ اللهِ، قُلْتُ: فَمَنْ يَنْجُو؟ قَالَ: الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي مِخْلَبِ طَائِرٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ»**. وهذا يعني أنّ خوفهم لم يصل إلى حيث ييأسون من غفران ذنوبهم ولم يصل بهم الرجاء برحمة الله إلى الجرأة على ارتكاب الذنوب.

وقد وردت رواياتٌ عن الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تبيّن وجود نورين في قلب المؤمن، أحدهما نور الخوف والآخر هو نور الرجاء، بحيث لو وُضعا في كفّتي ميزان لما رُجّح أحدهما على الآخر[2].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٠.

(٢) نص الحديث: فَقَالَ لَهُ لُقْمَانُ: يَا بُنَيَّ لَوِ اسْتُخْرِجَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فَشُقَّ لَوُجِدَ فِيهِ نُورَانِ: نُورٌ لِلْخَوْفِ وَنُورٌ لِلرَّجَاءِ، لَوْ وُزِنَا مَا رُجِحَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ. [**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحة ٤١٢].

لا شكّ بأنّ الإنسان يحتاج إلى الدافع لكي يُنجز الأفعال الاختياريّة، وبحسب تعبير الفلاسفة يجب أن تظهر مبادئ الإرادة وهي تلك الحالات الروحيّة والقلبيّة في الإنسان لكي ينهض إلى الفعل. وإنّ الشعور باللذة والألم هما أهم الدوافع التي تبعث الإنسان على القيام بأيّ فعل أو ترك أيّ أمر. فلو اطمأنّ الإنسان بحصول لذّةٍ من جرّاء عملٍ خاصّ لاندفع نحو القيام به ورجا ذلك، وعلى العكس لو أنّه شعر بالأمان من ترك أمرٍ ما بحيث لا يتسبّب ذلك له بالألم والتعب فإنّه سيتركه، فهذه الحالة مشتركةٌ بين الإنسان والحيوان وكلّ موجودٍ ذي إرادةٍ وقدرةٍ واختيار. يجب على الإنسان أن يهيّئ مجموعة من المقدّمات لأجل الوصول إلى اللذة أو الفرار من الألم. فذاك الذي يعمل من الصباح إلى المساء ويكدح يكون مؤمّلًا بالحصول على لقمة عيشه والالتذاذ بتناولها. يعبّر بعض الفلاسفة بالنفع فيما يتعلّق بهذا النوع من اللذائذ التي تحتاج إلى تأمين مكوّنات خاصّة، مثلًا يقولون إنّ تناول الدواء نافعٌ أي إنّ مجرّد تناوله ليس فيه لذّة لكنّه مقدّمة لأجل حصول الإنسان على الصحّة. أمّا الدافع للقيام بمجموعة من الأعمال فهو غير اللذة والنفع بل المصلحة. على سبيل المثال، الذي ينشئ مستشفى فإنّه لا يلتذّ بصورة مباشرة من بنائها، ولا يعود ذلك عليه بالنفع، لكنّ في هذا العمل مصلحة؛ فحين يرى أنّ المريض سينجو من الموت الحتميّ بواسطة هذه المستشفى فإنّه يشعر بالرضا واللذّة. وهناك أمورٌ مثل تحصيل العلم وأداء العبادة تُعدّ من هذا النوع من الأعمال.

بناءً عليه، يمكننا أن نقول إنّ كلّ عملٍ يؤدّيه الموجود الحيّ ذو الإرادة فإنّه يكون لأجل تحصيل مطلوبٍ وفائدة أو النجاة من أمرٍ غير مرغوب. ففي الأمور المطلوبة، يكون تحقّق الخير وصلاح الفرد أو المجتمع مِلاك العمل، وفي المقابل فإنّ الأمور المطلوبة يُنظر فيها إلى اجتناب الألم أو الضرر أو ما يخالف مصلحة الفرد والمجتمع.

إنّ بعض الأمور المطلوبة لا يبذل الإنسان فيها أيّ جهدٍ لأجل الوصول إليها أو الحصول عليها. على سبيل المثال، التنفّس أمرٌ مطلوبٌ لنا جميعًا لكي نبقى أحياء، لكنّنا لا نبذل أي جهدٍ لأجل القيام به ولا نسعى نحوه. وهناك من الأمور ما يجب علينا أن نهيّئ مقدّمات الوصول إليها. فإذا كان هذا الأمر مطلوبًا عندنا ولكنّنا علمنا أنّ تحقّقه غير ممكنٍ فإنّنا لن نبذل أيّ جهد للوصول إليه؛ أمّا إذا تيقّنّا أنّه ممكنٌ أو احتملنا تحقّقه ولو في المستقبل فإنّنا سوف نسعى نحوه حتمًا. فوجود

مثل هذه الحالة في الإنسان تُسمّى بالأمل أو الرجاء. الرجاء هو تمنّي الإنسان تحقّق أمر مرغوب به، وهو على يقين من وقوعه أو يحتمل وقوعه في المستقبل. وفي المقابل، الخوف يعني خوف الإنسان من تحقّق أمر غير مرغوب به، وهو على يقين من وقوعه أو يحتمل وقوعه في المستقبل.

بناءً عليه، يتوجّه الإنسان دائمًا إلى هذين العاملين «الخوف والرجاء» في جميع أعماله الاختياريّة التي يقوم بها أو يتركها؛ فالرجاء بتحقّق أمر مرغوب به على أثر العمل الجيّد، والخوف من تحقّق أمر غير مرغوب به، على أثر العمل السيّئ. بالطبع، لكلٍّ من عاملَي الخوف والرجاء وجهًا؛ أي يمكن للإنسان أن يكون راجيًا حصول أمر مرغوب به، وكذلك راجيًا دفع أمر غير مرغوب به. على سبيل المثال، يمكن للإنسان أن يرجو حصول السلامة لنفسه ويمكن أن يرجو زوال مرضه، ويمكن للإنسان أن يخاف من خسارة أمر مرغوب به أو يخاف حصول أمرٍ غير مرغوب، فمثلًا قد يخاف من زوال صحّته أو يخاف من عروض المرض والداء.

ارتباط الخوف والرجاء بمستوى معرفة الأفراد

يرتبط الخوف والرجاء في كلّ إنسان بحسب مستوى معرفته وحاجاته التي يُدركها. فعلى سبيل المثال، إنّ خوف أو رجاء طفلٍ بعمر سنتين يتبلور ضمن نطاق حاجاته ورغباته. فمثل هذا الطفل لا يعيش أبدًا أي نوعٍ من الخوف أو الرجاء فيما يتعلّق بالقضايا الدوليّة والاجتماعيّة والمعنويّة والأخرويّة ذلك لأنّه لا يمتلك أيّ تصوّر عنها. على مستوى أعلى، فإنّ الأشخاص العاديّين يخافون من الفقر ومصاعب الحياة ومصائبها، ومن جانبٍ آخر، يرجون الوصول إلى الثروة والزوج الصالح والبيت الجيّد والموقعيّة الاجتماعيّة الحسنة. وأولئك الذين يكون مستوى معرفتهم أعلى يتوجّهون إلى القضايا المعنويّة، على سبيل المثال يخافون من زوال العقل والإيمان ويرجون أن تزداد معرفتهم وايمانهم. وأولئك الذين آمنوا بالآخرة يأملون الحصول على ثوابها ويخافون عذاباتها.

إنّ فلسفة إرسال الدين هي أن تتوسّع دائرة الأمل والرجاء أيّ أن يفهم الإنسان أنّه لا ينبغي أن يحصر خوفه بدائرة الجوع والمرض والصاعقة وأمثالها، بل عليه أن يخاف ممّا هو أعلى من ذلك وأهمّ. وما يخدش بإنسانيّة الإنسان ويلوّث روحه وقلبه ويكدّره هو ذاك العذاب الذي يصل إلى الإنسان من جانب الله في الدنيا

والآخرة، والأهمّ من كلّ ذلك هو أن لا يرضى الله عن هذا الإنسان ولا يكلّمه. إنّ جميع الأفراد لا يخافون من هذه الأمور بالمستوى نفسه. فعلى سبيل المثال، لا يُدرك الأطفال هذا النوع من الخوف أبدًا لأنّهم لا يعلمون ما يُمكن أن يُسخط الله، أو أولئك الذين هم في الدرجات الأولى من الإيمان فإنّهم يخافون من عذابات الآخرة وجهنّم. لكنّ خوف أولئك الذين هم في المراحل الأعلى من الإيمان يختلف عنهم، فهؤلاء يخافون مثلًا من أن يؤدّي عملهم إلى أذيّة محبوبهم أو أن يؤدّي إلى عدم اعتناء الله بهم. بالطبع، للأطفال قدرة على إدراك بعض هذه القضايا في هذا المستوى. فمن باب المثال، حين يغضب الأبّ أو الأمّ من الأطفال فإنّهم يتألّمون وينزعجون، ولهذا لا يوجد تأديبٌ للطفل أشدّ من عدم اعتناء أمّه به أو عدم ملاطفته والعطف عليه. إنّ أعلى حاجات الإنسان الفطريّة تكمن في أن ينال الإنسان عناية الله.

لقد ذكر **القرآن الكريم** أنّ من أكبر العذابات الإلهيّة يوم القيامة أنّ الله لا يكلّم الأشقياء ويقول: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فهذا العذاب هو أشدّ وأصعب من كلّ عذابٍ ونار. ولعلّنا الآن لا ندرك جيّدًا ماهيّة هذا العذاب، لكنّنا إذا شعرنا يوم القيامة بهذا الاحتياج في وجودنا وحُرمنا من هذه العناية الإلهيّة (لا يكلّمنا الله ولا ينظر إلينا) هناك سندرك أيّ نعمةٍ قد فقدناها.

بناءً عليه، فإنّ الخوف والرجاء لا ينحصران في الأمور الدنيويّة ولا يتعلّقان بالأمور التي نخشاها أو نرجوها في هذه الدنيا فقط، بل هناك موارد أهمّ وأساسيّة أكثر يمكننا أن نُدركها ونشعر بها فيما إذا ارتقت معرفتنا.

خوف الله ورجاؤه عامل تحرّك الإنسان

بالإضافة إلى أنّ علينا الخوف من بعض الأمور، فيجب أن نحسب حساب أولئك الذين بيدهم هذه الأمور. على سبيل المثال، بالإضافة إلى خوفنا من عذاب الآخرة يجب أن نحسب حساب من بيده هذا العذاب ونعرفه. قد يخاف الإنسان من

---

(١) **سورة آل عمران**، الآية ٧٧.

أن يُبتلى بوباءٍ أو سرطانٍ أو إيدز وأحيانًا يعرف شخصًا يمكن أن يؤدّي إلى ابتلائه بهذه الأمراض، لهذا فإنّ معرفة من يقدر على التسبّب بهذا العذاب أو دفعه هو أمرٌ ضروريّ. أولئك الذين يعتقدون بالمعاد، وهي الحياة بعد الموت وما فيها من عذابٍ وثواب، لكنّهم لا يعرفون مَن بيده كلّ هذا العذاب والثواب، هم في الواقع لا يعرفون الله. ومن خلال العديد من الشواهد والقرائن الموجودة، يبدو أنّ هناك من كانوا يعيشون قبل آلاف السنين على هذه الأرض، وكانوا يعتقدون بعالم الآخرة ويعرفون أنّ فيها عطشٌ وجوعٌ وشقاء. وقد اكتشف علماء الآثار في أبحاثهم وجود بعض القمح إلى جانب أجساد الموتى في قبورهم. يبدو أنّ أولئك الموتى كانوا من الأشخاص الوجهاء في زمانهم، ولعلّهم بذلك كانوا يريدون أن يتناولوا ذلك القمح حين بعثهم في العالم الآخر لكي لا يُعانوا من الجوع!

بناءً عليه، لا تنحصر دعوة الإسلام بوجود عالمٍ ما بعد الموت ووجود العذاب والثواب فيه، بل يُضيف إلى ذلك أيضًا أنّه يريد أن يُفهم الإنسان أنّ الله هو من بيده كلّ هذا العذاب والثواب، وإذا أراد الانسان ألّا يُبتلى بذلك العذاب، فعليه أن يخاف من الله. بالطبع، يعود هذا الخوف بالأساس إلى أعمال كلّ إنسانٍ في هذا العالم وذلك لأنّ الذي يرتكب السيّئات هو الذي سيُبتلى بالعذاب الذي ينزله الله به. فينبغي أن تكون نقطة خوف الإنسان ورجائه متمركزةً حول الله لكي لا يُبتلى بالمصائب والأمور غير المطلوبة في الدنيا والآخرة، ولكي يحصل على الأمور المطلوبة والحسنة في الدنيا والآخرة، وإنّما يصبح هذا الأمر ممكنًا في ظلّ طاعة الله.

إنّ عامل تحرّك الإنسان بحسب الرؤية المعرفيّة الإسلاميّة، هو خوفه من الله ورجاؤه به. فعاملا الخوف والرجاء يؤدّيان إلى أن ينهض الإنسان لعبادة الله بحسب مراتب إيمانه ومعرفته. فعبادة بعض الأفراد تكون ناشئةً من خوفهم من عذاب جهنم، وأولئك الذين هم أعلى درجة في الإيمان يكون ذلك خوفًا من أن يسقطوا من عين الله: «فَهَبْنِي... صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ»[1].

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل.

حدود نصاب الخوف والرجاء

إنّ كلًّا من الخوف والرجاء أمرٌ تشكيكيّ وله مراتب وله حدٌّ نصابيّ يجب أن يكون المؤمن حائزًا على الحدّ الأدنى منه. فلو كان رجاء الإنسان برحمة الله بحيث يرى أنّه ليس لأعماله دخالة، وأنّ رحمة الله واسعةٌ بحيث تغفر كلّ شيء، فإنّ هذا يؤدّي إلى تفلّت الإنسان وتجرّئه على ارتكاب المعاصي. فهذا الرجاء في الواقع هو رجاءٌ كاذب ولا واقعيّة له؛ لأنّ الله يغفر للأشخاص بحسب أعمالهم ويُدخلهم الجنّة، أو يعذّبهم ويدخلهم جهنّم. بناءً عليه، إنّ امتلاك مرتبة من الخوف تمنع من المعصية، وكذلك مرتبة من الرجاء تؤدّي إلى القيام بالأعمال الحسنة هو أمرٌ واجبٌ ولازم.

بالطبع، يجب أن يكون هناك نوعٌ من التوازن والتعادل بين هذين العاملين. فلو تغلّب الرجاء على الخوف، وكان الخوف أقلّ إلى درجةٍ لا يبقى عند الإنسان دافع لترك المعصية، فسوف يتجرّأ الإنسان على المعاصي ويكون في ذلك هلاكه. وإذا كان خوف الإنسان أكبر من رجائه فهذا خطأ، أيّ إنّ الإنسان لا ينبغي أن يظنّ بأنّ الله سيدخله النار حتمًا لأنّه ارتكب معصيةً، بل على هذا الإنسان أن يتوب ويرجو رحمة الله وعفوه من خلال القيام بالأعمال الحسنة.

هناك مراتب أخرى من الخوف والرجاء تختصّ بأولئك الذين تكون درجة إيمانهم ومعرفتهم أعلى. فإنّ معرفة هذا النوع من الأشخاص قد تصل إلى حيث يُمكنهم أن يروا مصيرهم ويعرفون ما الذي سيعطيهم الله إيّاه في ذلك العالم. بالطبع، لعلّ تصوّر هذه الحالة بالنسبة لنا أمرٌ صعب. هناك أشخاصٌ يكون مجرّد توجّههم إلى الصفات الجلاليّة الإلهيّة موجبًا لخوفهم أو يرتعدون من معرفة عذاب الله.

التوازن بين الخوف والرجاء

إنّ كمال الإنسانيّة يكمن في ظهور العبوديّة في جميع أبعاد وجود الإنسان. وإنّ من أبعاد وجود الإنسان الخوف ويقتضي كمال العبوديّة أن يظهر بعنوان العبادة في وجود الإنسان. من هنا، فإنّ هذا الخوف موجودٌ في المعصومين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأولئك الذين لم يرتكبوا أيّ معصيةٍ في حياتهم. فهؤلاء بالرغم من معرفتهم بأنّهم سينالون مغفرة الله لكن بسبب توجّههم إلى صفة القهّاريّة الإلهيّة فإنّهم يرون القاهريّة الإلهيّة

في بعض الحالات وينسون أنفسهم، كما أنّ رجاءهم أيضًا يكون على أثر التوجّه إلى الصفات الجماليّة لله. بالطبع، في هذه المرتبة من الممكن أيضًا أن يظهر الخوف في بعض الأفراد أكثر من الرجاء أو على العكس. وأكمل الأشخاص هم أولئك الذين يظهر كلٌّ من الخوف والرجاء في وجودهم بصورةٍ متساوية ومتعادلة.

وقد نُقلت قصّةٌ في هذا المجال تحكي عن حوارٍ جرى بين يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد كان كلٌّ منهما نبيًّا وكانا في العمر نفسه وعاشا في الزمان نفسه، حيث إنّ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلًا: ألا تخاف من عذابِ الله، حيثُ إنّك هادئٌ إلى هذا الحدّ وساكن؟ فقال له عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في المقابل: ألست ترجو رحمة الله، حيث إنّك تبكي إلى هذا الحدّ؟ فقد كان يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ يبكي كثيرًا من خوف الله بحيث أثّر ذلك على وجهه من شدّة دموعه وظهر لحم وجهه. فقد كان هذا النبيّ رقيق القلب إلى درجة أنّ أباه النبيّ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حين كان يريد أن يُلقي موعظةً في المسجد ويخوّف الناس من عذاب الله في الآخرة، كان يحرص على عدم وجود يحيى، لأنّه إذا سمع هذا الكلام فقد يصل به الأمر إلى درجة عدم القدرة على التحمّل. وقد كان يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ من بكّائي العالم حيث كانت آثار الخوف والصفات الجلاليّة أشدّ ظهورًا في وجوده. وفي المقابل، كان الرجاء والرحمة الإلهيّين أي الصفات الجماليّة تتجلّى أكثر في وجود حضرة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وإذا صحّ هذا الحديث، يظهر لنا أنّه وإن كان كلٌّ من يحيى وعيسى من الأنبياء الإلهيّين لكنّ صفات الجلال والجمال الإلهيّ لم تظهر في كلٍّ منهما بالمقدار نفسه. في حين أنّ حضرة نبيّنا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا أفضل من عيسى ويحيى فقد تجلّت فيهم هذه الصفات بالمقدار نفسه. بالطبع، وإن شاهدنا في بعض الروايات أحيانًا أنّ آثار الخوف من عذاب جهنّم، كانت ملحوظةً أكثر في بعض الأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فهذا يعود إلى توجّههم إلى الصفات الجلاليّة الإلهيّة وأيضًا إلى حالاتهم الخاصّة. وفي المقابل، حين كانت تحصل حالة الانبساط، فإنّهم كانوا ينظرون فقط إلى الصفات الجماليّة الإلهيّة؛ ويمكن أن يكون لغيرهم من أولياء الله أيضًا توجّهٌ أكثر إلى الصفات الجلاليّة أو الصفات الجماليّة، لكنّ أكمل الأولياء هم أولئك الذين يكون توجّههم إلى صفات الجمال والجلال متساويًا.



الدرس الحادي عشر

السرور في الرؤية الإسلامية

- إدخال السرور على قلب الأخ المؤمن
- السرور مطلب فطريّ للإنسان
- الحزن المطلوب
- الفرح في ظلّ تأمين إرادة الأفراد
- الفرح المطلوب في الرؤية الإسلاميّة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَوِّجَهُ اللهُ الْحُورَ الْعِينَ وَيُتَوِّجَهُ بِالنُّورِ فَلْيُدْخِلْ عَلَى أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ السُّرُورَ»[1].

إدخال السرور على قلب الأخ المؤمن

إنّ مسألة إدخال السرور إلى قلب الأخ المؤمن، كأحد العبادات الكبرى، قد وردت في رواياتٍ كثيرة وبصور مختلفة، وقد خُصّص لذلك أبواب في المجاميع الروائيّة المتعدّدة مثل **الكافي** و**الوافي** و**وسائل الشيعة** وغيرها من الكتب ونُشير هنا إلى بعض النماذج من هذه الروايات ونقوم بتوضيحها.

إنّ مضمون بعض هذه الروايات هو أنّ أفضل وأحبّ العبادات عند الله تعالى إدخال السرور على قلب الأخ المؤمن. فقد أورد المرحوم الكليني رواية عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في **الكافي**: «وَمَا عُبِدَ الله بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ»[2]. تبيّن الرواية هذه الحقيقة وهي أنّ إفراح المؤمن هي أحبّ العبادات عند الله تعالى. وفي رواية أخرى نظير هذا المضمون عن النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»[3]. وفي بعض الروايات ولأجل ترغيب الناس بإفراح إخوانهم المؤمنين ورد أنّ من

(1) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٠.

(2) الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش)، الجزء ٢، الصفحة ١٨٨.

(3) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ١٨٩.

أفرح مؤمنًا فكأنّه أفرحنا أهل البيت، ومن أفرحنا أهل البيت فقد سرّ رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ[1]. وفي روايةٍ أخرى أيضًا، ورد أنّ من سرّ مؤمنًا فقد سرّ رسول الله[2]. فقد تكرّر مثل هذا المضمون في رواياتنا، ومنها أيضًا ما ورد في **الكافي** عن الصادق عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: «لَا يَرَى أَحَدُكُمْ إِذَا أَدْخَلَ عَلَى مُؤْمِنٍ سُرُورًا أَنَّهُ عَلَيْهِ أَدْخَلَهُ فَقَطْ، بَلْ وَالله عَلَيْنَا، بَلْ وَالله عَلَى رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ»[3]. وجاء في رواية عن النبيّ الأكرم صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: «مَنْ سَرَّ مُؤْمِنًا فَقَدْ سَرَّنِي وَمَنْ سَرَّنِي فَقَدْ سَرَّ الله»[4].

وهذه الموارد المذكورة هي نماذج من روايات متعدّدة وردت في هذا المجال. بناءً عليه، لا يبقى مجالٌ لأيّ شكٍّ بأنّ إفراح المؤمنين هو أمرٌ جميلٌ جدًّا عند أهل البيت عَلَيْهِمُالسَّلَامُ بل هو أعلى العبادات. لكن قد تُطرح في هذا المجال عدّة أسئلة، يمكن أن تُحدث بعض التوهّمات لدى الإنسان، فقد يشتبه البعض ويستنتجون أمورًا غير صحيحة. يمكن الإجابة عن بعض هذه الأسئلة بسهولة من خلال مضامين بعض الروايات الأخرى أو عن طريق مجموعة من القرائن القطعيّة. فمن هذه الأسئلة: هل إنّ الإنسان إذا أفرح أيّ شخص بأيّ وسيلة كانت، سوف يُعدّ عمله هذا عبادة كبرى؟ الجواب عن هذا السؤال واضحٌ تقريبًا، فإنّ كلّ من لديه معرفةٌ مختصرةٌ بنظام القيم الإسلاميّة وبمدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُالسَّلَامُ وبالمعارف الإسلاميّة يعرف الإجابة عن هذا السؤال. فليس المقصود بإفراح الشخص الآخر هو إفراحه من خلال المعصية؛ أيّ ارتكاب المعصية لأجل إدخال السرور على قلب الإنسان. فمن المسلّم أنّ مثل هذا العمل لا ثواب له، بل يبقى معصيةً. وفي بعض الروايات، تمّ التأكيد على هذه النقطة وهي أنّه لا ينبغي إدخال السرور على المؤمن من خلال ما فيه معصيةٌ لله. حتى إنّ بعض الأكابر كان يقول إنّ إفراح المؤمن ليس ممدوحًا

---

(١) عن أَبِي عَبْدِ الله عَلَيْهِالسَّلَامُ قَالَ: مَنْ أَدْخَلَ السُّرُورَ عَلَى مُؤْمِنٍ فَقَدْ أَدْخَلَهُ عَلَى رَسُولِ الله، وَمَنْ أَدْخَلَهُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فَقَدْ وَصَلَ ذَلِكَ إِلَى الله ... [**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧١، الصفحة ٢٩٧.].

(٢) نص الحديث كما ورد في: **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧١، الصفحة ٤١٦: عن النبيّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: مَنْ أَدْخَلَ عَلَى مُؤْمِنٍ فَرَحًا فَقَدْ أَدْخَلَ عَلَيَّ فَرَحًا...

(٣) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ١٨٨.

إذا كان مستلزمًا للغو والأمور المبتذلة. فمن الممكن أن يقوم بعض الأشخاص من غير المتّقين والذين لا يتقيّدون بكلامهم وسلوكهم ببعض الأمور اللغويّة وأعمال السخرية، التي ليست من شأن المؤمن، ويتصوّرون لأنّهم يُفرحون الآخرين بمثل هذه الأعمال فإنّهم يؤدّون أفضل العبادات. ولو فرضنا أنّ مثل هذه الأعمال ليست حرامًا، لكنّها على الأقلّ من الأمور غير الممدوحة والتي يمكن أن نعدّها مذمومةً (مكروهةً أو شبهة).

بالطبع، قد يكون في هذا المورد بعض الاستثناءات. افرضوا مثلًا أنّ هناك شخصٌ يعيش حالةً من الكآبة الشديدة على أثر بعض المصائب والمشاكل الحياتيّة، ممّا أوصله إلى حالةٍ مرَضيّةٍ، وإذا أراد إخراجه من هذه الحالة فليس أمامهم سوى مثل هذه الأعمال السطحيّة أو تلك التصرّفات التي لا تُعدّ حسب الأحوال العاديّة ممدوحةً. فقد يكون مثل هذا الأمر نوعًا من العلاج، وهو حالة استثنائيّة، فلا يمكن القول إنّ كلّ من يتصرّف بأيّ شكلٍ لإدخال السرور على المؤمنين يكون قد أدّى أفضل العبادة. ومن المسلّم أنّه لا ينبغي القيام بمثل هذا العمل عن طريق المعصية أو حتى القيام ببعض الأمور المكروهة والشبهة أو اللغو. هناك أعمال لغويّة لا تُعدّ ممدوحةً بحدّ ذاتها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1]، فمن صفات المؤمنين أنّهم لا يقعون في اللغو. بناءً عليه، يمكن القول إنّ إفراح شخصًا ما ليس أفضل عبادة مطلقًا، بل إنّ إدخال السرور على المؤمنين ينبغي أن يكون عبر القنوات الشرعيّة والطرق التي أجازها الشارع، وعندها تُحسب من أفضل العبادات.

السرور مطلبٌ فطريٌ للإنسان

يوجد هناك أسئلةٌ أخرى، هي أعمق وأكثر تعقيدًا وهي من القضايا الأصوليّة والأساسيّة في هذا المجال؛ وأهمّ هذه الأسئلة: هل إنّ الفرح في الحياة هو أمرٌ مطلوبٌ بحدّ ذاته، بحيث إنّ الإسلام يوصي بكلّ هذه التوصيات لإدخال السرور على الآخرين ويعطي على ذلك مثل هذا الثواب؟ وبعبارةٍ أخرى، هل إنّ الحالة

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

المطلوبة للإنسان، وفق الرؤية الإسلاميّة، هي أن يكون مسرورًا جدًّا أو على العكس أن يكون حزينًا؟

بالالتفات إلى الروايات التي وردت في مدح الحزن، يوجد روايةٌ بهذا المضمون: لو كان هناك شخصٌ حزينٌ في جمعٍ من الناس فإنّ الله سيرحم كلّ هذه الجماعة بسبب هذا الشخص الحزين. فهنا يُطرح هذا السؤال: كيف يمكن الجمع بين هاتين الفئتين من الروايات؟ وهل إنّ الفرح مطلوبٌ بحسب الرؤية الإسلاميّة؟ وإذا لم يكن للفرح مثل هذه المطلوبيّة الزائدة، إذًا كيف يكون لإفراح الآخرين مثل هذا الثواب، لا بل يُعتبر من أعلى العبادات؟ وهذا سؤالٌ جوابه ليس بهذه البساطة. فلأجل الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نبيّن مجموعة من المقدّمات.

لا شكّ بأنّ أصل السرور والفرح أمرٌ فطريٌّ مطلوب. فمن النعم التي وعد الله تعالى أن يهبها للإنسان يوم القيامة هي أنّ المؤمن لا يحزن في الجنّة بل يكون فرحًا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾[1]. وفي موضعٍ آخر، يقول: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[2]؛ فالمؤمن بعد الحساب يرجع إلى أهله وعياله في حالةٍ من السرور الشديد والضحك. لا شكّ أنّ الإنسان بفطرته طالبٌ للسرور والفرح والبهجة.. فهذا يعني أنّ الإنسان طالبٌ لمثل هذه البهجة بذاته ولا إشكال في هذا. فحين يدخل المؤمنون إلى الجنّة يوم القيامة يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[3]، فهذا يعني أنّ مرحلة الحزن والغمّ في الدنيا تكون قد طُويت إلى الأبد حين الدخول إلى الجنّة، ولن يبقى هناك أيّ حزنٍ أو غمّ. فالفرح وعدم الحزن أمرٌ مطلوب بالفطرة وهذا هو ثواب المؤمنين في الجنّة. وعلى العكس، فإنّ أهل جهنّم يكونون في غمٍّ وحزنٍ دائمَين وتكون وجوههم في حالةٍ من الانقباض ﴿عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[4]، و﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[5]، فهذه من أحوال أهل جهنّم. وحين يريد القرآن أن يعرّف الشهداء ويمدحهم ويرغّب الآخرين بصورة غير مباشرة للالتحاق بقافلة الشهداء،

---

(١) سورة **الغاشية**، الآية ٨.

(٢) سورة **الانشقاق**، الآية ٩.

(٣) سورة **فاطر**، الآية ٣٤.

(٤) سورة **الإنسان**، الآية ١٠.

(٥) سورة **الزمر**، الآية ٦٠.

فإنّه يقول: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾[1]، وكلّ ذلك بفضل تلك النعم التي أعطاهم الله إيّاها. بناءً عليه، فإنّ حالة الفرح والسرور هي حالة مطلوبة بالفطرة، وهي من النعم الإلهيّة الكبرى حتمًا، في البرزخ وفي الآخرة. فيجب أن نكون جميعًا طالبين لمثل هذه النعمة.

إنّ الانسان بفطرته طالبٌ للسعادة والبهجة. فالجميع يعيشون الأفراح والأتراح في هذه الدنيا، بنحوٍ طبيعيّ وتكوينيّ. فلا يوجد إنسانٌ في هذه الدنيا يكون مسرورًا مدى عمره أو يكون محزونًا مدى عمره، فلكلّ واحدٍ أنواعٌ من الأفراح والأتراح. من الطبيعيّ أنّ الإنسان يريد أن يكون سعيدًا في الدنيا، ويمكن أن يحصل على هذه السعادات من طرقٍ مختلفة. ورُبّ فرحٍ يستتبعه حسرات طويلة، كتلك الأفراح الناجمة عن معصية مؤقّتة. يمكن للإنسان أن يفرح بارتكاب معصيةٍ لوقتٍ محدّد، لكن سيستتبع ذلك المصائب والبلاءات. أولئك الذين يُفرحون أنفسهم عبر الطرق غير المشروعة مثل الإدمان والسكر وغيرها، فإنّ فرحهم يكون مؤقّتًا وبعد ذلك يدخلون في حالةٍ من الكآبة لساعات بل لمدّةٍ طويلة؛ فمثل هذا الفرح ليس مطلوبًا والعقل لا يمكن أن يجوّزه بأيّ شكلٍ من الأشكال لأنّه فرحٌ كاذب. فالمُدمن سيجلب بعد مدّة الشقاء لنفسه ولعائلته ومجتمعه.

ووفق النظام القيميّ الإسلامي، فإنّ المطلوبيّة الواقعيّة لأيّ شيءٍ تكون حين يكون هذا الشيء في مسير المطلوبيّة النهائيّة والسعادة الأبديّة للإنسان. فحين تكون أفراح الإنسان الدنيويّة على طريق إعانته على تحقيق سعادة الآخرة فإنّها تكون حسنةً جدًّا ومطلوبة. فهل يوجد في الأساس مثل هذه الأفراح؟ الجواب هو نعم. فالإنسان الذي يغوص في الغمّ المطلق لا يمكن أن يسعى نحو أيّ شيء، ولا يؤدّي العبادات؛ فمثل هذا الإنسان لا يستطيع أن يؤدّي كلًّا من أعمال الدنيا والآخرة بنحوٍ صحيح. فالشخص الذي ليس لديه نشاط، يريد أن يجلس لوحدة في إحدى الزوايا، لا ينطق ولا يسمع ولا يفعل أيّ شيء؛ ومثل هذا الشخص لا نفع له لا لدنياه ولا لآخرته كما لا نفع له لدنيا وآخرة غيره. فالحزن والغمّ اللذان يمنعان الإنسان من العمل والحياة، يحول دون وصول الإنسان إلى أمور الدنيا والآخرة، وفي الواقع هو

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٠.

نوعٌ من المرض الذي لا رغبة فيه. إنّ هذا العمل من الممكن أن ينتهي أيضًا إلى الكفر، وقد يؤدّي بأولئك الذين لا إيمان لهم أو بذوي الإيمان الضعيف إلى الانتحار. فمثل هذا الحزن ليس مطلوبًا بأيّ وقت. بل على العكس، فإنّ المطلوب هو تلك الحالة من النشاط التي تحمل الإنسان على القيام بالأعمال الدنيويّة والأخرويّة بنحوٍ صحيح، وتؤدّي به لأن يدرس بنحوٍ أفضل ويعبد بطريقة أفضل. من هنا، فإنّ الاستفادة من الوسيلة التي تستتبع السعادة الأخرويّة للإنسان هي أمرٌ مطلوبٌ.

بناءً عليه، يمكن القول إنّه ليس كلّ سرور وفرح في الدنيا مطلوب، لا سيّما إذا كان فيه إفراط. وقد ذُكر الفرح المربوط بالدنيا في القرآن غالبًا بلهجةٍ ممتزجةٍ بالذمّ، مثل: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1]، أو ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[2]؛ وقد نزلت هذه الآية بشأن قارون الذي كان يختال ويفرح بسبب تلك النعم الدنيويّة، فجاءه بنو إسرائيل لأجل نصيحته وقالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[3]. فلا شكّ بأنّ هذه الحالة من الفرح ليست مطلوبة لأنّها لا تعين الإنسان على الحركة التكامليّة، بل تؤدّي به إلى الوقوع في فخّ الشيطان، فتجعله غافلًا ومغرورًا وتمنعه من أداء وظائفه وتكاليفه وتؤدّي به إلى التفاخر على الآخرين. وقد أشير في بعض الآيات القرآنيّة أيضًا إلى أنّ أولئك الذين يفرحون كثيرًا في الدنيا سيكون وضعهم في الآخرة غير جيّد: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[4]، فقد وردت هذه الآية في وصف الجهنميّين، أولئك الذين كانوا يقضون أوقاتهم في اللهو في هذه الحياة الدنيا.

الحزن المطلوب

وفي المقابل، فإنّ الحزن الذي يوجّه الإنسان إلى الله ويُلفت نظره إلى الآخرة وإلى المسؤوليّات الشرعيّة والاجتماعيّة الملقاة على عاتقه فهو حزنٌ مطلوب؛ هذا الحزن الذي ينشأ بسبب تقصير الإنسان في أداء تكاليفه. فالعاقل يحزن حين يرتكب

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٠.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

(٣) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

(٤) سورة **الانشقاق**، الآية ١٣.

معصيةً ما، ويلتفت إلى أنّها ستؤدّي إلى فقدانه سعادة الآخرة، في الوقت الذي كان باستطاعته كسب سعادة الدنيا والآخرة، فيما لو قام بعملٍ آخر؛ فمثل هذا الحزن إن لم يصل إلى حدّ الإفراط، فهو حزنٌ مطلوب. أمّا إذا وصل هذا الحزن إلى حدٍّ يمنع الإنسان من العمل والحياة ويؤدّي إلى عدم تمكّن الإنسان من القيام بتكاليفه الشرعيّة فلا فائدة منه. فأيّ فائدةٍ في الغمّ والحزن اللذين يحولان دون قيام الإنسان بالدرس والعبادة والذهاب إلى الجهاد وخدمة المجتمع والقيام بغيرها من الأنشطة الدينيّة المطلوبة؟! بناءً عليه، هناك مرتبة من الحزن يمكن أن تكون مطلوبةً، وهي تلك التي تحمل الإنسان على جبران الماضي والقيام بالتكاليف والأعمال الحسنة التي تؤدّي إلى سعادته في الآخرة.

الفرح في ظلّ تأمين إرادة الأفراد

النقطة الثالثة التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار هي أنّ السرور والفرح إنّما يحصلان للإنسانِ حين تتأمّن حاجاته ومطالبه؛ إلا أنّ مطالب الأشخاص ليست سواء، فالفرح يتفاوت بين شخصٍ وآخر. فمن باب المثال، حين تريدون أن تُفرحوا طفلكم من الممكن في بعض الأوقات أن تُعطوه بعض الطعام أو الألعاب، وحين يكبر هذا الطفل قليلًا يحبّ أن يسمع القصص. فهذه أنواعٌ من الفرح للأطفال التي تحصل بالطعام واللعب وسماع القصص المضحكة وأمثالها. أمّا في سنّ الشباب، فإنّ أولئك الذين وصلوا إلى الرشد الطبيعيّ والمعقول ونمت أبعادهم النفسيّة فإنّهم لن يقنعوا بمثل هذه الأشياء ولا يفرحون بها. فالإنسان لديه مطالب أخرى في شبابه. وبالإضافة إلى المطالب التي ترتبط بالجهات البدنيّة، فهناك مطالب أخرى ذات طبيعة نفسيّة، إنّ قلب الشاب يريد أن يكون صاحب شخصيّة واحترام.

وتتفتّح هذه الحاجة في الفرد في مرحلة الناشئة، وبالطبع قد تظهر بصورةٍ خارجةٍ عن الاعتدال وتصل إلى حدّ الإفراط، ففي بعض الأحيان تكون المشاغبة عند الشباب لأجل أن يُظهر شخصيّته أكثر. ففي كلّ مرحلةٍ عمريّة، هناك مطالب طبيعيّة إذا تأمّنت فسوف تُفرحه وتُسرّه. بالطبع، هناك بعض المطالب الموجودة تستمرّ على مدى الحياة مثل الاحتياج إلى الطعام والمسكن وغير ذلك.

الفرح المطلوب في الرؤية الإسلاميّة

والآن، وبالالتفات إلى النقاط التي تمّ ذكرها، يجب أن نرى هل إنّ الفرح أمرٌ مطلوبٌ في الرؤية الإسلاميّة أم لا؟ وفي الجواب يجب أن نقول إنّ كلّ فرحٍ يكون في مسار الكمال المعنويّ فهو مطلوبٌ. فإذا أردتم أن يصل إنسانٌ في روحه إلى تلك المرحلة من الرقيّ التي لا يفرح فيها إلّا بالمناجاة مع ربّه والتضرّع بين يديه، فيجب أن تمهّدوا الأرضيّة المناسبة له لكي يتمكّن من تأدية العبادة. يقول الإمام السجّاد عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في إحدى مناجاته: «وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بِغَيْرِ أُنْسِكَ، ومن كلّ سرورٍ بغير قربك»[1]، فإن كلّ سرورٍ لا يتحقّق فيه لقاؤك بالنسبة لي هو معصيةٌ وإنّني أستغفرك من هذا السرور. فمن يريد أن يفرح أولئك الذين وصلوا إلى تلك المرتبة حيث لا يفرحون إلّا بالأنس بالله ومناجاته وفي النهاية بلقائه، عليه أن يعمل ليزيل كلّ الموانع والمعوّقات من أمامهم لكي يتقدّموا على هذا الطريق. فمثل هذا السرور له قيمةٌ مطلقة، لأنّ إفراح مثل هذا المؤمن لأجل الوصول إلى مقصده ليس فيه أيّ قيدٍ أو شرط. لأنّ مثل هؤلاء لا يفرحون سوى من الطريق المشروع، وفرحهم يكون بعبادة الله والأنس به، فهذا الفرح مطلوبٌ دائمًا. لكن هناك أفراحٌ أخرى من الممكن أن تكون دنيويّة لكنّها تُعين الإنسان على التقدّم على طريق التكامل المعنويّ أو على الأقلّ تُعينه لئلّا يُبتلى بالمعصية، مثل ذلك الفرح الدنيويّ الذي يكون للزوجين في محيط الأسرة.

فهذا النوع من الفرح لا يرتبط بشكلٍ مباشر بالله والقيامة، فإنّه نوعٌ من الالتذاذ الذي يحصل للزوجين في نطاق الأسرة، لكن إذا حصل بقصد القربى يُمكن أن يكون عبادةً، وإن لم يكن فيه ذلك، فإنّه قد يحول دون الابتلاء بالمعصية. بالطبع، إنّ هذه تُعدّ مرتبةٌ من العبادة أيضًا لأنّها قد حصلت لأجل الامتناع عن الابتلاء بالمعصية.

الأفراح الدنيويّة التي تكون للمؤمنين في حياتهم تكون لأجل هذا المقصد وهو القيام بالعبادات والتكاليف. فالمُزاح وخصوصًا في السفر إذا لم يتجاوز الحدّ ولم يؤدِّ إلى اللغو وإهدار الوقت ولم يكن فيه سخريةٌ أو إهانةٌ أو أذيةٌ للآخرين، يُعدّ أمرًا مطلوبًا إلى الدرجة أنّه عُدّ من المستحبّات وقد أكدّ عليه الإسلام. فهذا فرحٌ دنيويّ

---

(١) **مفاتيح الجنان**، مناجاة الذاكرين.

يحول دون الملل والتعب، وبالإضافة إلى ذلك فإنّه ليس من الأمور التي تمنع من أداء الوظائف اللاحقة. إنّ توفير أسباب مثل هذا الفرح للآخرين أو للذات، ليس فيه عيبٌ وهو أمرٌ مطلوبٌ.

وعلى أيّ حال، فالملاك هو إفراح المؤمن وإدخال السرور عليه. ولا يمكن للمؤمن أن يفرح بالمعصية إذا كان مؤمنًا حقًّا، لأنّ فرحه إمّا أن يكون في الارتباط بالله مباشرةً أو لأجل التكامل المعنويّ والقيام بالمسؤوليّات، أو بالحدّ الأدنى لأجل مواجهة المعصية. بالطبع، بالالتفات إلى النقطة الأخرى في أنّ مراتب إيمان الأفراد تتفاوت فيما بينهم، فمن الطبيعي لأفراحهم أن تتفاوت أيضًا، وهذه القضيّة ليست منحصرة بالبالغين، بل تشمل الأطفال أيضًا. فإفراح المؤمن الذي ما زال في سنّ الطفولة أو وصل حديثًا إلى سنّ التكليف فيه ثوابٌ، وإفراحه يكون بذاك الحدّ الذي يُدركه. فلو أردتم أن توفّروا لطفلٍ ما أسباب الفرح التي هي للأشخاص الذين وصلوا إلى أوج العرفان، فهو أصلًا لن يدرك منها شيئًا ولن يفرح بها أبدًا. على أيّ حال، إنّ إخراج المؤمن من حالة التعب والنَّصَب أمرٌ مطلوبٌ لأنّ مثل هذه الحالة النفسيّة تؤدّي إلى ضرره. بالطبع، إنّ إزالة الحزن الذي يكون لله والذي يؤدّي إلى أن يُصبح هذا الفرد أكثر نجاحًا في القيام بوظائفه هو أمرٌ غير مطلوب. فعلى سبيل المثال لا ينبغي أن نُضحك ذاك الذي يبكي في مجلس عزاء سيّد الشهداء عَلَيْهِ السَّلَامُ لكي نُفرحه، لأنّ مثل هذا المجلس هو للبكاء والحزن؛ فهنا لا مجال للفرح بل ينبغي البكاء والحزن. أو إذا كان هناك شخصٌ يقوم لله في منتصف الليل باكيًا متضرّعًا حزينًا فهل يُعدّ إضحاكه أمرًا حسنًا؟ بالطبع، إنّ هذا النوع من الإفراح والسرور ليس مطلوبًا. وفي المقابل، إنّ ذاك الحزن الذي يمنع الإنسان من التحرّك الطبيعيّ نحو السعادة الدنيويّة والأخرويّة هو أمرٌ غير مطلوب.

بالطبع، يجب الالتفات إلى أنّ هناك أشخاصٌ قد يستندون إلى الإطلاق في هذا النوع من الروايات لأجل إرضاء ميولهم النفسيّة. فهؤلاء الذين يريدون العبث والضحك والإضحاك يستدلّون بوجود هذا الثواب في عمليّة إدخال السرور على المؤمن! في حين أنّه لا يُعدّ كلّ إدخالٍ للسرور ممّا يوجب الثواب. لو كان إدخال السرور هو لجهة التكامل أو على الأقلّ لإزالة موانع العبادة والتكامل وكان باعثًا على النشاط في أداء المسؤوليّات، فيمكن أن يكون مطلوبًا؛ سواءٌ قام هذا الإنسان نفسه بتوفير أسبابه أو أعانه عليه آخرون.

على أيّ حال، إنّ النظرة الواقعيّة تلفت نظر الإنسان إلى وجود الكثير من المصائب والبلاءات التي تواجه الناس في هذه الدنيا، وإنّما تختلف هذه المصائب والبلاءات بأنواعها وأشكالها وأوقاتها، فقد تكون مرضًا أو فقرًا أو فقدانًا لعزيزٍ أو قد تكون بلاءً اجتماعيًّا كالزلزال والسيول والإعصار. ومن المسلّم أنّ إعانة وإفراح هؤلاء الذين ابتلوا بمثل هذا الغمّ والحزن ومُنعوا من القيام بوظائفهم ومسؤوليّاتهم هو من أفضل العبادات. بالطبع، يجب الالتفات أنّ شرط كلّ عبادةٍ هو قصد القربى.



- الآثار السيّئة لكثرة النوم وكثرة الكلام
- ضرورة اجتناب الإفراط والتفريط في النوم
- تنظيم النوم
- مصيدتان للشيطان

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ أَقِلَّ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ وَالْكَلَامَ بِالنَّهَارِ فَمَا فِي الْجَسَدِ شَيْءٌ أَقَلُّ شُكْرًا مِنَ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ، فَإِنَّ أُمَّ سُلَيْمَانَ قَالَتْ لِسُلَيْمَانَ (ع): يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَالنَّوْمَ فَإِنَّهُ يُفْقِرُكَ يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ. يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَائِدَ يَصْطَادُ بِهَا فَتَحَامَوْا شِبَاكَهُ وَمَصَائِدَهُ، قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَمَّا مَصَائِدُهُ فَصَدٌّ عَنْ بِرِّ الْإِخْوَانِ، وَأَمَّا شِبَاكُهُ فَنَوْمٌ عَنْ قَضَاءِ الصَّلَوَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ، أَمَا إِنَّهُ مَا يُعْبَدُ اللهُ بِمِثْلِ نَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَى بِرِّ الْإِخْوَانِ وَزِيَارَتِهِمْ، وَيْلٌ لِلسَّاهِينَ عَنِ الصَّلَوَاتِ، النَّائِمِينَ فِي الْخَلَوَاتِ، الْمُسْتَهْزِئِينَ بِاللهِ وَآيَاتِهِ فِي الْفَتَرَاتِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[1].

الآثار السيّئة لكثرة النوم وكثرة الكلام

من الموضوعات التي أكّد عليها علماء الأخلاق وأهل السير والسلوك اجتناب كثرة النوم وكثرة الكلام. فقد عدّوا هذين الأمرين من الموانع المهمّة والشائعة أمام الوصول إلى الكمال المعنويّ والتقرّب إلى الله. بالطبع، هناك أمورٌ أخرى أيضًا مثل كثرة الطعام التي تمنع من وصول الإنسان إلى الكمال المعنويّ؛ ويمكن أن نقول بشأنها إنّه بسبب ما فيها من لذائذ أو منافع تجعل الإنسان يتوجّه إليها. في حين

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨٠ و٢٨١.

أنّ النوم بحدّ ذاته ليس فيه فائدة لدنيا الإنسان، اللّهم إلّا بذلك القدر الذي يرفع حاجته ويجدّد قوّته للقيام بوظائفه الواجبة. هذا بخلاف لذّة الطعام التي يُمكن أن توجد الدافع لدى الإنسان، وهذا ليس موجودًا في النوم، وإذا كان في النوم لذّة ما فذلك يرتبط بمقدّماته أو حين استيقاظ الإنسان. وأولئك الذين ينامون بسبب الكسل أو البطنة وكثرة الطعام فإنّهم لا يُحرمون من الكمالات المعنويّة والإنسانيّة فحسب، بل يُحرمون من القيام بمسؤوليّاتهم الدنيويّة.

كما أنّ من الأعمال التي يحتاج فيها الإنسان إلى استهلاك طاقة كبيرة هو الكلام. فالخطباء والمعلّمون، وخصوصًا أولئك الذين يُعانون من ضعفٍ جسمانيّ يلتفتون جيّدًا إلى هذا الموضوع، لأنّهم بعد إلقاء الكلمة أو التدريس يشعرون بوضوح بآثار التعب وفقدان الطاقة في أنفسهم. فالكلام الكثير يؤدّي إلى منع الإنسان من القيام بالأعمال المفيدة. بالطبع، إذا كان المقصود من الكلام التعليم والوعظ وإرشاد الآخرين، فإنّه لا يكون مذمومًا بل يُعدّ أمرًا ضروريًّا ولازمًا، لكن صرف الكلام الكثير لا يعود على الإنسان بأيّ نفعٍ دنيويّ ولا أخرويّ، لا بل من الممكن أن يُبتلى الإنسان بسبب ذلك بالكثير من الزلّات التي تؤدّي إلى ضرره في هذه الدنيا. وبسبب كثرة الكلام الذي يوجد تلك الكدورات والتوتّرات والتشنّجات أيضًا من الناحية المعنويّة، يُبتلى الإنسان ببعض الذنوب مثل الغيبة والبهتان وغيرها من المفاسد الأخرى. أولئك الذي اعتادوا على كثرة الكلام يستمتعون بهذا الفعل. إنّ ابتلاء الإنسان بمثل هذه العادة القبيحة يؤدّي به إلى المخاطرة بمصالحه الدنيويّة والأخرويّة. بناءً عليه، يجب على الإنسان أن يكون ملتفتًا ومراقبًا لكي لا يعتاد على كثرة النوم وكثرة الكلام لا سمح الله.

ووصيّة الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبد الله بن جندب أن يقلّل من النوم في الليل والكلام في النهار، ثمّ ينقل الإمام كلامًا عن أمّ النبيّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي تخاطب ابنها قائلةً بأنّ كثرة النوم تجعلك فقيرًا في النهار، أي سيأتي اليوم وأنت ستحتاج إلى أعمالك، لكن بسبب كثرة نومك فإنّك لا تقوم بتلك الأعمال وتبقى فقيرًا معدمًا. إذا لم يكن دافع الإنسان للنوم هو رفع التعب وتجديد القوّة، لا يكون قد قام بفعلٍ عقلائيّ، لأنّ هذا الفعل سيكون بمنزلة إهدار قسمٍ من عمره من دون سبب. فمن كان طالبًا للعمر الطويل، فإنّه بالنوم الكثير يكون في الحقيقة يعطّل قسمًا مهمًّا من حياته.

والعادة القبيحة الأخرى هي كثرة الكلام. فأولئك الذي اعتادوا على كثرة الكلام دون طائلٍ لا يمكنهم أن يسيطروا على أنفسهم بسهولة لأنّ السكوت بالنسبة لهم يُعدّ بمثابة السجن! يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ إنّه لا يوجد من بين أعضاء جسد الإنسان ما هو أقلّ شكرًا من العين واللسان. فالإنسان يقدّم الخدمات لكلّ عضوٍ من أعضاء جسده، وفي المقابل ينبغي لهذا العضو أن يقدّم له خدمةً. لكنّ العين واللسان ليسا كذلك، فإنّنا كلّما خدمناهما كانت خدماتهما لنا أقلّ. فالعين التي تنام كثيرًا كيف يمكنها أن تخدمنا؟ واللسان الذي يتكلّم كثيرًا ويضطر معه الإنسان لصرف المزيد من الطاقة كيف يمكنه أن يخدمنا؟ بالطبع، إن كان في هذا الفعل منفعةٌ لنا، كأن نستفيد من اللسان في العبادة والتكليف والوعظ فإنّ مثل هذا العمل لا يكون عبثيًّا بل يقدّم لنا أفضل المنافع.

ضرورة اجتناب الإفراط والتفريط في النوم

هنا، ينبغي الالتفات إلى عدّة نقاطٍ. أوّلًا، إنّ على الإنسان أن يجتنب الإفراط والتفريط. فمثلًا حين يسمع البعض تلك التوصيات بشأن التقليل من النوم أو حين يقرأون تلك القصص التي تبيّن كيفية تغلّب العظماء على النوم، فبينما يطبّقون هذه الأفكار، يعرّضون صحّتهم للخطر. فعلى أيّ حال، إنّ جسد الإنسان يحتاج إلى الراحة، وإنّ من نعم الله أنّه قد هيّأ للإنسان وسيلة النوم والاستراحة: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[1]. ومن المسلّم أنّ النوم هو من النعم الإلهيّة التي ينبغي الاستفادة منها بالنحو المطلوب. يوجد أشخاص مبتلون بعدم القدرة على النوم، ومن أجل حلّ هذه المشكلة أو للخلود للنوم بمقدارٍ قليل، فإنّهم يستخدمون الأدوية بصورة دائمة، ولهذا عوارض جانبيّة. بناءً عليه، إنّ القدرة على النوم الطبيعي يُعدّ نعمةً كبرى ولا ينبغي أن نفقدها؛ فالكلام هو حول نوم الإنسان أكثر من الحدّ المطلوب وعدم تعطيل أنشطته الحياتيّة من قبيل التفكير والعمل. بالطبع، إنّ حاجة كلّ إنسانٍ للنوم تختلف عن الآخر، وهذا يرتبط بحالته المزاجيّة ومرحلته العمريّة ونشاطاته وغير ذلك. ويمكن للأشخاص في العادة أن يعلموا مدى حاجتهم للنوم من خلال التجربة أو التوجيهات التي يقدّمها لهم الطبيب. بناءً عليه، فإنّ رعاية تلك الحدود الدنيا

---

(١) سورة النبأ، الآية ٩.

تُعدّ ضروريّةً ولازمةً، ولا ينبغي للإنسان أن يتسبّب بمقدّمات مرضه بسبب عدم الاعتناء بها وخصوصًا في آخر سنوات عمره.

النقطة الثانية، إنّ التوصية بقلّة النوم في الليل والتأكيد عليه، لا يعني كثرة النوم في النهار، لأنّ الإنسان ينام في الليالي بشكلٍ طبيعيّ وعليه أن يعمل أثناء النهار. بالطبع، هناك مناطق في الكرة الأرضيّة يكون فيها الليل على مدى عدّة أشهر، ثمّ ينقلب إلى نهار متواصل لعدّة أشهر، فالناس هناك ينظّمون برنامج حياتهم على هذا الأساس، فينامون ويعملون في الليل. لكن أكثر مناطق الكرة الأرضيّة يكون فيها نوع من التناوب بين الليل والنهار، مع اختلاف في مدّة كلّ منهما، وقد يتساويان. والناس في العادة ينامون في الليل ويعملون في النهار وذلك لأنّ النهار يكون مناسبًا للنشاط والسعي: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[1].

بناءً عليه، لا كلام في أنّ وقت النوم هو الليل، لكن ما هو مقدار النوم الذي ينبغي أن ينامه الإنسان هو ما أشرنا إليه سابقًا ويجب الالتفات إليه؛ أي أن نعلم أنّ مقدار حاجة كلّ إنسان إلى النوم تختلف عن الآخر، وهذا ما يرتبط بظروف حياته. صحيحٌ أنّ الليل هو للاستراحة والسكينة، لكن هذا لا يعني أن ننام من أوّل الليل إلى شروق الشمس. وبالإجمال، يُستفاد من تعاليم القرآن أنّ حاجة الإنسان إلى النوم ليست كثيرةً، بل يحتاج إلى مقدارٍ قليلٍ من الليل للاستراحة وتجديد القوّة. يقول الله للنبيّ الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. كما أنّ القرآن يصف المتّقين ويقول: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3]. فلو كان المقرّر أن ينام الإنسان ويستريح أكثر من نصف الليل لما ذكر القرآن مثل هذه القضايا. فمن لهجة القرآن وبيانه يظهر أنّ الإنسان لا يحتاج إلى النوم الطويل.

---

(١) سورة **المزّمّل**، الآية ٧.

(٢) سورة **المزّمّل**، الآية ٢.

(٣) سورة **الذاريات**، الآيتان ١٧ و١٨.

تنظيم النوم

لو عملنا بالتعاليم المبيّنة بالروايات، لأمكننا أن نؤمّن حاجة أبداننا إلى النوم بساعاتٍ أقلّ، ومن جملة ذلك أنّنا لو جعلنا القسم الأساسيّ لنومنا قبل منتصف الليل لكان ذلك مفيدًا أكثر ممّا لو جعلناه بعد منتصف الليل. لكن للأسف، إنّ ظروف الحياة في هذا العصر قد أصبحت بحيث إنّ نوم أكثر العوائل أصبح بعد منتصف الليل. ففي زمان النبيّ والأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي بعض الأزمنة الأخرى، التي كان يعمل فيها الناس وفق تعاليم الإسلام والأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كان برنامجهم كلّ ليلة على الشكل التالي: كانوا يصلّون أوّل المغيب، ثمّ يذهبون إلى المنزل ويتناولون العشاء، ثمّ يرجعون إلى المسجد مجدّدًا ويصلّون العشاء، ثمّ يرجعون إلى المنزل وينامون. بالطبع، كانت إمكانات الحياة وظروفها في ذلك الوقت تساعد على الالتزام بمثل هذا البرامج، فلم يكن هناك كهرباء وكانت ظلمة الليل إحدى أسباب النوم باكرًا.

بالإضافة إلى تأمين حاجة البدن الأساسيّة، فإنّ النوم أوّل الليل يجعل الإنسان يستيقظ من النوم وقت السحر بنشاط وينصرف للعبادة. طبيعيٌّ أنّ من يبقى مستيقظًا إلى منتصف الليل وهو يشاهد التلفزيون لا يمكنه أن يطبّق مثل هذا البرنامج لأنّ تعبه وكسله قد يمنعاه من القيام لصلاة الصبح. كان المسلمون في السابق يجبرون نقصان نومهم في الليل بنوم القيلولة في النهار. وكانت القيلولة تمتدّ لنصف ساعة قبل الظهر، فتبعث على النشاط وإزالة تعب النهار، ومن جانبٍ آخر تؤمّن للمسلمين الاستعداد اللازم لأداء صلاة الظهر بالمزيد من النشاط. هذا الأسلوب الحياتيّ، كان يُعين المسلمين على تحصيل أفضل النتائج والنشاط اللازم بواسطة النوم القليل ولكن في الوقت المناسب.

صحيحٌ أنّ ظروف الحياة اليوم قد اختلفت عن السابق، لكنّنا نستطيع من خلال البرنامج الصحيح والسعي المتواصل أن نستفيد من أوقات حياتنا إلى أقصى حدّ، وذلك بألّا نصرف أوقاتنا بمشاهدة الأفلام غير المفيدة أو البرامج المسليّة التي لا تنفع دنيانا أو آخرتنا بل قد تضرّ بهما. أولئك الذين يحتاجون إلى المطالعة، لا سيّما طلّاب العلوم الدينيّة، الذين يُطالعون أوّل الليل، من الأفضل أن يكلوا القسم الأساسيّ لمطلعاتهم إلى آخر الليل. فمثل هذا الأمر يؤدّي إلى الاستفادة القصوى

من المطالعة بسبب تفتّح الذهن واستعداده أكثر هذا أوّلًا، وثانيًا لأنّه يوفر للإنسان فرصةً مناسبة للقيام بنافلة الليل وقراءة القرآن.

النقطة الأخرى، إنّ مجرد قلّة النّوم في الليل ليس له موضوعيّة بذاته، بل الأمر يتعلّق بكيفيّة قضاء هذا الوقت. فالهدف من الاستيقاظ ليس الكلام والعبث واللغو والتوجّه إلى الشبهات، بل هو لأجل القيام بالعبادة الفرديّة وبناء الذات: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾[1]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[2] والمقام المحمود هي الشفاعة.

يُستنتج من الروايات والأحاديث أنّ النبيّ الأكرم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ كان ينام ويقوم في الليل عدّة مرّات. فمن المستحبّ للمؤمن بعد الاستيقاظ في منتصف الليل أن يصلّي أربع ركعات من النافلة ثمّ يستريح، ومن ثمّ ينهض مجدّدًا ويصلّي أربع ركعاتٍ أخرى ثمّ يستريح... بالطبع، إنّ هذا البرنامج هو لأولئك الذين يستطيعون أن يستفيدوا منه على النحو الأحسن بحيث لا يخدش بأعمالهم ومسؤوليّاتهم. فأولئك الذين يريدون أن يستفيدوا من دقائق عمرهم إلى الحدّ الأقصى يجب أن يخطّطوا لكيفيّة صرف هذا العمر وتقسيمه بالنحو الصحيح. أمّا أولئك الذين يريدون قضاء وقتهم بحيث لا يُدركون كيف مضى عمرهم، فلا يحتاجون إلى التخطيط والتنظيم لأنّ الشيطان يهيّئ الأرضيّة المناسبة لهؤلاء ليبقوا مشغولين بالتسلية ومشاهدة الأفلام واللّغو في الكلام.

بخلاف الليل، المختصّ ببناء الذات وأداء العبادات الفرديّة، يمكن للنهار أن يكون للعبادات الجماعيّة والأنشطة الاجتماعيّة من قبيل تحصيل العلم والتدريس والجهاد وإعانة المساكين. إنّ القيام ببعض الأعمال التي يحتاج إليها المجتمع، إلى جانب أنّها واجبٌ كفائيّ، فإنّها تُعدّ من أعظم العبادات إذا تمّ القيام بها بقصد القربى. بناءً عليه، يمكن القول إنّ الأعمال الاجتماعيّة غالبًا ما تكون في النهار، أمّا الأعمال الفرديّة والأمور التي يُستحبّ إخفاؤها، غالبًا ما تكون في الليل. لقد كان من برامج النبيّ الأكرم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ، وكذلك الإمام علي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وسائر الأئمّة

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٢٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، في الليل متابعة أمور الفقراء ومساعدتهم بحيث لا يُعرفون. والآن إذا كنّا عاجزين عن هذه الأمور في الليالي، فعلى الأقلّ يمكننا أن نجعل الإنفاق السرّي جزءًا من برامجنا النهاريّة.

مصيدتان للشيطان

إنّ الإحسان إلى الإخوان في الدين وخصوصًا الشيعة هو من الأمور التي أكّد الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عليها كثيرًا، وهناك رواياتٌ عديدة في هذا المجال. ففي تتمّة هذه الرواية الشريفة يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنَّ لِلشَّيْطَانِ مَصَائِدَ يَصْطَادُ بِهَا فَتَحَامَوْا شِبَاكَهُ وَمَصَائِدَه ، قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَمَّا مَصَائِدُهُ فَصَدٌّ عَنْ بِرِّ الْإِخْوَانِ، وَأَمَّا شِبَاكُهُ فَنَوْمٌ عَنْ قَضَاءِ الصَّلَوَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا الله، أَمَا إِنَّهُ مَا يُعْبَدُ الله بِمِثْلِ نَقْلِ الْأَقْدَامِ إِلَى بِرِّ الْإِخْوَانِ وَزِيَارَتِهِمْ، وَيْلٌ لِلسَّاهِينَ عَنِ الصَّلَوَاتِ، النَّائِمِينَ فِي الْخَلَوَاتِ، الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالله وَآيَاتِهِ فِي الْفَتَرَاتِ**»[1].

للشيطان مصائد عديدة يتصيّد بها الناس؛ ومن أكبر المصائد التي نصبها الشيطان للناس وأكثرها شموليّةً وتأثيرًا هي منع الإنسان من خدمة الآخرين، وخصوصًا إخوانه في الدين؛ والثاني أن يعمل ما يؤدّي إلى أن لا يقضي الإنسان صلاته في وقتها.

من الممكن أن يفكّر الإنسان أنّه بأدائه لواجباته وفرائضه الدينيّة يكون قد أدّى ما عليه من مسؤوليّات أداءً كاملًا، في حين أنّ تأمين الحاجات الماديّة والمعنويّة للإخوان في الإيمان، يُعدّ من الوظائف الدينيّة لكلّ مسلمٍ بمقدار استطاعته. وبالأخصّ أولئك الذين يقومون ببعض الوظائف الخاصّة مثل طلب العلم والتدريس والكتابة وأمثالها، فعليهم أن يعلموا أنّهم يتحمّلون مسؤوليّات تجاه الآخرين ومنهم عشيرتهم وجيرانهم وزملائهم في السكن وأصدقائهم، ولكن للأسف إنّ هذا النوع من الأشخاص وبسبب التركيز على نشاطٍ خاصّ قلّما يلتفتون إلى هذه النقطة ولذلك يغفلون عن القيام بهذه المسؤوليّة المهمّة. إنّ هذه الغفلة هي أوّل شيء يقوم الشيطان بإيجاد مقدّماته، وثانيًا يُلقي إلينا أنّه ليس لديكم ما يمكّنكم من مساعدة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨٠ و٢٨١.

الآخرين، وثالثًا يجعلنا غير مبالين تجاه حاجات الآخرين، سواء كان الآخرون بحاجة أم لا؛ أو نقول إنّنا تعبنا حتّى حصلنا على ما يمكّننا من تأمين حاجاتنا، فليذهب هؤلاء وليتعبوا مثلنا حتّى لا يكونوا محتاجين للآخرين. فالإمام هنا يقول إنّه لا يوجد من عبادة أفضل من أن يُعين الإنسان إخوانه في الدين ويساعدهم، وإن لم ينجح في تأمين حاجاتهم في هذا المجال. فليس الإحسان إلى الإخوة في الدِّين وخدمتهم وحده هو من أعلى العبادات، بل إنّ لقاء هؤلاء الإخوان، إن كان لله، فهو أيضًا من أفضل العبادات.

من المصائد الأخرى للشيطان هو منع الإنسان من الصلاة أوّل الوقت. فإنّ ما يتقدّم بالإنسان على طريق التقرّب إلى الله بصورةٍ مباشرة هو الصلاة. فالصلاة هي هذه الرابطة المباشرة بين العبد والخالق. ومن الأمور التي تؤدّي إلى عدم تمكّن الإنسان من الاستفادة من صلاته استفادة صحيحة هي كثرة النوم أو التأخّر فيه. فحين لا يكون الإنسان مهتمًّا بالصلاة أوّل الوقت، فإنّه سيكون غير مبالٍ تجاه قضايا الدين، وشيئًا فشيئًا يصل أمره إلى النظر بعين الاستهزاء إلى المناسك الدينيّة: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1]. فيكون في الواقع قد هيّأ بفعله هذا مقدّمات الكفر.

ومن أسباب عدم الاعتناء بالدين والاستهزاء به، تواجد الإنسان في بيئةٍ تكون فيها عوامل الانحراف والتوجّه إلى الدنيا كثيرةً بحيث قلّما يصل إلى سمعه صوت الآيات الإلهيّة أو المواعظ ويكون الوصول إلى الأستاذ والمربّي صعبًا. يقول **القرآن الكريم** بشأن أولئك الذين يبيعون عهد الله وأيمانهم بثمنٍ قليل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2].

نسأل الله تعالى أن يعرّفنا على تكليفنا ويبعدنا عن شرّ وساوس الشيطان.

---

(١) سورة **الروم**، الآية ١٠.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٧٧.



الدرس الثالث عشر

الحذر من بعض النقائص الأخلاقية

- المعنى اللغويّ والاصطلاحيّ للهمّ
- ارتباط مستوى تصديق البشر بهمّهم
- عقل الإنسان واستشراف المستقبل
- مسؤوليّات الإنسان تجاه إخوانه في الإيمان
- الحسد وآثاره الفرديّة والاجتماعيّة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ مَنْ أَصْبَحَ مَهْمُومًا لِسِوَى فَكَاكِ رَقَبَتِهِ فَقَدْ هَوَّنَ عَلَيْهِ الْجَلِيلَ وَرَغِبَ مِنْ رَبِّهِ فِي الرِّبْحِ الْحَقِيرِ، وَمَنْ غَشَّ أَخَاهُ وَحَقَّرَهُ وَنَاوَاهُ جَعَلَ اللَّهُ النَّارَ مَأْوَاهُ، وَمَنْ حَسَدَ مُؤْمِنًا انْمَاثَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»[1].

المعنى اللغويّ والاصطلاحيّ للهَمّ

إنّ مضمون الجملة الأولى هو أنّه لا يليق بالشخص المؤمن أن يكون مهمومًا وقلقًا تجاه أيّ شيءٍ سوى ما ينجيه من العذاب الإلهيّ، بل عليه أن يحصر كلّ همه بالعمل لكي ينجيه الله من الشقاء الأبديّ. لقد خُلق الناس، وجميع الموجودات ذات الشعور، بفطرة تسعى لإبعاد الألم والعذاب والتعب عن نفسها؛ وفي المقابل، لتجتذب الأمور المبهجة والمطلوبة. بناءً عليه، يمكن القول إنّ دافع حركة الكائنات ذات الشعور هو جلب المنفعة ودفع الضرر. ومن جانبٍ آخر، ما دام الإنسان يعاني من التعب والألم، فلن يكون له أيّ ميل للاتّجاه نحو أيّ أمر لذيذ يتوفّر له. فمثلًا إذا كان شخصٌ ما يعاني من أوجاعٍ شديدة مثل وجع الأسنان أو وجع الرأس، طالما أنّ هذا الألم لم يُعالج فإنّه لن يتّجه نحو لذّةٍ أخرى، لأنّ هذا الألم سيعذّبه بحيث يتوجّه همّه كلّه إلى إزالته. ولكن هل إنّه يعمل على هذا النحو فيما يتعلق بالأمور التي ستحدث في المستقبل؟ فإذا عرف هذا الشخص أنّه سيُبتلى

(1) بحار الأنوار، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨١.

بمصيبةٍ في الغدّ أو سيتعرّض إلى خطرٍ حقيقيّ، ومن ناحية ثانية يعلم أنّه يمكن أن يصل إليه النفع عن طريقٍ آخر، فمن أيٍّ من هذين الأمرين سيكون قلقه أكثر؟ افرضوا مثلًا أنّ هذا الشخص يعلم أنّه إذا بقيَ في هذه المدينة فسوف يُصاب بمرضٍ خطير بسبب انتشار وباءٍ فيه، ومن جانبٍ آخر، تنتظره، في هذه المدينة، معاملةٌ تجاريّة يمكن أن ينال منها أرباحًا طائلة، فما الذي سيرجّحه ها هنا؟ وهل سيكون مستعدًّا لأن يتحمّل مرضًا قاتلًا لأجل الوصول إلى تلك اللذّة؟

إنّ هذه القضيّة ترتبط بما يحمله هذا الشخص من تصديقٍ، أو ترتبط بمدى اعتقاد هذا الشخص بذاك الخطر، فإذا كان حقًّا وفي الصميم يعتقد بمثل هذا الخطر الشديد، فسوف يرجّح التخلّص منه على اجتذاب تلك المنفعة أو اللذّة المحتملة؛ ويُطلق على هذه الحالة في اللغة العربيّة لفظ «الهمّ» أي البحث عن الخلاص من ذاك الخطر الذي يمكن أن يهدّد هذا الشخص في المستقبل القريب. ويُقال لمن تحصل له هذه الحالة المهموم، وكذلك فإنّ مفردات المهمّ والأهميّة والاهتمام مشتقّة من هذه المادّة أيضًا. بناءً عليه، فإنّ كلّ من لديه معلومات وتوقّعات حول المستقبل وهو يحتمل بقوّة حصول أمور مزعجة أو خطِرة فإنّه سوف يهتمّ برفعها. ويُطلق على هذه الحالة التي يسعى فيها الإنسان لمنع وقوع مثل هذا الخطر الممكن في المستقبل كلمة «المهموميّة».

ارتباط مستوى تصديق البشر بهمّهم

هل يمكن لمن يعتقد بوجود جهنّم وما فيها من عذابات، والتي أشير إلى بعضها في القرآن والروايات، أن يكون غير مبالٍ تجاهها ولا يحمل أيّ همٍّ في نفسه؟ فلو اعتقد الإنسان بمثل هذه الحقيقة، وعلم أنّه قد يُبتلى بمثل هذا العذاب، فهل سيفكّر بما سيجنيه من تلك المعاملة التجاريّة في الغدّ أو في اختيار ما يعود عليه بلذّةٍ أكبر؟ فهذه القضيّة ترتبط بمستوى اعتقاد الشخص. وقد نُقلت رواية مشهورة بهذا الخصوص بهذا المضمون وهي «أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ فَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ مِنَ الأَنْصَارِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ يَخْفِقُ وَيَهْوِي رَأْسُهُ مُصْفَرٌّ لَوْنُهُ نَحِيفٌ جِسْمُهُ وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ؟ فَقَالَ: أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُوقِنًا، فَقَالَ: فَعَجِبَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ قَوْلِهِ وَقَالَ لَهُ: إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِك؟ قَالَ: إِنَّ

يَقِينِي يَا رَسُولَ الله هُوَ أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي فَعَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَابِ وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ لِذَلِكَ وأَنَا فِيهِمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا ويَتَعَارَفُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئِينَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ فِيهَا مُعَذَّبُونَ يَصْطَرِخُونَ، وَكَأَنِّي أَسْمَعُ الْآنَ زَفِيرَ النَّارِ يَعْزِفُونَ فِي مَسَامِعِي، قَالَ فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَآلِهِ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ الله قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ: الْزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، قَالَ فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ الله لِي أَنْ أُرْزَقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَآلِهِ بِذَلِكَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ صَلَّىٰللهُعَلَيْهِوَآلِهِ فَاسْتُشْهِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ»[1].

فحصول مثل هذا الاعتقاد عند الإنسان يوجد فيه مثل ذاك الهمّ الذي لا يمكنه معه أن يفكّر بأيّ شيءٍ آخر. وفي المقابل، هناك أفرادٌ لا يفكّرون أبدًا ولا يعيشون أيّ هاجسٍ تجاه الحساب في الغدّ أو الحصول على المغفرة والعفو عن ذنوبهم.

إنّ لجميع الناس، سوى المعصومين عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، حالات من التلوّث والكدورات والمعاصي، ولهذا ينبغي أن يكونوا مهتمّين بما يتهدّدهم من عذاب. فما دمنا مشغولين بأمور حياتنا وغير ملتفتين إلى المصير الخطر الذي ينتظرنا فإنّنا لن نفكّر بهذه القضايا. ولكن إذا حصلت لنا حالة من التوجّه واليقظة حين سماع آية من القرآن أو قراءة حديث أو الاستماع إلى كلام قائل إنّه يوجد خطرٌ أمامنا، ونهضنا من أجل مواجهة هذا الخطر ولم تشغلنا شؤون الحياة، فيكون هذا الهمّ قد وُجد فينا. أولئك الذين حصلوا على المراتب العليا لليقين لا يغفلون أبدًا ويتوجّهون دائمًا إلى هذه القضايا، وإن كان من الممكن أحيانًا أن يقلّ توجّههم بسبب الاشتغال بالمسؤوليّات الاجتماعيّة والتكاليف. لكن نحن بسبب ضعف إيماننا قد نرجّح المصالح الدنيويّة من قبيل المنصب والمنزل والثروة على التفكّر بشأن العذاب الأبديّ حتّى في حال التوجّه إلى مثل هذه القضايا.

بناءً عليه، يختلف الناس من حيث مراتب الإيمان والاعتقاد. نسمع في التاريخ

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحتان ١٧٤ و١٧٥.

عن أشخاص كانوا إذا ذكر النبيّ أو الإمام أو حتى الواعظ شيئًا عن عذاب الآخرة أمامهم فاضت دموعهم وارتعدت فرائصهم، لكنّ أكثرنا ليس كذلك. فمن الممكن أن يعظنا شخصٌ ما لعدّة دقائق أو ساعات لكن من دون أن يترك ذلك أيّ أثرٍ فينا، وحتى أثناء الاستماع إلى مثل هذه المواعظ قد نكون مشغولي البال بشأن قضايا حياتنا اليوميّة.

عقل الإنسان واستشراف المستقبل

يفترض عقل الإنسان في حال وُجِد خطرٌ جدّيٌّ أن يبحث عن المخرج. فنحن الذين نعيش القلق تجاه المخاطر المحتملة في أمور دنيانا البسيطة ونعمل على مواجهتها والتخلّص منها، لن يكون من العقلانيّة أن نكون غير مبالين تجاه القضايا التي تكون أهميّتها أكثر بكثير من أمور الدنيا، ولا نبحث لها عن حلّ. فأولئك الذين يسعون لاكتساب المنافع واللذائذ الماديّة هم في الواقع يسعون نحو تلك الأشياء التي ليس لها تلك الأهميّة مقابل المخاطر التي تحدق بهم، وهم يغفلون عن تلك الأمور التي يكون لها أهميّة فائقة بالنسبة لهم. وقد استعملت عبارة «**فَكَاكِ رقَبَتِه**» في هذه الرواية الشريفة وهي إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ من كانت رقبته مغلولة بالقيود فهو يريد أن يحرّر نفسه، لكنّ ثقل القيد حول رقبته يضغط ويُمسك بزمامه ليأخذ به نحو الشقاء. فكلّنا نعيش مثل هذا الخطر بسبب معاصينا وأخطائنا التي ارتكبناها وقد أصبحت رقابنا مغلولة ومقيّدة ويجب علينا أن نفكّها. فلو لم نكن بصدد التخلّص أو فكّ رقبتنا من هذا القيد، والتعبير البسيط هنا أنّنا لا نفكر بالنجاة من عذاب الآخرة، وأنّ همّنا منصرفٌ إلى شيءٍ آخر: «**مَنْ أَصْبَحَ مَهْمُومًا لِسِوَى فَكَاكِ رَقَبَتِهِ فَقَدْ هَوَّنَ عَلَيْهِ الْجَلِيلَ**»، فمن كان في الصباح غير مهمومٍ تجاه النجاة من عذاب الآخرة فقد استصغر أمرًا عظيمًا واعتبره أمرًا صغيرًا مع أنّه قضيّة كبيرة. «**وَرَغِبَ مِنْ رَبِّهِ فِي الْوَتْحِ الْحَقِيرِ**»، هو لا يطلب سوى الربح القليل من الله. فمن المسلّم أنّ الإنسان حين لا يكون مهتمًّا بشأن العذاب الأبديّ فإنّ قلبه سينشغل بأمور الدنيا التي هي قضايا حقيرة وقليلة الشأن. فمن لم يتوجّه إلى ذلك العذاب الأبديّ لن يهتمّ بالنجاة منه.

إنّ عقلنا يقتضي أن نصرف همّنا للخلاص والنجاة من مخاطر الآخرة، بمقدار ما لدينا من إيمان بالآخرة والمخاطر الأخرويّة، لأنّ جميع مشاكل الحياة هي لا شيء

مقابل ذلك العذاب الأبديّ. إنّ مشاكل الحياة تسهل بنظرنا حين نعلم بوجود ما هو أصعب منها وهو العذاب والشقاء في الآخرة. بالطبع، كلّما كان إيمان الإنسان أقوى سيكون اهتمامه بهذا النوع من القضايا أكبر. بناءً عليه، ينبغي أن يكون توجّه المؤمنين إلى حياتهم الأخرويّة أشدّ من توجّههم إلى حياتهم الدنيويّة والفرديّة.

مسؤوليّات الإنسان تجاه إخوانه في الإيمان

للإنسان في الحياة الاجتماعيّة تكاليف تجاه إخوانه في الإيمان، فهو مكلّف بإعانتهم لرفع حوائجهم، ومن جانبٍ آخر هو مسؤولٌ عن الإحسان إليهم والوفاء لهم ومودّتهم واجتناب خيانتهم. فكيف يمكن للإنسان أن يخدع أخاه في الإيمان أو يخونه فيسلبه ماله أو يضرّه؟! فمن كان بصدد خداع أخيه المؤمن واحتقاره والتقليل من شأنه، يكون بمثابة محاربته ومشاجرته. فمن كان يريد خداع الطرف المقابل في المعاملة التجاريّة يكون في الواقع ممّن قصد محاربته. والشكل الآخر لهذه المعاداة والمحاربة هي سعي الإنسان لخلع شخصٍ من مقامه ليأتي مكانه؛ فهؤلاء مستحقّون للعذاب الإلهيّ ومثواهم جهنّم: «**وَمَنْ غَشَّ أَخَاهُ وَحَقَّرَهُ وَنَاوَاهُ جَعَلَ اللهُ النَّارَ مَأْوَاهُ**».

الحسد وآثاره الفرديّة والاجتماعيّة

القضيّة الأهمّ التي تُطرح ها هنا هي ذات صبغة عامّة شاملة هي الحسد: «**وَمَنْ حَسَدَ مُؤْمِنًا انْمَاثَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ كَمَا يَنْمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ**». فالحسد يزيل الإيمان كما يختفي الملح في الماء. وللأسف، فإنّ أكثر الناس مبتلون بهذه الصفة السيّئة تقريبًا. فنجد أنّ الطبيعة الإنسانيّة، وخصوصًا في مرحلة الطفولة، تكون متطابقة مع الحسد بحيث إنّ هذا الإنسان حين يشاهد شخصًا آخر يتنعّم بنعمةٍ ما فإنّه يحسده. فلو لم ينهض الإنسان لتهذيب نفسه وإصلاحها فإنّ هذه الصفة ستتجذّر في قلبه ولن تتركه حتّى تُلقي به في نار جهنّم. فهل يحسد الإنسان الذي يؤمن بالله من كان صاحب نعمةٍ، سواءٌ كانت نعمة تكوينيّة مثل الجمال والذكاء، أو نعمة اكتسابيّة مثل الثروة والمنصب، فقط لأنّه محرومٌ منها؟ فالحسد هو أن يقول هذا الشخص لماذا ينبغي أن يكون هو أجمل منّي، ولماذا ينبغي أن يفهم أكثر منّي، ولماذا ينبغي أن يكون ماله أكثر من مالي. وفي الواقع، فإنّ الحسود يريد بفعله هذا أن يقول: لماذا أعطاه الله هذه النعم ولم يعطني إيّاها!!

إنّ حسد الآخرين على ما أتاهم الله من نعم يعود في الواقع إلى الاعتراض على فعل الله. فالذي لا يريد أن يكون ذكاء الآخرين أكثر من ذكائه، أو الذي يقول لماذا خلق الله ذاك الشخص الآخر أجمل منّي لعلّ هذه الحالة موجودة في النساء أكثر فهو في الواقع يعترض على الله. وفيما يتعلّق بالنعم الاكتسابيّة يكون الأمر على هذا النحو. فلو حسد الإنسان غيره بسبب المال والثروة فهو في الواقع يكون من المعترضين على فعل الله، فهذه المنزلة أو الثروة قد تحقّقت بسبب سعي هذا الإنسان وجهده لكنّ هذا الفعل لم يكن خارجًا عن التدبير الإلهيّ، ونحن نؤمن بأنّ الله قد هيّأ أسباب ذلك. فهل ينسجم الاعتراض على فعل الله مع الإيمان بالله؟ فالإيمان بالله يعني اعتبار الله حكيمًا واعتبار فعله مطابقًا للحكمة. فهو الذي يمكنه أن يتصرّف في ملكه كما يحلو له. بالطبع، إنّ كلّ ما يفعله الله في العالم يكون على أساس المصلحة والحكمة، فالاعتراض على فعل الله يعدّ بمنزلة عدم قبول حكمته والذي إذا زاد عن هذا الحدّ فإنّه يعدّ نوعًا من الشرك. إنّ من يستطيع أن يقول إنّني أعترض على ذلك، هو من له المُلك، وحيث إنّنا لا نملك شيئًا فلا نستطيع ولا ينبغي أن نعترض على من بيده كلّ شيء.

وللحسد مفاسدٌ باطنيّة كثيرة حيث إنّ عدم الاعتناء بها يستتبع الكثير من المخاطر. فلو كانت مشاهدة النعم الماديّة والمعنويّة عند الآخرين سببًا لإيجاد أدنى درجات الحسد في نفوسنا، ينبغي أن نستشعر هذا الخطر بسرعة ونتوجّه إلى أنّ المصلحة عند الله كانت تقتضي أن يعطيه الله تلك النعم. ونحن أيضًا نستطيع من خلال سعينا أن نطلب من الله أن يهبنا تلك النعم لا أن ننزعج من مشاهدة النعم في الآخرين. فمثل هذا الانزعاج والحسد إذا استمرّ فسوف يؤدّي إلى الكفر لا سمح الله. وقد كان أساس كفر إبليس هو حسده. نستطيع أن نرجع الكثير من الفتن الكبرى في العالم والتي قد تجرّ إلى حروب دمويّة وتزهق أرواح آلاف البشر إلى الحسد، الذي كان يعتمر في قلب شخصٍ ما. وفي بلدنا لدينا أشخاص ممّن سُجنوا في عهد النظام البائد وعذّبوا واعتبروا من الشخصيّات المعروفة في بدايات الثورة ونالوا موقعيّات جيّدة، لكنّهم بسبب حسدهم لبعض الأشخاص انحرفوا حتّى وصل أمرهم إلى أن وقفوا بوجه الإمام. إنّ الحسد يضعنا على هذا المسار الخطر. بناءً عليه، من المناسب أنّنا إذا شعرنا في اللحظة الأولى بنوع من الحسد تجاه صاحب النعمة أن نُسارع للوقوف بوجهها وأن نسأل الله النجاة من هذه النار المحرقة المهلكة.



الدرس الرابع عشر

الثواب الكبير للشيعة الحقيقيّين

- الدافع والإخلاص ملاك العمل
- آثار عدم الاعتناء بحقوق الإخوان المؤمنين
- ضرورة الالتفات إلى ظروف تحقّق الوعود

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ الْمَاشِي فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَالسَّاعِي بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَاضِي حَاجَتِهِ كَالْمُتَشَحِّطِ بِدَمِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ، وَمَا عَذَّبَ اللهُ أُمَّةً إِلَّا عِنْدَ اسْتِهَانَتِهِمْ بِحُقُوقِ فُقَرَاءِ إِخْوَانِهِمْ. يَا ابْنَ جُنْدَبٍ بَلِّغْ مَعَاشِرَ شِيعَتِنَا وَقُلْ لَهُمْ لَا تَذْهَبَنَّ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ، فَوَاللهِ لَا تُنَالُ وَلَايَتُنَا إِلَّا بِالْوَرَعِ وَالاجْتِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَمُوَاسَاةِ الْإِخْوَانِ فِي اللهِ، وَلَيْسَ مِنْ شِيعَتِنَا مَنْ يَظْلِمُ النَّاس»[1].

الدافع والإخلاص ملاك العمل

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من الرواية الشريفة أنّ الذي يمشي في حاجة أخيه المؤمن يكون كالذي يسعى بين الصفا والمروة، ولو أنّ أحدًا قضى حاجة أخيه المؤمن سيكون له ثواب من جاهد في سبيل الله في بدرٍ وأُحد وتشحّط بدمه.

ويوجد في الروايات الأخرى ما يُشبه هذه التعابير؛ هناك تشبيهاتٌ عجيبة وثوابٌ كبير جدًّا ذُكر لمن يقوم بمثل هذه الأعمال التي تُعدّ بالظاهر صغيرةً. بالطبع، قد يُساء فهم بعض هذه التعابير الموجودة في الروايات أيضًا. ومن جانبٍ، من الممكن أن يكون هذا النوع من التعبير ثقيلًا على بعض الأشخاص ويتذرّعون

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨١.

بعدم صحّة سند هذا النوع من الروايات لأجل رفضها بالكامل. ومن جانبٍ آخر، هناك من يظنّ أنّ من يؤدّي أيّ عملٍ بأيّ نحوٍ فسوف ينال كلّ هذا الثواب. وكِلا الاستنتاجين خاطئٌ وفيهما إفراطٌ وتفريط.

لعلّ بعض العبادات لا تظهر على أنّها ذات أهمّيّة، لكنّها تكون في الواقع عظيمة الأهمّيّة والقيمة ويكون الله تعالى قد جعل لها أجرًا كبيرًا. فأجر وثواب العبادات لا يرتبط فقط بكمّيتها، بل يكون الدافع والنيّة والسعي والإخلاص ملاكًا لعمل الإنسان، قبل أيّ شيء. هذا النحو من التشبيهات في المقام الذي يُقال فيه مثلًا إنّ خدمة الأخ المؤمن ممكن أن يتمّ القيام بها بحيث يكون لها أجر شهيدٍ، يعني أنّه يوجد في هذا العمل مثل هذه الإمكانيّة والاستعداد، لكن ليس كلّ من يقوم به سينال مثل هذا الثواب مهما كانت نيّته وظروفه. فعلى سبيل المثال، لو أنّ شخصًا فائق الثراء تبرّع بعدّة دراهم لشخصٍ محتاج، فلا يكون له ثواب الشهادة في معركة بدر وأُحد، لكنّ الذي يعاني في تأمين حاجاته، لو أنّه غضّ النظر عن حاجات أسرته وأنفق بما يقدر عليه من المال مهما كان قليلًا لقضاء حاجة أخيه المؤمن، فإنّه سينال مثل ذلك الثواب.

لقد شاهدنا في حياتنا الدراسيّة في الحوزة مثل هذه الموارد، حيث كان هناك الكثير من النماذج التي قد تبدو بنظر البعض مثل الأساطير. كان بعض الطلبة، رغم حاجتهم الماسّة للحقوق الشهريّة التي كانت تُعطى لهم والتي كانت بالكاد تساوي شيئًا في ذلك الزمان، إذا رأوا شخصًا أكثر احتياجًا من أنفسهم، ينفقون حقوقهم الشهريّة عليه من دون أن يدعوه يشعر بذلك، مع حفظ كرامته وعزّة نفسه. صحيحٌ أنّ هذا المال لم يكن من ناحية الكمّ شيئًا يُذكر، لكنّه كان، بالنسبة لمن كانت لهم حاجة به، فائق الأهمّيّة وعظيم القيمة، وربّما كان صاحبه يبيت ليلته جائعًا من أجل أن يساعد زميله.

إنّ قيمة الإيثار حين يقدّم الإنسان غيره على نفسه من دون أن يكون ذلك لأغراضٍ ماديّة ودنيويّة، بل لأنّ الله تعالى يحبّ ذلك هو في الواقع لا يقلّ عن بعض أنواع الجهاد: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]. بناءً عليه، لا

---

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

ينبغي أن نتعجّب من وجود مثل هذا الثواب الذي يضاهي ثواب الشهادة في بدرٍ وأُحد على مساعدة الأخ المؤمن، وذلك لأنّ التقييم الدقيق للإيثار الذي يقوم به الإنسان يدلّنا على أنّ قيمة هذا العمل لا تقلّ عن الإيثار الذي أظهره شهداء معارك بدر وأُحد. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الفضل الإلهيّ هو فوق الأجر والثواب الذي يستحقّه الإنسان، فإنّ الله قد جعل على بعض الأعمال من الثواب المضاعف حيث يقول: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، و﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾[2]. بناءً عليه، فإنّ تحقّق مثل هذه العبارات التي وردت في مثل هذه الروايات يرتبط بالظروف الخاصّة. يقول الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحديث المشهور بسلسلة الذهب وهو يخاطب أهل نيشابور: «كلمة لَا إِلَهَ إِلَّا الله حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي... بِشُرُوطِهَا وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا»[3]. أجل إنّ لكلمة «لا إله إلاّ الله» مثل هذه القدرة التي تحفظ الإنسان من عذاب الله وتصونه ولكن بشرطها وشروطها. وإنّ تولّي أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من شروط تأثير هذه الكلمة. بعبارةٍ أخرى، إنّ لهذه الكلمة مثل هذا الاقتضاء، لكنّها لا تؤثّر بشكلٍ مطلق بل لها شروط. ولهذه القضايا مصاديق في الأمور الطبيعيّة أيضًا، وصحيحٌ أنّ النار تُحرق، لكنّها تكون كذلك مع أيّ شيءٍ وفي كلّ الأحوال والظروف، بل ينبغي أن يكون للجسم المقابل قابليّة الاحتراق وينبغي أن يكون هناك مقدارٌ من الأوكسجين. فلو قيل إنّ لهذا الفعل مثل هذا التأثير، لا يعني ذلك أنّ تأثيره يكون مطلقًا، بل إنّ ذلك يتحقّق في الظروف الخاصّة.

آثار عدم الاعتناء بحقوق الإخوان المؤمنين

يقوم الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تتمّة الحديث، من خلال الإشارة إلى الجهة السلبيّة للقضيّة، بتبيان سنّة إلهيّة. فهو يقول إنّ الكثير من الأقوام الماضين كانوا يستحقّون العذاب الإلهيّ، لكنّهم كانوا في أمانٍ من هذا العذاب ما داموا يراعون حقوق فقرائهم، أمّا حين كانوا يغفلون عن أداء حقوق المساكين والفقراء ويرتكبون

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦١.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٠.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٩، الصفحة ١٢٣.

هذه المعصية، كان ينزل بهم العذاب الإلهيّ. والنموذج المعروف جدًّا في هذا المجال هو تأخير تعذيب فرعون والفراعنة من قبل الله تعالى عدّة سنوات. فطالما كان هناك عددٌ كبيرٌ من الفقراء والمعدمين يأكلون على مائدة فرعون ويشبعون، لم ينزل الله عذابه على أولئك.

بناءً عليه، إنّ عدم الاعتناء بحقوق الإخوان المؤمنين يستتبع العذاب الإلهيّ سواءٌ كان ذلك في هذه الدنيا أو في الآخرة. إنّ العذاب الاجتماعيّ يختصّ بالمجتمع الذي لا يراعي أبناؤه حقوق المحرومين والمستضعفين. وقد يكون من أسباب حدوث السيول والزلازل وبعض المصائب العجيبة والغريبة أنّ تلك المجتمعات التي ابتليت بهذه الكوارث لا تُعطي قيمةً للفقراء والمعدمين، ولا يكون للأثرياء فيها من همّ سوى زيادة ثروتهم وسلطتهم ولو كان ذلك على حساب المحرومين في هذا المجتمع وزيادة حرمانهم. ويمكن أن يوضّح لنا الالتفات إلى هذه النقاط الإجابة على الكثير من الأسئلة التي تبرز عندنا، ومن هذه الأسئلة: لماذا لا يعذّب الله المستحقّين للعقاب، ولماذا ينزل العذاب الإلهيّ على بعض الناس بسرعة؟

ضرورة الالتفات إلى ظروف تحقّق الوعود الإلهيّة

والنقطة المهمّة التي أشار إليها الإمام في هذه الرواية وحذّر فيها الشيعة هي أن لا ينخدعوا بخدع الشيطان بسبب الغفلة عن ظروف تحقّق الوعود الإلهيّة فيحصل الاستغلال السيّئ لهذه القضيّة. وهناك نماذج كثيرة في التاريخ حول سوء استنتاج الناس وتلقّيهم الخاطئ للوعود الإلهيّة. على سبيل المثال، حين كان بنو إسرائيل في قبضة الفراعنة، كان الله تعالى يعدهم عبر أنبيائه أنّهم إذا آمنوا فسوف ينجون وينتصرون على أعدائهم. ويوجد الكثير من الآيات القرآنيّة التي ذكرت مجموعة من التفضيلات والامتيازات الخاصّة لبني إسرائيل (أبناء النبيّ يعقوب عَلَيهِ السَّلَامُ)، ومنها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، أو هذه الآية: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]. فقد كان بنو إسرائيل

(١) سورة البقرة، الآية ٤٧.

(٢) سورة الجاثية، الآية ١٦.

يعتقدون أنّ الله قد ضمن لهم العزّة والسعادة الدنيويّة والنجاة من العذاب في الآخرة: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[1]، بل وصل بهم الأمر إلى أن اعتبروا أنفسهم أبناء الله وأحبّاءه: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[2]. واليوم، نجد الصهاينة يدّعون أنّهم من نسل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم شعب الله المختار، وبما أنّ جميع الناس قد خُلقوا أتباعًا لهم فينبغي أن يطيعوهم ويرضخوا لهم!

وقد كان هناك بعض المسلمين في زمن الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ معروفين باسم المُرجئة وكانوا يحملون مثل هذه العقائد، أي إنّهم كانوا يقولون إنّ مجرّد كون الإنسان مؤمنًا سينجيه من عذاب الآخرة، وإن ارتكب أكبر الكبائر. فهذه الطائفة من المسلمين كانت بهذه العقائد تخدع نفسها في الحقيقة.

وللأسف، هناك بين الشيعة أيضًا أشخاصٌ يحملون مثل هذه الأوهام والعقائد الإفراطيّة لمجرّد أنّهم يسمعون أو يشاهدون رواياتٍ ذكرت شأن ومنزلة الأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وما يكون لمحبّيهم من أمانٍ من عذاب الآخرة، يظنّون أنّهم بمحبّتهم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سوف يُغفر لهم مهما ارتكبوا من كبائر! وقد شاعت مثل هذه العقائد في زمن الإمام الباقر والإمام الصادق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بين الشيعة. ومن الأعمال التي قام بها أئمّتنا وخصوصًا منذ زمن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ وما بعده تجاه هذا النوع من الأفكار المنحرفة، هو السعي للقضاء على هذه العقائد الخاطئة بين الشيعة. وقد أشار الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا الموضوع ضمن روايةٍ وقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ قَرَابَةٌ»[3].

ويقول الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في روايةٍ أخرى: «مَنْ كَانَ لله مُطِيعًا فَهُوَ لَنَا وَلِيٌّ، وَمَنْ كَانَ لله عَاصِيًا فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ»[4].

إنّ فلسفة الدعوة إلى محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تكون سببًا لأن يتجرّأ الناس على المعاصي ويستهينوا بمعصيّة الله، بل إنّ هذه الدعوة هي السبيل إلى

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٨٠.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ١٨.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، الجزء ٦٧، الصفحة ٩٨.

القيام بكلّ ما يرضي الله، وذلك لأنّ طريق أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ ليس سوى صراط الله. بناءً عليه، فإنّ الذين يدّعون محبّة أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ، لا ينبغي أن يقوموا بتلك الأعمال الفاقدة لرضا الله. ويؤكّد الإمام الباقر عَلَيهِ السَّلَامُ في هذه الرواية التي أشرنا إليها سابقًا على هذا الأمر وهو أنّ محبّة أهل البيت ينبغي أن تكون ذات جذورٍ وعمقٍ لكي تؤثّر في عمل الإنسان وسلوكه. فلو كان مجرّد قول «أُحبُّ عليًّا» كافيًا لنجاة الإنسان من عذاب الآخرة، لكان قول «أُحبُّ محمّدًا» مؤثّرًا في هذا المجال بطريق أولى، وذلك لأنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ أفضل من الإمام عليّ عَلَيهِ السَّلَامُ.

يطلب الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ، من عبد الله بن جندب وهو يخاطبه، بأن يوصل هذا الأمر إلى كلّ شيعتهم لكي لا يتّجهوا يمينًا وشمالًا ويضيّعوا الطريق، لأنّ الوصول إلى ولايتهم لن يتحقّق إلّا في اجتناب المعصية والجدّ في أداء التكاليف. ثمّ يقول الإمام عَلَيهِ السَّلَامُ أنّ الشرط الآخر للوصول إلى ولايتهم قضاء حاجة الإخوة المؤمنين. ومثلما أنّ الإنسان يسعى في حياته لتأمين معاشه، ينبغي عليه أن يسعى لقضاء حاجة إخوانه المؤمنين ويعتبر أنّ مشاكلهم هي مشاكله وعليه أن يسعى لحلّها. كما أنّ الذي يظلم الآخرين ليس من شيعة أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ، لأنّ للتشيّع الواقعيّ شروطٌ خاصّة، ولا يكفي مجرّد إظهار المحبّة لهم، إنشاد الأشعار في مدحهم والمشاركة في عزائهم وغير ذلك. بالطبع، إنّ وجود مرتبة ضعيفة من محبّة أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ والتي حُرم منها الكثيرون هي جوهرةٌ نفيسة لا شكّ بأنّ لها آثار، لكنّ التشيّع الواقعيّ لا يُختصر بمجرّد محبّة أهل البيت عَلَيهِمُ السَّلَامُ.



الدرس الخامس عشر

الشيعيّ في نظر الإمام الصادق (ع)

- الاختلاف بين الشيعيّ والمحبّ
- علامات الشيعة
- العدد القليل للشيعة الحقيقيّين
- عدم الغفلة عن الأنشطة الاجتماعيّة
- ضرورة حفظ الهويّة الشيعيّة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنَّمَا شِيعَتُنَا يُعْرَفُونَ بِخِصَالٍ شَتَّى، بِالسَّخَاءِ وَالْبَذْلِ لِلإِخْوَانِ وَبِأَنْ يُصَلُّوا الْخَمْسِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا، شِيعَتُنَا لَا يَهِرُّونَ هَرِيرَ الْكَلْبِ وَلَا يَطْمَعُونَ طَمَعَ الْغُرَابِ وَلَا يُجَاوِرُونَ لَنَا عَدُوًّا وَلَا يَسْأَلُونَ لَنَا مُبْغِضًا وَلَوْ مَاتُوا جُوعًا، شِيعَتُنَا لَا يَأْكُلُونَ الْجِرِّيَّ وَلَا يَمْسَحُونَ عَلَى الْخُفَّيْنِ وَيُحَافِظُونَ عَلَى الزَّوَالِ وَلا يَشْرَبُونَ مُسْكِرًا، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَأَيْنَ أَطْلُبُهُمْ؟ قَالَ (ع): عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَأَطْرَافِ الْمُدُنِ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَدِينَةً فَسَلْ عَمَّنْ لَا يُجَاوِرُهُمْ وَلَا يُجَاوِرُونَهُ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ حَبِيبُ النَّجَّارِ وَحْدَهُ»[1].

الاختلاف بين الشيعيّ والمحبّ

للشيعة الحقيقيّين خصائص وصفات وعلامات خاصّة يُعرفون بها. إنّ مجرّد وجود محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قلب المرء لا يكفي ليكون شيعيًّا لأنّ الكثير من الناس يدّعون محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لكنّهم ليسوا شيعة لهم على الحقيقة. فلكي نكون من الشيعة الواقعيّين وأتباعًا للأئمّة الأطهار عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يجب أن نجعلهم قدوتنا وأسوتنا في القول والسلوك والعبادة ونتمسّك بسيرتهم العمليّة. لقد وردت كلمة الشيعة في القرآن الكريم، فبعد ذكر قصّة النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[2]، أي إنّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سلك الطريق نفسه الذي

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨١ و٢٨٢.

(٢) سورة **الصافات**، الآية ٨٣.

سلكه نوحٌ نبيّ الله.

بناءً عليه، فإنّ محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هي غير كون الإنسان شيعيًّا حقيقيًّا، وينبغي أن نفكّك بين هاتين المقولتين. ولأجل أن يتّضح هذا الموضوع أكثر ننقل روايةً في هذا المجال: بعد أن حصلت قضيّة ولاية العهد للإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ وجاء هذا الإمام إلى مدينة «مرو»، وفد عليه الناس جماعاتٍ جماعات للتهنئة، لأنّ مثل هذه الحادثة كانت بنظر الناس انتصارًا كبيرًا لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وبعد مدّة من استقرار الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وإقامته في «مرو»، جاءت جماعة من الشيعة لزيارته؛ فسألهم حاجب الإمام: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ فقالوا: نحن جماعةٌ من شيعة الإمام ونطلب الإذن بالتشرّف بمحضره؛ فقال الحاجب: انتظروا حتّى آخذ لكم الإذن. ثمّ جاء إلى الإمام وقال: إنّ هناك جماعة قد جاؤوا وقالوا إنّهم من شيعتك وهم يريدون زيارتك، لكنّ الإمام لم يجز لهم، فأوصل هذا الحاجب جواب الإمام الرافض إلى هؤلاء.

فذهبوا، وفي اليوم التالي جاؤوا وطلبوا الإذن بالزيارة، لكنّ الإمام لم يجز لهم ولم يسمح بلقائهم، وهكذا تكرّر الأمر في اليوم الثالث، فتأثّر هؤلاء كثيرًا وأدركوا أنّ الأمر متعمّدٌ وأنّ الإمام لا يريد لقاءهم. فقام بعضهم وهم يبكون يطلبون من الحاجب أن يسأل الإمام عن الذنب الذي ارتكبوه وجعله لا يأذن بلقائهم، فأوصل الحاجب إلى الإمام ذلك، فقال الإمام: أيّ ذنبٍ أكبر من أن يكذبوا، فهم يقولون إنّنا شيعة في حين أنّ صفات الشيعة غير موجودة فيهم، فشيعتنا الحقيقيّين هم أمثال سلمان وأبي ذرّ. فرجع الحاجب وأوصل لهم جواب الإمام، فقالوا: إنّنا شيعة حقًّا ونحبّ الإمام ولا نكذب، فقال الإمام لهذا الحاجب: قلْ لهم إنّكم من محبّينا لكنّكم لستم من شيعتنا، فقال هؤلاء: أجل نحن نحبّ أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ونحبّ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال الإمام لهم: الآن قد صدقتم ويمكنكم أن تدخلوا.

لعلّنا لو كنّا مكان هؤلاء وحصل معنا هذا الأمر ثلاث مرّات ورفض الإمام لقاءنا لتعبنا ورجعنا، ولكن هؤلاء كانوا من المحبّين العاشقين فوقفوا وصبروا حتّى يعرفوا سرّ القضيّة. لقد قام الإمام بتربية هؤلاء بهذه الطريقة وأفهمهم أنّ مجرّد وجود محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في القلب لا يكفي، بل إنّ هذه المحبّة هي الخطوة الأولى ولا ينبغي الاكتفاء بها، وعليهم أن ينالوا تلك المراتب التي تكون للشيعة في ظلّ

انتمائهم لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي أكثر ممّا ذكروا. فلو تلطّف الله تعالى وجعل محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قلوبنا، فينبغي أن نستفيد منها جيّدًا ولا نتوقّف عند الدرجة الأولى من هذا السلّم.

علامات الشيعة

١. بسط اليد تجاه الإخوة المؤمنين

يذكر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية الشريفة أوّل صفةٍ للشيعة وهي الجود وعدم البخل ومسك اليد تجاه سائر الشيعة. فكما يهتمّ الإنسان بأهله وعياله، يجب أن يستشعر المسؤوليّة تجاه إخوانه المؤمنين. وقد جاء بشأن حقوق الإخوان في أصول الكافي: لو كان لأحدٍ غلام يتولّى أمور بيته وكان أخوه المؤمن لا يمتلك مثل هذا الغلام، فإنّه يكون مكلّفًا تحت عنوان حقّ الأخ أن يرسل غلامه إلى أخيه ليساعده في قضاء حاجاته. وذُكر في موضعٍ آخر أنّ إرسال الغلام حيث كان امتلاك الغلمان في ذلك الزمان رائجًا وشائعًا إلى بيت الأخ في الدين لأجل قضاء حاجاته من وظائف المؤمنين الذين يتمتّعون بهذه النعمة. ومن المسلّم أنّ قضاء حاجة الأخ المؤمن أو الذهاب إلى ملاقاته وعيادته إذا مرض أو إذا رجع من السفر وغيرها، كلّ ذلك يُعدّ من أولى مسؤوليّات الشيعة. بالطبع، إنّ أداء مثل هذا النوع من التعاليم الأخلاقيّة لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صعبٌ جدًّا. فافرضوا مثلًا أنكم تمتلكون مجموعة من الكتب في بيتكم ولا تحتاجون إليها كثيرًا، ومن جانبٍ آخر فإنّ صديقكم قد وقع في ضائقةٍ كبرى وبأمسّ الحاجة إلى مقدارٍ من المال، فلا شكّ أنكم إذا ذهبتم بهذه الكتب وبعتموها لأجل تأمين حاجة هذا الأخ المؤمن لن يكون الأمر سهلًا.

٢. صلاة إحدى وخمسين ركعة

أمّا فيما يتعلّق بالعبوديّة لله فلا بدّ من وجود علامات وخصائص في الشيعة. فإنّ سبب حبّنا لأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو أنّهم كانوا من خواصّ عباد الله؛ أيّ إنّهم كانوا السابقين في العبوديّة والتقرّب إلى الله. بناءً عليه، فالذي يعتبر نفسه من شيعتهم يجب أن تظهر عليه علامات العبوديّة والارتباط بالله أكثر من غيره.

ومن علامات الشيعة أنّهم لا يتركون صلاة ٥١ ركعة في الليل والنهار (١٧ ركعة واجبة وضعفاها من النوافل): «وَبِأَنْ يُصَلُّوا الْخَمْسِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا». والتعبير بخمسين

هو من باب التغليب أي إنّهم يعبّرون عن واحد وخمسين ركعة بصلاة خمسين ركعة.

٣ و٤. عدم الهرير والطمع

معروفٌ أنّ العرب ينسبون بعض الصفات القبيحة إلى الحيوانات. وبالطبع، في ثقافتنا أيضًا يوجد مثل هذه القضيّة. فحين يريدون أن يجسّموا قبح عمل فإنّهم ينسبون تلك الصفة إلى حيوان. فمن المعروف عن الكلب أنّه يهجم، فحين يرى شخصًا مجهولًا يهجم عليه. مثل هذه الحالة الكلبيّة تدلّ على صفة الافتراس. ولا شكّ بأنّ النّاس يدرّبون كلاب الحراسة ليستفيدوا من هذه الخصلة الموجودة في هذا الحيوان، حتّى يتعامل مع الأشخاص الغرباء بهذه الطريقة. كذلك من المعروف عن الغراب أنّه يتّصف بالطمع الكثير، فهذا الحيوان وإن لم يكن جائعًا فإنّه يدّخر المواد الغذائيّة لكي يستفيد منها في المستقبل. فالغراب كثيرًا ما يدفن الجوز، ومن المشهور أنّ الكثير من أشجار الجوز تفقد جوزها بسبب فعل الغربان، فيقول الإمام: «**شِيعَتُنَا لَا يَهِرُّونَ هَرِيرَ الْكَلْبِ وَلَا يَطْمَعُونَ طَمَعَ الْغُرَابِ**»، وهذا يدلّ على أنّهم لا يتوجّهون إلى أذيّة الآخرين ولا يجمعون من المال والثروة ما يزيد عن حاجتهم. وإنّ استعمال مثل هذه العبارات لأجل إظهار قبح بعض السلوكيّات من أجل أن يقوم من يتصّف بهذه الصفات بتزكية نفسه وتهذيبها ومنع تفاقم هذه الصفات في قلبه وتحوّلها إلى ملكاتٍ راسخة. إنّ شأن شيعة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا ينسجم مع روحيّة الهرير والطمع. ينبغي أن يتّصف الشيعيّ بعزّة النفس وعدم الطمع بأموال وشؤون الآخرين.

٥ و ٦. عزّة النفس مقابل أعداء أهل البيت (ع) والابتعاد عنهم

من الصفات الإنسانيّة الحسنة التي أكّد عليها الإسلام كثيرًا هي حالة الاستغناء وعزّة النفس. فعلى الإنسان أن لا يطلب من الآخرين مهما أمكن، حتّى لو كانوا من الأقارب أو الأب والأمّ. بالطبع، قد تحصل بعض الحالات في الحياة يجب أن يفصح فيها الإنسان عن حاجته للآخرين من أجل القيام بالتكاليف والمسؤوليّات الواجبة عليه. فقد يضطرّ الإنسان لنقل زوجته أو ابنه المريض إلى المستشفى في منتصف الليل، فيستعير سيّارة جاره. فعالم اليوم ليس عالمًا يستطيع الإنسان أن يعيش فيه لوحده من دون الحاجة إلى الآخرين، شاء أو أبى سوف تحدث أمورٌ يضطرّ معها

إلى الاستعانة بغيره. لكنّ النكتة المهمّة هنا هي فيما يتعلّق بأولئك الذين ينبغي أن نستعين بهم، حيث أشار الإمام عَلَيهِ‌السَّلَامُ إلى ذلك وقال: «**وَلَا يُجَاوِرُونَ لَنَا عَدُوًّا وَلَا يَسْأَلُونَ لَنَا مُبْغِضًا وَلَوْ مَاتُوا جُوعًا**». وقد تمّت التوصية في تعاليم أهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ الأخلاقيّة أن يستعينوا مهما أمكن بالمؤمنين وشيعة أهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ، وأن لا يجعلوا للفسّاق منّةً عليهم وكذلك لمبغضي أهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ وأعدائهم. لعلّه لا يوجد إشكالٌ كبير في إقامة العلاقات مع أولئك الذين لم يعرفوا أهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ لأسبابٍ عدّة، كالجاهلين والضالّين الذين ليسوا من أهل العناد، وطلب مساعدتهم والاستعانة بهم لإنجاز المعاملات. فقد يتمكّن الإنسان بواسطة هذه الروابط والعلاقات أن يهديهم شيئًا فشيئًا. لكن هناك من يتّصف بالعناد بذاته، فمثل هؤلاء كانوا كُثُرًا في زمن الأئمّة عَلَيهِم‌السَّلَامُ. وإن كانت دوافع العناد قد أصبحت أقلّ اليوم، لكن هناك من لا يزال معاديًا لأهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ. وإنّ نخوة الشيعة لا تسمح لهم بأن يمدّوا يد الاحتياج لأولئك المعادين لأهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ.

٧. الالتزام بفتاوى أهل البيت (ع) في جميع الأحكام

لقد اختلف الشيعة مع أهل التسنّن منذ البداية في مجموعة من الأحكام. وقد لاحظنا وجود هذه الاختلافات الكثيرة المعروفة في العبادات وفي الأطعمة والأشربة وفي المناسك التي يقوم بها المسلمون، ومنها أكل سمك الجريّ الذي كان مورد اختلاف بين الشيعة وغيرهم. فأهل البيت عَلَيهِم‌السَّلَامُ اعتبروا أنّ تناوله حرامًا، في حين أنّ أهل السنّة عدّوا اصطياده وأكله حلالًا على أساس فتاوى علمائهم. وهكذا في الوضوء أيضًا فبعض مخالفي الشيعة أجازوا المسح على الخفّ وخصوصًا في حالات الاضطرار والبرد، في حين أنّ الشيعة كانوا مخالفين منذ البدايات لهذه الفتوى المعروفة بالمسح على الخفّين. وكذلك يوجد اختلافاتٌ بين الشيعة وأهل السنّة في مورد المسكرات. بالطبع، إنّ المسلمين من غير الشيعة يعتبرون تناول المسكر حرامًا، ولكن حصل اختلاف بين الشيعة وأهل التسنّن في بعض الموارد المشتبهة، كالفقاع وماء الشعير الذي لا يعدّ مسكرًا، حيث إنّ الكثيرين من أهل السنّة أجازوا الاستفادة منه واعتبروا شربه حلالًا بخلاف الشيعة. فقد كان شائعًا في ذلك الزمان تخمير التمر والزبيب لمدّة ما، ومن ثمّ شرب مائعه الذي يتسبّب بنوع من السكر الضعيف. ولعلّ إشارة الإمام في هذه الرواية الشريفة هي إلى هذه

المسألة التي لها ارتباط بالموارد المذكورة أعلاه والتي عُدّت مسكرًا وحرامًا، فمثلما أنّ شيعتهم يحرّمون الخمر ويجتنبون شربه، فإنّهم يجتنبون سائر المسكرات، مهما كانت درجة إسكارها ضعيفة، كماء الشعير وماء الزبيب، لذلك قال الإمام: «**شِيعَتُنَا لَا يَأْكُلُونَ الْجِرِّيَ وَلَا يَمْسَحُونَ عَلَى الْخُفَّيْنِ وَيُحَافِظُونَ عَلَى الزَّوَالِ وَلَا يَشْرَبُونَ مُسْكِرًا**».

العدد القليل للشيعة الحقيقيّين

بعد أن عدّد الإمام خصائص الشيعة الحقيقيّين، يسأل ابن جندب عن مكان هذا النوع من الأشخاص، فيذكر الإمام في جوابه، مشيرًا إلى آية من القرآن، محل سكن هؤلاء: «**قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَأَيْنَ أَطْلُبُهُمْ؟ قَالَ (ع): عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَأَطْرَافِ الْمُدُنِ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَدِينَةً فَسَلْ عَمَّنْ لَا يُجَاوِرُهُمْ وَلَا يُجَاوِرُونَهُ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ حَبِيبُ النَّجَّارِ وَحْدَه**».

وقد ذكر الإمام هذا الكلام في عصرٍ كانت الحكومة فيه متشدّدة وتضيّق الخناق على أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وشيعتهم. خصوصًا في زمان بني مروان حيث تعرّض الشيعة لأشدّ أنواع الضغوط، وكان مجرّد التشيّع تهمةً كافية لسجن الإنسان وتعذيبه وحتّى إعدامه بطريقةٍ مفجعة. لهذا، أدّى هذا التنكيل إلى هجرة الشيعة في الأغلب من الحجاز إلى سائر المناطق ومنها إيران. وأحد أسباب وجود أضرحة أبناء الأئمّة في المناطق الجبليّة وخصوصًا في شمال إيران هو هذه القضيّة، لأنّ هؤلاء كانوا يتّخذون أطراف المدن وأعالي الجبال ملجأً لهم ليأمنوا من أيادي الحكومة. ففي ظلّ مثل هذه الظروف، يقول الإمام لابن جندب ألّا يتوقّع أن يرى شيعته في المدن وبين عامّة الناس، «فإنّك إذا أردت أن تجدهم فالتفت جيّدًا إلى أنّ هؤلاء ليس لهم معاشرة وصحبة مع الناس العاديّين ولا يأنسون بهم ولا يأنس بهم الناس، فبهذه الطريقة يمكنك أن تجد شيعتنا». ثم يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ مثل شيعتنا بين الناس مثل حبيب النجار في أنطاكيا».

ويخاطب الله تعالى نبيّه في سورة **يس** ويطلب منه أن يضرب مثلًا للناس الذين لم يؤمنوا حتّى الآن، مدينةً ذُكرت في الروايات على أنّها أنطاكيا؛ كان أهلها قد أعرضوا عن الإيمان وقبول الحقّ، رغم دعوة الأنبياء الثلاثة (الذين أرسلهم الله تعالى لهدايتهم): ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم

مُّرْسَلُونَ﴾[1]. فلم يكتفِ أهل تلك المدينة بعدم الإيمان بأنبياء الله بل هدّدوهم بالقتل. ففي مثل هذه الظروف، جاءهم حبيب النجار من أقصى المدينة لأجل دعمهم ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[2]. فقد كان حبيب النجار يعيش وحيدًا بعيدًا عن الناس في أقصى المدينة، لأنّه ما كان ينسجم مع أهلها، وبعد أن دعا أولئك القوم لاتّباع رسل الله قاموا بأذيّته وقتله.

عدم الغفلة عن الأنشطة الاجتماعيّة والبرامج العباديّة

النقطة التي ينبغي الالتفات إليها ها هنا هي ملاحظة الظروف التي يتطرّق إليها كلام الإمام. ففهم كلمات الأئمّة المعصومين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يحتاج إلى دقّةٍ وإلى نوعٍ من الاجتهاد. فليس من الصحيح إذا قرأ الإنسان رواية أو سمعها أن يعمل بالإطلاق والعموم الظاهريّ منها. فبعض الأشخاص لا يدركون الظروف التي جاءت فيها الرواية، واللهجة والقيود التي تحيط بها؛ فإذا انسجمت الرواية مع ذوقهم ووجدت لنفسها مجالًا في نفوسهم يستندون إليها أو يعملون بها. فإذا شاهد هؤلاء روايات تذكر أنّ الشيعة هم من المعتزلين أو المنقطعين عن المجتمع، يتصوّرون أنّ على جميع الشيعة أن يكونوا كذلك في جميع العصور وأن يبتعدوا عن كافّة الناس وإن كانوا من الشيعة أيضًا؛ أو أنّ على الشيعيّ أن يُخفي رأسه ولا يخرج من بيته، وإذا خرج فعليه أن يغطي رأسه بعباءته لكي لا يشاهد الناس ولا يتكلّم معهم. لقد كان هناك الكثير من أمثال هؤلاء قبل الثورة، ولكن ببركة الثورة وتوجيهات الإمام الراحل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسائر العظماء ضعُفت هذه الدوافع المنحرفة بحمد الله. بالطبع، ما زال يوجد من هنا وهناك أشخاصٌ يتمسّكون بهذا النوع من الروايات. ففي هذا المجال، يجب أن نعلم أنّه لا يحلّ الأمر المستحبّ والأخلاقيّ مكان التكليف الواجب في أيّ وقتٍ من الأوقات؛ فحيث يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمشاركة في الأمر السياسيّ واجبًا، فإنّ الاستناد إلى هذا النحو من التعاليم الأخلاقيّة التي توجّهت إلى بعض الأشخاص في ظروفٍ خاصّة لا يكون صحيحًا بأيّ وجه من الوجوه. فأولئك الذين لديهم هذه النزعة الانعزاليّة يستنبطون من الروايات

---

(١) سورة يس، الآية ١٤.

(٢) سورة يس، الآية ٢٠.

التي تذكر الاعتزال مثل هذا التصوّر وهو أنّ عليهم أن يعيشوا بعيدًا عن المجتمع وأن لا يعاشروا أيّ إنسان. فإذا كان الأمر كذلك فلمن تكون كلّ هذه التكاليف الاجتماعيّة الموجودة في الإسلام ومتى ينبغي العمل بها؟!

من جانبٍ آخر، هناك من لا يرى سوى التعاليم الاجتماعيّة الإسلاميّة وينسى الأحكام العباديّة كليًّا. فأمثال هؤلاء يتصوّرون أنّهم إذا شاركوا في الأنشطة الاجتماعيّة فلن يحتاجوا بعدها إلى أداء العبادات المستحبّة؛ لأنّ العبادة عندهم تختصّ بأولئك الذين اعتزلوا وجلسوا في الزوايا، أو هي للشيوخ والعجائز الذين لا يستطيعون حيلة، فيشغلون أوقاتهم بقراءة القرآن والدعاء وتلاوة الأذكار! في حين أنّ غفلةَ الإنسان عن القضايا العباديّة بحجّة القيام بالتكاليف الاجتماعيّة هو خطأٌ كبير. فلا يوجد أيّ شخص مستغنٍ عن البرامج العباديّة وعن بناء الذات. بالطبع، يختلف الناس فيما بينهم من ناحية الظروف الحياتيّة والاحتياجات، وبالطبع تختلف أنواع عباداتهم، ولكن على أيّ حال فإنّ الأنشطة الاجتماعيّة لا تغني عنها. فلو ترك الإنسان هذه العبادات فإنّ أنشطته الاجتماعيّة ستفقد ماهيّتها شيئًا فشيئًا، وبدل أن تكون بقصد أداء التكليف الواجب تصبح متوجهةً إلى الأمور الماديّة والدنيويّة؛ ولو حصلت مثل هذه الحالة سوف تزول حالة رعاية أحكام الشرع وربّما يُبتلى الإنسان بالمعاصي لا سمح الله. فلا ينبغي لأولئك الذين يتحمّلون المسؤوليّات الاجتماعيّة المهمّة أن يظنّوا أنّهم معفون من الوظائف العباديّة مثل صلوات النافلة والأدعية المستحبّة وقراءة القرآن فيقولون في أنفسهم إنّنا نخدم المجتمع إلى درجةٍ أنّ ثواب كلّ عملٍ نقوم به هو أفضل من ختم القرآن عدّة مرات! بالطبع، إنّ تلك الخدمة التي تكون واجبةً يكون ثوابها أكثر من ختم القرآن، لكنّ الإنسان لا يستغني عن تلك البرامج العباديّة أثناء قيامه بتلك الخدمة. فلو بقي الإنسان على حالة العبادة، لحافظ على تلك الروح المعنويّة التي يتمكّن معها من خدمة مجتمعه، وإلّا ستضعف تلك الدوافع الإلهيّة فيه وبدل أداء التكليف ستضربه تلك الآفة ويفسد.

ضرورة حفظ الهويّة الشيعيّة

إنّ هذا التركيز في الروايات على أنّ شيعتنا قليلًا ما يعيشيون في المجتمع وبين سائر الناس، يختلف باختلاف الأشخاص. فعلى سبيل المثال، أمر الإمام الكاظم عَلَيْهِ‌السَّلَامُ علي بن يقطين الذي كان من أكابر الشيعة ومن أصحاب الإمام الخواصّ

أن يستلم وزارة هارون الرشيد، ذلك لأنّه بالإضافة إلى محافظته على إيمانه كان يستطيع أن يخدم الشيعة. وأولئك الذين يحوزون على مثل هذه القدرة فلا تؤثّر معاشرة الآخرين في عقائدهم وعبادتهم وأخلاقهم، يجب أن يتواجدوا في التجمّعات الفاسدة لكي يتمكّنوا من هداية الآخرين. فلا ترتفع مسؤوليّة هداية الآخرين عن عواتقنا أبدًا.

ومن جانبٍ آخر، أولئك الذين ما زالوا في المراتب الضعيفة للإيمان، لو تواجدوا داخل المجتمع الفاسد فإنّهم يذوبون فيه أو يفقدون هويّتهم، فعليهم أن ينفصلوا مهما أمكن عن ذلك المجتمع. وكذلك أولئك الذين ليس لديهم ذلك المستوى من المعرفة ولا القاعدة العلميّة المتينة فيما يتعلّق بعقائدهم، فلا ينبغي أن يباحثوا أيّ شخص، وفي كلّ مجال. فإذا كان هناك مجموعة من المسلمين في مجتمعٍ يعيش أكثر أهله حالة الفساد أو الكفر، فعليهم أن يحافظوا على هويّتهم ويمتّنوا علاقتهم فيما بينهم. إنّنا نشاهد اليوم كيف أنّ الجماعات المسلمة، وخصوصًا الشيعة الذين يعيشون في العديد من الدول غير المسلمة، كيف يحافظون على العلاقات فيما بينهم، ويراعون أحكام دينهم، ولا يعاشرون غيرهم إلا بحدود قضايا السوق، وبالحدّ الذي لا يخدش بقضاياهم الدينيّة والعمليّة. لقد شاهدت بنفسي شباب المسلمين الشيعة في بلاد أجنبيّة لا يتركون صيام شهر رجب وشعبان، فقد حافظت هذه الجماعة القليلة من الشيعة على شخصيّتها حتى في دولةٍ مسيحيّة، ولم يتركوا الأمور المستحبّة، لماذا؟ كلّ هذا لأجل أن لا يذوبوا في ذلك المجتمع. ومن جانبٍ آخر، فإنّ بعض الشيعة الذين يعيشون في الدول المسلمة الأخرى قد وقعوا تحت تأثير ثقافة تلك المجتمعات وذابوا فيها إلى الدرجة التي حين يراهم الإنسان يشكّ في درجة إسلامهم. لقد أضاع هؤلاء هويّتهم ولم يبقَ منهم سوى اسم التشيّع، فلا يعرفون من التشيّع سوى الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ! لقد كان الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يرى مثل هذا اليوم لذلك أمر الشيعة بالحفاظ على هويّتهم، وخصوصًا أولئك الذين يعانون من ضعف العقيدة والأفكار فعليهم أن يلتفتوا جيّدًا حتّى لا تؤدي معاشرة ومجاورة الآخرين إلى ضياع دينهم ومذهبهم.



- غفران جميع الذنوب
- الرياء المفسد للأعمال
- الإخلاص حتّى في المحبّة
- التمسّك والاعتصام بالله

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ كُلُّ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ سِوَى عُقُوقِ أَهْلِ دَعْوَتِكَ وَكُلُّ الْبِرِّ مَقْبُولٌ إِلَّا مَا كَانَ رِئَاءً. يَا ابْنَ جُنْدَبٍ أَحْبِبْ فِي اللهِ وَأَبْغِضْ فِي اللهِ وَاسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَاعْتَصِمْ بِالْهُدَى يُقْبَلْ عَمَلُكَ فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾، فَلَا يُقْبَلُ إِلَّا الْإِيمَانُ وَلَا إِيمَانَ إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِيَقِينٍ وَلَا يَقِينَ إِلَّا بِالْخُشُوعِ، ومِلَاكُهَا كُلُّهَا الْهُدَى، فَمَنِ اهْتَدَى يُقْبَلُ عَمَلُهُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَلَكُوتِ مُتَقَبَّلًا: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[١].

غفران جميع الذنوب

يقول الإمام في الجملة الأولى من هذه الرواية الشريفة: «**كُلُّ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ سِوَى عُقُوقِ أَهْلِ دَعْوَتِكَ**». وبشأن غفران الذنوب في القرآن الكريم هناك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢]. وطبق هذه الآية، فإن الله يغفر كلّ ذنبٍ، أو بعبارة أخرى هناك إمكانيّة لأن يغفر الله كلّ ذنبٍ سوى أن يُشرك به، فالشرك معصيةٌ لا يغفرها الله. بالطبع، إنّ عدم غفران الشرك بمعنى أن ينتقل الإنسان من هذه الدنيا مشركًا، أمّا إذا كان هذا الإنسان مشركًا في السابق ثمّ تاب وأصبح موحّدًا فإنّ الله سيغفر ذنبه هذا، كما أنّ كلّ معصيةٍ قابلةٌ

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٢.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٤٨.

للمغفرة بالتوبة. بناءً عليه، فإنّ المقصود من قوله تعالى إنّ الشرك لا يُغفر بمعنى أنّ هذا الذنب لا يُجبر ولا ينبغي أن ينتقل صاحبه من هذه الدنيا من دون توبةٍ منه.

وماذا عن سائر الذنوب؟ فهل إنّ سائر الذنوب لا تُغفر إذا خرج الإنسان من هذا العالم من دون التوبة منها؟ هذه الآية تقول إنّ سائر المعاصي والذنوب ليست كذلك، ومن الممكن أن يغفر الله تلك الذنوب بالرغم من أنّ صاحبها لم يكفّر عنها في هذه الدنيا ولم يتب منها. فعلى سبيل المثال، لقد ذكر **القرآن الكريم** أنّ الله يغفر الذنوب الصغيرة: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[1]، وقد قيل في توضيح وتفسير هذه الآية إنّ المقصود هو إذا اجتنب هذا الشخص الذنوب الكبيرة، فإنّ الله يغفر له تلك الذنوب الصغيرة التي اقترفها. كما أنّه تعالى يقول في آيةٍ أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2]، يستفاد من هذه الآية أيضًا أنّ الله يغفر الذنوب الصغيرة بشرط اجتناب ارتكاب الكبائر. بالطبع، يجب الالتفات إلى أنّ الإصرار على الصغائر يُعدّ بحدّ ذاته معصيةً كبيرة. وعلى أيّ حال، فإنّ الله يغفر الذنب الصغير وإن لم يكن الإنسان قد تاب منه.

وأمّا فيما يتعلّق بالذنوب الكبيرة، فمن الواضح أنّ الله يغفرها له إن تاب منها ولا كلام في ذلك. وإنّما الكلام هو حول انتقال الإنسان من هذه الدنيا من دون أن يتوب من تلك الذنوب. ففي هذه الرواية، يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه في هذا المورد أيضًا يوجد أمل بالمغفرة، كما تفيده الآية الشريفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ..﴾[3].

وخلاصة البحث هنا هي إذا كان هذا الشخص قد حقّق شروط الشفاعة، فإنّه في النهاية سينال المغفرة في إحدى هذه المراحل من سكرات الموت وحتّى القبر والبرزخ والقيامة. وبالطبع، إنّ الحديث عن شروط الشفاعة يتطلّب بحثًا مستقلًّا لا يتّسع له هذا المقال، ولكن على أيّ حال فإنّ هذا الشخص سيصل في النهاية إلى

---

(١) **سورة النساء**، الآية ٣١.

(٢) **سورة النجم**، الآية ٣٢.

(٣) **سورة النساء**، الآية ٤٨.

النجاة والخلاص ولو بعد مئات السنين من العذاب.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية، وفي معرض التأكيد على هذا الأصل الكلّيّ المتعلّق بغفران جميع الذنوب، أنّ لهذه القاعدة استثناء وهو عبارة عن عقوق الإخوان المؤمنين: «**كُلُّ الذُّنُوبِ مَغْفُورَةٌ سِوَى عُقُوقِ أَهْلِ دَعْوَتِكَ**». والعقوق من «عقّ» وهو بمعنى الأذى والسلوك السيّئ. ومن الواضح أنّ الإساءة للأخوة المؤمنين وأذيّتهم تؤدّي إلى تضييع حقوقهم وظلمهم. بناءً عليه، فإنّ معنى كلام الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أنّ كلّ ذنبٍ مغفور إلّا ما كان يؤدّي إلى تضييع حقوق الأخوة المؤمنين وظلمهم، والسرّ في هذا الأمر هو أنّه حقّ الناس. فحقّ الناس لا يُغفر حتّى مع التوبة وعلى الإنسان أن يرضي صاحب الحقّ ويطلب المسامحة منه.

الرياء المفسد للأعمال

«**وَكُلُّ الْبِرِّ مَقْبُولٌ إِلَّا مَا كَانَ رِئَاءً**». ويجب أن نقول إذا أردنا أن نبيّن هذه الجملة أنّ الأعمال التي يقوم بها الإنسان لا تخرج عن إحدى حالتين: إمّا أن تكون منطلقةً من الدوافع الإلهيّة ولأجل رضا الله، وإمّا أن تكون لأغراضٍ أخرى. ومن أشهر الأغراض غير الإلهيّة التظاهر والذي يعبَّر عنه في المعارف الإسلاميّة بالرياء، وذلك بأن يقوم الإنسان بالعمل لكي يراه الآخرون وينال إعجابهم، فيمدحونه ويثنون عليه. يقول الإمام ها هنا إنّ العمل إذا لم يكن بدافع الرياء والتظاهر، فإنّه يكون بذاته قابلًا لأن يقع مورد قبول الحقّ تعالى، لكنّ العمل الريائيّ ليس لديه هذه القابليّة بذاته ولا يمكن أن يقع مورد القبول أبدًا.

بالطبع، إنّ النيّة الإلهيّة في العمل ذات مراتب، وقد أشرنا إليها في أحد الدروس السابقة، ولكن على أيّ حال فإنّ كلّ ما يحوز على إحدى هذه المراتب سيكون مقبولًا عند الله لأنّ أصل النيّة فيه سليمٌ. وفي المقابل، إنّ العمل الريائيّ مهما كان مهمًّا وكبيرًا وبذلنا من أجله الكثير من المشقّات فإنّ الله لا يمكن أن يقبله. في تتمّة الكلام، يشير الإمام إلى موردٍ وهو أنّ امتلاك الدافع الإلهيّ وخلوّ العمل من الرياء وعدم كونه لأحدٍ سوى الله هو من أصعب الأعمال. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الرياء فيه يكون قليل الظهور مقارنةً بغيره من الأعمال، وحتّى من الممكن أن يشتبه الأمر على الإنسان نفسه فيتصوّر في بعض الموارد وجود الدافع الإلهيّ

في حين أنّ الأمر لا يكون كذلك وهو فيما يتعلّق بقضيّة الحبّ والبغض.

الإخلاص حتّى في المحبّة

يقول الإمام: «**يَا ابْنَ جُنْدَبٍ أَحْبِبْ فِي اللهِ وَأَبْغِضْ فِي اللهِ**»، أي ليس الأعمال والسلوكيّات الظاهريّة هي التي ينبغي أن تكون لله فحسب، بل حتى الحبّ والبغض، اللذان هما من الأمور القلبيّة والباطنيّة. فإذا أحببت إنسانًا فليكن حبّك بدافعٍ إلهيّ، وإذا أبغضت إنسانًا فليكن ذلك أيضًا من أجل تحقيق رضا الله.

يجب أن نُذعن بأنّ هذا الأمر صعبٌ جدًّا، خصوصًا إذا أراد الإنسان أن يجعل كلّ عداواته وصداقاته على هذا النحو. ولكن رغم كلّ ذلك، يمكن للإنسان، وعليه أن يسعى، في مراتب الكمال والسير والسلوك، لكي يصل إلى هذه المرحلة التي لا تكون أعماله الظاهريّة كالصلاة والصيام والإنفاق وحدها لله فحسب، بل أن تكون محبّته وبغضه أيضًا لله. فالمحبّة والبغض هما أمران قلبيّان، وأنا لا أقول إنّ سعي الإنسان لجعل حبّه للآخرين وبغضهم، فقط لله وألّا يكون فيه أيّ ذرّة لغير الله، هو أمرٌ غير ممكن، بل من المحتّم أنّه أمرٌ صعب جدًّا ويتطلّب الكثير من السعي، وما لم يكن هناك إعانة إلهيّة فلن يتمكّن الإنسان بنفسه من الوصول إلى مثل هذه الدرجة. فالذين وصلوا إلى هذا المستوى، حيث كانت محبّتهم «في الله» خالصة مئة بالمئة، هم نادرون جدًّا. وعلى أيّ حال، لا ينبغي للإنسان أن ييأس، وعليه أن يبذل كلّ جهده لأجل الوصول إلى مثل هذا المقام. ففي هذه الحالة، سوف يعينه الله وإن شاء الله ستشمله تلك التوفيقات الإلهيّة الخاصّة.

يجب الالتفات إلى أنّنا حين نقول بضرورة أن تكون محبّتنا خالصة لله فلا يعني ذلك أن لا نحبّ سوى الله، بل المقصود هو أنّه لا يوجد سوى محبةٌ أصيلةٌ واحدة، وكلّ أنواع المحبّة الأخرى تكون ظلًّا وشعاعًا لهذه المحبّة الأصيلة. فإذا أحببنا والِدينا لا يكون حبّنا لأجل هذه الرابطة النَّسبيّة بل لأنّ الله تعالى قد قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، أو أنّه قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[1]. ويمكن أن تكون محبّتنا للزوج والولد والأقارب والأصدقاء على هذا النحو أيضًا، بل حتّى حبّنا للنبيّ وأهل بيته عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ هو من باب أنّهم أحباب الله، ولأنّ الله أمرنا بمودّتهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[2]. فلو لم يكن الله، والعياذ بالله، يحبّ أهل البيت عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ، فأيّ محبّةٍ ستكون في قلوبنا تجاههم.

على أيّ حال، إذا استطاع الإنسان أن يصل إلى مقامٍ لا يوجد في قلبه سوى حبّ الله، ولا يوجد في قلبه ذرّة واحدة من حبّ غير الله، هناك يكون قد وصل إلى ما ذُكر: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»[3]. فما ذُكر في هذا المجال يشير إلى ذاك القلب الذي لا يوجد فيه أيّ شوبٍ أو كدورة. فما دام في الإنسان تلك الشوائب من حبّ الدنيا والهوس والتعلّقات والمحبّات الشيطانيّة فلن يجعله الله عرشه. إنّ الوصول إلى مثل هذا المقام لا يتحقّق إلّا بالتمسّك بحبل الله المتين والاستعاذة بالله والاستعانة بذاته المقدّسة.

التمسّك والاعتصام بالله

من التعابير المستعملة في الأدبيّات القرآنيّة التمسّك بعروة الله الوثقى. ونقرأ في آية الكرسي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[4]. وقد ورد في سورة لقمان أيضًا: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٌ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[5]. والترجمة الحرفيّة للعروة الوثقى هي: «أكثر الحبال متانة». فمن تمسّك بالعروة الوثقى يكون قد تمسّك بأمتن الوسائل. وفي هذا التعبير، تختفي دقةٌ ولطافةٌ خاصّة قلّما يُلتفت إليها، وهي أنّ التدقيق بهذه المسألة يرتبط بالوقت الذي يتمسّك فيه الإنسان. ففي الحالة العاديّة، لا داعي لأن يتمسّك الإنسان بشيء، ولكن تبرز حاجته إلى التمسّك بشيءٍ ما حين يواجه خطر

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ١٤.

(٢) سورة **الشورى**، الآية ٢٣.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٥٥، الصفحة ٣٩.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

(٥) سورة **لقمان**، الآية ٢٢.

السقوط. أمّا في الحالات العاديّة، فطالما أنّ الإنسان يقف براحته أو يجلس ويشعر بالأمان فإنّه لا يتمسّك بشيء.

في القرآن الكريم، حين يستعمل عبارة «العروة الوثقى» فهو يريد أن يفهمنا أنّ على الإنسان أن يتذكّر بأنّه في معرض السقوط في كلّ لحظة؛ وكأنّ هذا الإنسان واقفٌ بين السماء والأرض فإذا لم يتمسّك بأمرٍ ثابتٍ ومحكم سوف يسقط ويكون هلاكه حتميًّا. فهناك وادٍ عميقٍ مهول مليء بالنيران يقع تحت قدميه وإذا غفل لحظةً واحدةً سيسقط فيه، وهذا الوادي يُسمّى «جهنّم» وفيه النيران الأبديّة والسعير. ومن جانبٍ آخر، ففي مثل هذه الحالة لا يوجد سوى طريق واحد للنجاة وهو التمسّك بأوثق وأحكم العرى في هذا العالم وهو الله تعالى.

فلو كان الإنسان في هذه الوضعيّة وهو يرى نفسه دائمًا في معرض مثل هذا الخطر والسقوط المهول وأدرك أنّ طريق نجاته الوحيد يكمن في التمسّك بحبل الله وعروته، فإنّه سيصل إلى حالة التسليم لله تعالى، فيسلّم نفسه لله لأنّه سيرى أنّ طريق نجاته الوحيد من عذاب النار والخلود في جهنّم، هو التمسّك بعروة الله المحكمة. هناك سيتضرّع إلى الله عاجزًا محتاجًا ويقول: «اللّهم احفظني».

وكذلك من الطبيعيّ، إذا كان الإنسان في مثل هذه الحالة من الابتلاء ولا يجد غير الله سبيلًا للنجاة، فلن يفعل سوى ما يقوله، ويكون محسنًا أيضًا: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. هناك تعبيرٌ آخر يشبه العروة الوثقى وقد جاء في القرآن أيضًا وهو «الاعتصام بحبل الله». ففي سورة آل عمران نقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[1]، وفي موضع آخر يقول: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]. فالاعتصام هو الالتجاء إلى شيءٍ لأجل النجاة من المهالك الدنيويّة والأخرويّة، ويجب أن يكون إلى الله لأنّه لا طريق سواه. فلو شعر الإنسان بمثل هذا الأمر، ووصل إلى حيث يدرك بكلّ وجوده أن لا ملجأ سوى الله، فلا شكّ أنّه سوف يرمي بنفسه في هذا الحضن، هناك

---

(١) **سورة آل عمران**، الآية ١٠٣.

(٢) **سورة آل عمران**، الآية ١٠١.

ستصلح كلّ أموره: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

يتسلّط الشيطان على الإنسان حين يغفل هذا الإنسان عن الله، أمّا من يرى نفسه معلّقًا بين السماء والأرض ويمكن أن يسقط في أيّ لحظةٍ ويُدرك أنّه لا ملجأ له سوى الله، فهذا الإنسان لن يغفل لحظةً واحدة عن الله. فإنّما تحدث الغفلة حين يغفل عن هذه الحالة والظروف المليئة بالخطر المحدق به. ومن جانبٍ آخر، لو تمسّك الإنسان دائمًا بحبل الله وعروته، فإنّه سوف يبتعد شيئًا فشيئًا عن الأرض ويتّجه إلى الملكوت الأعلى: «**يَا ابْنَ جُنْدَبٍ... وَاسْتَمْسِكْ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَاعْتَصِمْ بِالْهُدَى... فَمَنِ اهْتَدَى يُقْبَلُ عَمَلُهُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَلَكُوتِ**».

وكلّ ذلك إنّما يحدث حين يصل الإنسان إلى اليقين. فإذا تيقّن الإنسان بوجود جهنّم وعذاب الخلد وأنّ طريق الفرار والنجاة منهما يكون بالالتجاء إلى الله، فإنّه حتمًا سيتوجّه إلى الله ويتحرّك نحوه ويجعل أحكامه وتعاليمه حلقةً في أذنه ويصلح عمله ويمتلئ قلبه بالإيمان بالله ويخشع بكلّ وجوده بين يديه: «**فَلَا يُقْبَلُ إِلَّا الْإِيمَانُ وَلَا إِيمَانَ إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا عَمَلَ إِلَّا بِيَقِينٍ وَلَا يَقِينَ إِلَّا بِالْخُشُوعِ، وَمِلَاكُهَا كُلُّهَا الْهُدَى، فَمَنِ اهْتَدَى يُقْبَلُ عَمَلُهُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَلَكُوتِ مُتَقَبَّلًا** ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾».

نسأل الله تعالى توفيق الهداية والوصول إلى هذه المقامات العالية والملكوت الأعلى.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠١.



- درجات معرفة المؤمنين وهمتهم
- طريق الوصول إلى مقام قرب الله
- ذكر الموت وزاد الآخرة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُجَاوِرَ الْجَلِيلَ فِي دَارِهِ وَتَسْكُنَ الْفِرْدَوْسَ فِي جِوَارِهِ فَلْتَهُنْ عَلَيْكَ الدُّنْيَا، واجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ، وَلَا تَدَّخِرْ شَيْئًا لِغَدٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَا قَدَّمْتَ وَعَلَيْكَ مَا أَخَّرْتَ»[1].

درجات معرفة المؤمنين وهمّتهم

نحن نعلم أنّ للإيمان مراتب، وتتفاوت معرفة الناس بحقائق الدين مثلما تتفاوت هممهم. فلو كان للإنسان هدفٌ عالٍ وهو يسعى للوصول إليه ولتحقيقه، فينبغي أوّلًا أن يعرف الهدف جيّدًا ويؤمن بوجوده، وعليه ثانيًا أن يبذل الجهد اللازم للوصول إلى ذلك الهدف العالي. أولئك الذين تكون معرفتهم وإيمانهم ضعيفين فإنّهم إذا استطاعوا أن يرفعوا من مستوى معرفتهم فإنّهم سوف يحقّقون ذلك الاستعداد والهمّة التي تجعلهم قادرين على الوصول إلى تلك الأهداف العليا بالمزيد من السعي. أمّا أولئك الذين يعيشون ضعف الهمّة حتّى لو كان ذلك في الأمور الدنيويّة بغضّ النظر عن موقع هذه الأمور الدنيويّة وعلاقتها بالآخرة فمهما توفّرت لهم مجالات المعرفة والإيمان، فإنّهم لن يتمكّنوا من الارتقاء والتقدّم. ويجب تحذير هؤلاء لكي يختاروا الطريق الصحيح للوصول إلى الأهداف العالية بعد أن يقوموا بتقوية همّتهم. بالطبع، إنّ المؤمنين يختلفون فيما بينهم من ناحية مرتبة الإيمان ومن ناحية الهمّة.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٢.

في هذا المقطع من الرواية، نجد الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ينطلق من موقع المربّي لإيجاد الدافع في الشيعة لكي يرفعوا من مستوى هممهم، فهو يلفت أنظارَهم إلى هذه القضيّة، وهي أن لا يحصروا همّهم فقط في الخلاص من عذاب جهنّم، لأنّ همّتهم ينبغي أن تكون أكثر من ذلك. فأولئك الذين يؤمنون بالمعاد سوف يلتفتون إلى هذه القضيّة وهي أنّ ارتكاب بعض الأمور يؤدّي إلى العذاب الأبديّ، لهذا فإنّهم يسعون لاجتناب مثل هذه المعاصي والحفاظ على إيمانهم. إذا واجه مثل هؤلاء الأشخاص تلك العذابات في عالم البرزخ، فإنّهم في النهاية سوف ينالون النجاة بواسطة الشفاعة، لكن هذه تُعدّ من أدنى مراتب الإيمان. أمّا أولئك الذين يتمتّعون بمستوى أعلى من الهمّة، فإنّهم يسعون للعمل في هذه الدنيا بحيث إذا حانت لحظة قبض الروح فلا يبتلون بالعذاب في الليلة الأولى من القبر، وكذلك في عالم البرزخ. وهناك من تكون همّته أعلى من ذلك وهو الذي لا يكتفي بالخلاص من عذاب جهنّم، بل يريد أن يتمتّع بالمقامات العليا والدرجات الرفيعة في الجنّة وأيضًا بالمزيد من النعم في الآخرة. إنّ درجات الجنة كثيرة جدًا، بحيث لا يمكن عدّها، ففي بعض الروايات ذُكر أنّ درجات الجنّة تضاهي آيات القرآن أي إنّها أكثر من ستّة آلاف درجة. بالطبع، إذا أردنا أن نحسب المسافة الفاصلة بين هذه الدرجات لتطلّب ذلك بحثًا آخر. من هنا، فإنّ المؤمنين في الجنّة يتفاوتون فيما بينهم بلحاظ المقام والمرتبة.

هناك فئةٌ أخرى، وهم أولئك الذين أعرضوا ليس فقط عن لذّات الدنيا بل عن لذائذ الجنّة ونعمها. فهؤلاء لا يريدون سوى الله ولا يطلبون إلّا رضاه، فقد استقرّت محبّة الله في قلوبهم إلى الدرجة التي لم يعد في وجودهم سوى التفكير برضى الله. بالطبع، لا يوجد من يفرح بالعذاب، فكلّ الناس يحبّون نِعم الجنّة، ولكن هؤلاء قد وصلت درجة معرفتهم إلى حيث لم يعد لشيء من أهمّيّة في مقابل لذّة لقاء الله ورضوانه. فكلّ همّ هؤلاء هو أن يقتربوا من الله أكثر. والتعبير الذي ذُكر في **القرآن الكريم**، نقلًا عن زوجة فرعون في دعائها، يُشير إلى هذا المطلب. فحين هدّدها فرعون بالقتل فيما لو آمنت بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، توجّهت إلى الله وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[1]. وهكذا، فقد تحمّلت كل أنواع التعذيب

---

(١) سورة **التحريم**، الآية ١١.

والمصائب من أجل أن يبقى إيمانها محفوظًا. فلم تكن تطلب النجاة من عذاب جهنّم أو التمتّع بنعم الجنّة، بل قالت لله ﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ﴾، أي اجعلني في جوارك، وهذا هو مقام القرب. بالطبع، إنّ الله ليس بجسم بحيث يكون هناك بيت مجسّدٌ، لكنّ الرابطة المعنويّة للعبد العاشق مع ربّه تصل إلى درجة أنّها تشبه علاقة الجيران.

ليس كلّ الناس لديهم مثل هذه الهمّة بحيث يغضّون النظر عن كلّ شيءٍ ولا يسألون الله في دعائهم سوى قربه ومجاورته. بالطبع، من كان في جوار الله يحصل على كلّ شيء، لكن توجّه العبد العاشق لا ينصرف إلى تلك الأمور، وإنّما لا يريد أن يكون بعيدًا عن ربّه، مَثَلُ هذا العاشق مثلُ ذاك الذي يتحمّل جميع المصاعب والمصائب من أجل الوصول إلى محبوبه لكي يبقى بقربه دائمًا، فهو لا يلتفت إلى ما يجري حوله طالما أنّ محبوبه قريبٌ منه. بالطبع، إنّ الوصول إلى هذا المقام يتطلّب همّةً عاليةً، وذاك يعني أنّ هذا الإنسان يصل إلى تلك المرحلة التي لا يتوجّه فيها إلّا إلى ربّه ولا يهتم إلّا بالقرب منه بدل التوجّه إلى الخلاص من العذابَ الإلهيّ ومن نار جهنّم، أو الوصول إلى نعم الجنّة من قبيل الحور العين والقصور الفاخرة والأطعمة اللذيذة وأمثالها.

طريق الوصول إلى مقام قرب الله

إنّ الطريق للوصول إلى هذا المستوى من التوجّه بحيث لا يلتفت الإنسان إلّا إلى قرب الله، هو تجذّر معرفة الله ومحبّته في القلب بحيث يقدّم الإنسان رضوان الله على كلّ شيء. ومن لوازم الوصول إلى مثل هذا المقام تأمين مقدّماته في هذه الدنيا، لأنّ الإنسان إذا خرج من هذا العالم فلن يتمكّن من القيام بأيّ شيءٍ يقرّبه من الله. وبعبارةٍ أخرى، مثلما أنّ على الإنسان أن يسعى لأجل النجاة من عذاب جهنّم والتنعّم بنعم الجنّة في هذه الدنيا، فإنّ الذي يريد مجاورة الله عليه أن يهيّئ مقدماته في هذه الدنيا. ومن الممكن لإغراءات الدنيا وللأهواء والهوس والغرائز الإنسانيّة أن تبعدنا عن ذلك الهدف الأساسيّ وتؤدّي إلى ضعف السعي الموصل إلى ذلك الهدف الأعلى. فنحن في كثيرٍ من الأوقات ننسى ما الذي نسعى نحوه ونغفل عمّا ينبغي أن نصل إليه من مقام. ولكن هناك أشخاص هم أصحاب الهمم العالية ومطّلعون على مثل هذا المقام ويريدون الوصول إليه من أعماق قلوبهم،

لكنّهم لا يعلمون كيف ينبغي أن يواجهوا تلك المشكلات على هذا الطريق ويزيلوا الموانع. ومشكلة هؤلاء هي أنّهم لا يعرفون ما هي الأعمال التي ينبغي أن يقوموا بها لكي يصلوا إلى هذا المقام بصورة أفضل وأسرع.

يخاطب الإمام في مثل هذا النوع من الروايات، أولئك الذين هم من أصحاب الهمم الضعيفة، أو أولئك الذين لا يعرفون طريق الوصول إلى الهدف رغم تمتّعهم بالهمم العالية. يقول الإمام لعبد الله بن جندب إنّك إذا أردت أن تجاور الله حيث تكون نسبتك إلى الله أكثر من سائر المخلوقات وتبتعد عن مراتب البهائم والشياطين وترقّى بين المؤمنين وتصل إلى ذاك المقام الذي لا يكون مقام المخلوقين بل يكون مقام الله، فعليك أن تعمل حتّى تصبح هذه الدنيا هيّنة في عينك: «**يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تُجَاوِرَ الْجَلِيلَ فِي دَارِه وَتَسْكُنَ الْفِرْدَوْسَ فِي جِوَارِه فَلْتَهُنْ عَلَيْكَ الدُّنْيَا**». ففي طيّات هذه الوصيّة الأخلاقيّة العامّة، يقول الإمام في هذا المقطع من كلامه إنّ ما يؤدّي إلى عدم القدرة على عبور هذا الطريق هو أن تكون هذه الدنيا ذات شأن في عينك. فحين تكون متوجّهًا إلى هذه الدنيا ومتعلّقًا بها، فإنّ قلبك لن يتوجّه إلى الله ولن تتمكّن من الحفاظ على قوّة حضور هذا الهدف في قلبك. فكلّما قويت زخارف الدنيا وزبارجها في العين، ستبتعد أكثر عن ذاك المقام، لأنّ توجّهك سيكون مُركّزًا عليه. حين يتوجّه الإنسان إلى أيّ شيء، فإنّه سوف يعمل له ولن يتوجّه إلى غيره. إنّ إغراءات الدنيا تمنعنا من الوصول إلى تلك المقامات الإيمانيّة العليا لأنّها تجعل أبصارنا وأسماعنا تنساق وراءها، وحين يكون القلب كذلك فلن يبقى مكانٌ فيه لمحبّة الله.

ذكر الموت وزاد الآخرة

لعلّنا لا نجد خطبة في **نهج البلاغة** لا تشير إلى حقارة الدنيا، لكن هناك في بعض الموارد تعابير قاصعة لأمير المؤمنين فيما يتعلّق بالدنيا، وهي بالنسبة لمحبّي هذا الإمام ذات أهمّيّة فائقة. ففي أحد خطبه، يصف الإمام حقارة الدنيا وزوالها بتلك الرطوبة التي تبقى في وعاء الماء بعد أن يفرغ[1]. فما الذي يمكن أن يبقى في هذا

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٩٣. نص الرواية: وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا =

الوعاء بعد أن يُصبّ منه الماء؟ وهل سيهتمّ العطشان بهذه الرطوبة الباقية؟! إنّ كلّ ما في هذه الدنيا إذا قورن بالآخرة ونعمها فسوف يكون أقلّ من هذا المقدار. وفي موضعٍ آخر، يصف الإمام حقارة هذه الدنيا ويشبّهها «بعفطة عنز»[1]. وهناك كلام أشدّ من ذلك حين يصف الإمام هذه الدنيا في خطبةٍ أخرى بأنّها مثل «العظم البالي لخنزيرٍ ميّت في يدّ شخصٍ مبتلى بمرض الجذام»[2]. فالذين يُصابون بهذا المرض تُصبح وجوههم بشعة إلى الدرجة التي لا يرغب أحدٌ بالنظر إليها. فتصوّروا الآن أنّه إذا كان بيد مثل هذا الشخص المجذوم ذي الوجه المرعب عظم خنزير ميّت، فالخنزير الحيّ يكون قبيحًا ولحمه حرام ونجس، فما بالك بعظمه الميّت؟ فينبغي أن تكون الدنيا بنظر المؤمن على هذا النحو، أي إنّ عليه أن يرتقي بمعرفته إلى مستوى أن يعلم أنّ تعلّقه بالدنيا سيبعده عَن هدفه. بالطبع، هذا الكلام لا يعني أن يغضّ الإنسان النظر عن الأنشطة الاجتماعيّة والمسؤوليّات الفرديّة في هذه الدنيا. فأداء التكليف هو كلامٌ آخر، والبحث هنا هو حول رؤية الإنسان ونظرته إلى الدنيا. فلعلّه قد يتوجّب على الإنسان أحيانًا أن يحمل ذاك العظم الميّت، لكن كلامنا هنا يتعلّق بنظرة الإنسان إلى هذه الدنيا بالمقارنة مع الآخرة ومقاماتها المعنويّة وما فيها من قرب الله. ولكي لا تؤدّي كلّ إغراءات الدنيا إلى غفلتنا عن الآخرة والمقامات المعنويّة، يجب علينا أن نكون دائمًا في ذكر الموت. فذكر الموت يقلّل الدنيا في عين الإنسان ويحفظه من خدع الشيطان وزخارف هذه الدنيا.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيّته لعبد الله بن جندب: «**واجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ**». يجب أن تكون نظرتنا إلى الدنيا بحيث يؤدّي ذلك إلى المزيد من التوجّه إلى الموت وعالم الآخرة. إنّنا نستطيع أن ننجو من قبضة هذه الدنيا في حال قصّرنا من آمالنا فيها ولم تكن أهدافنا الوصول إلى لذائذها، وإذا فكّرنا فليكن

= إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا، أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ [بِأُمِّهِ] بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٧، الخطبة ٣. النص: وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٤، الصفحة ٥٢. النص: لَدُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عِرَاقِ [عُرَاقِ] خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ.

تفكيرنا بتأمين حاجات اليوم عبر الطريق المشروع، ولا نفكّر بالغدّ الآتي لأنّنا لا نعلم إن كنّا سنبقى أحياء، فهذا تفكيرٌ في غير محلّه. فلو كنّا مكلّفين بشيءٍ في المستقبل فهو مرتبطٌ بالآخرة، وطلب الآخرة قضيةٌ أخرى. إنّ حرصنا على الدنيا وادّخار ما فيها لأجل المستقبل الذي لا يُعلم إذا كنّا سنعيش حتى ندركه يؤدّي إلى المزيد من التعلّق بهذه الدنيا. فعلى الإنسان أن يحارب هذه النزعة ولا يسعى لادّخار شيءٍ للمستقبل، وإذا زاد معاشه عن حاجته فلينفقه. بالطبع، هناك أشخاصٌ قد عبروا هذا المقام ولم تعد الدنيا في يومها وغدها تعني لهم شيئًا. أمّا بالنسبة لأولئك المبتدئين فإنّ مواجهتهم لهذه النزعة الدنيويّة ينبغي أن تكون من برامج حياتهم، فعلينا مثلًا أن ندرّب أنفسنا على أنّه إذا زاد مالنا عن احتياجنا فلا ندّخره للسنوات الآتية بل نسعى لإنفاقه في هذه السنة، وإن لم يكن هناك حاجة فلننفقه في سبيل الله.

بالطبع، من الممكن لأولئك الذين يتمتّعون بالمراتب الإيمانيّة والمعرفيّة العالية أن يكون الأسهل لهم وضع ما يحتاجون في سنتهم هذه في محلٍ ما. لقد كان سلمان (رض) من أولئك الذين لم يختلف عندهم اليوم والغدّ في هذه الدنيا. فإذا كان يضع ما يحتاجه لهذه السنة في مكانٍ ما، فليس بسبب الحرص على الدنيا. فلا يمكن مقارنة ما عند سلمان (رض) من إيمان بما عندنا. فلا شكّ بأنّه كان صاحب دوافع إلهيّة أعلى وراء هذا العمل. أمّا إذا أردنا أن لا نتعلّق بهذه الدنيا، ونحقّق ذلك بواسطة الرياضة، فالأفضل أن لا نفكّر بادّخار شيءٍ للمستقبل وأن نجتنب هذه الروحيّة. وعلى العكس، علينا أن نقوّي في أنفسنا هذه الروحيّة التي تدعونا لإنفاق ما زاد على معاشنا في سبيل الله. وهذا بخلاف رأي البعض الذين يظنّون أنّ البذل والإنفاق يؤدّيان إلى ذهاب المال وضياع رأس المال، وأنّ الادّخار هو الذي يحفظ الأشياء. فالإمام يقول هنا إنّ ما يبقى لك من دنياك لا ينفعك، بل إنّ مالك هو ذاك الشيء الذي يكون ذخيرةً لآخرتك: «**وَلَا تَدَّخِرْ شَيْئًا لِغَدٍ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مَا قَدَّمْتَ وَعَلَيْكَ مَا أَخَّرْتَ**». فالأموال التي يدّخرها الإنسان وتبقى بعد موته في هذه الدنيا لن تكون ذات نفعٍ له، بل إنّها إذا كانت من حقوق الناس ستُعدّ معصية وذنبًا.

نسأل الله تعالى أن يكمل إيماننا ومعرفتنا ويوفّقنا للعمل بتعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.



الدرس الثامن عشر

عدّة نقاط ووصايا أخلاقيّة

- أهميّة الهدفيّة في العمل والنشاط الإنسانيّ
- رفع الاضطراب في ظلّ الاعتماد على الله
- ضرورة الشكر والصبر في مقابل الدنيا
- مشاكل الحياة الدنيا
- الخلاص من مشاكل الدنيا في ظلّ تطبيق التعاليم الدينيّة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ مَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ كَسْبَهُ فَإِنَّمَا يَجْمَعُ لِغَيْرِهِ، وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ فَقَدْ أَطَاعَ عَدُوَّهُ، مَنْ يَثِقْ بِاللهِ يَكْفِهِ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَيَحْفَظْ لَهُ مَا غَابَ عَنْهُ، وَقَدْ عَجَزَ مَنْ لَمْ يُعِدَّ لِكُلِّ بَلَاءٍ صَبْرًا وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ شُكْرًا وَلِكُلِّ عُسْرٍ يُسْرًا. صَبِّرْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ بَلِيَّةٍ فِي وَلَدٍ أَوْ مَالٍ أَوْ رَزِيَّةٍ، فَإِنَّمَا يَقْبِضُ عَارِيَتَهُ وَيَأْخُذ هِبَتَهُ لِيَبْلُوَ فِيهِمَا صَبْرَكَ وَشُكْرَكَ، وَارْجُ اللهَ رَجَاءً لَا يُجَرِّئُكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَخَفْهُ خَوْفًا لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ»[1].

أهمّيّة الهدفيّة في العمل والنشاط الإنسانيّ

لو نظرنا إلى السعي اليوميّ لكسب المعاش في الحياة من الزاوية الماديّة والدنيويّة، لرأينا أنّ كلّ من يسعى يتوقّع أن يرى نتيجة سعيه ويستفيد منه. فلو قام شخص بتقديم ما حصل عليه نتيجة سعيه في الليل والنهار لشخص آخر من دون سببٍ واضح، فإنّ عمله هذا لا ينسجم مع أي منطق سواء كان إلهيًّا أو دنيويًّا وماديًّا. بالطبع، إنّ قضيّة الإيثار هي بحثٌ آخر. فأحيانًا يسعى الإنسان ويقدّم ما حقّقه لشخصٍ أكثر حاجة منه وذلك لأجل رضا الله والأجر الأخرويّ أو في الحدّ الأدنى لأجل إرضاء مشاعره الإنسانيّة، فمثل هذا العمل لا يُعدّ مذمومًا أو قبيحًا. فالحديث هنا عن أولئك الذين يضعون ناتج أتعابهم ومن دون هدف أو سبب مقنع ووجيه، بيد أشخاصٍ آخرين؛ أيّ إنّهم يتكبدّون التعب والمشقّة لجميع رأس مالهم

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨٢ و٢٨٣.

ومن ثمّ يضعون نتيجته بيد آخرين من دون أن يستفيدوا منه. والمصداق البارز لمثل هؤلاء هم الأشخاص البخلاء الذين يحرمون بطونهم وبطون أهلهم وعيالهم، ويدّخرون ذلك لغيرهم. فمثل هذا العمل، بالإضافة إلى أنّه فاقدٌ للثواب والأجر فإنّه يستتبع نتائج سيّئة، لأنّه من الممكن أن تقع هذه الثروة بأيدي أشخاص يستغلّونها بأبشع طريقة.

والفئة الأخرى من هؤلاء هم الأشخاص الذين يعملون بدافع الهوى والهوس. فهم يظنّون أنّهم يعملون وفق إرادتهم ويجلبون النفع لأنفسهم، في حين أنّهم في خدمة أعدائهم وهم غافلون وكأنّهم صمٌّ بكمٌ. فهوى النفس هو العدوّ الباطنيّ للإنسان وهو العامل الذي يحرم الإنسان من سعادة الدنيا والآخرة. إنّ نفس الإنسان هي أعدى أعدائه وهي في باطنه؛ الذين يعملون وفق رغباتهم هم في الواقع أسرى أهواء أنفسهم. إنّ هذا الأمر شبيه بذاك الإنسان الذي يطيع أوامر عدوّه من دون أيّ اعتراض، فأيّ عمل أحمق يقوم به هذا الشخص، فمن هو الإنسان العاقل الذي يعمل وفق أوامر عدوّه من دون أيّ اعتراض؟! إنّ الالتفات إلى هذه النقطة يؤدّي إلى بعث المزيد من المقاومة فينا مقابل أهواء أنفسنا، وحينها لا نوقع حياتنا الدنيويّة والأخرويّة في الخطر ولا نبيع الحياة الخالدة الأبديّة من أجل حصول الحياة الفانية الزائلة.

رفع الاضطراب في ظلّ الاعتماد على الله

لو فكّر كلّ إنسان عاقل وتأمّل قليلًا فإنّه، وإن لم يكن متديّنًا، سيفهم أنّ تكديس الثروة للآخرين هو عملٌ غير عُقلائي. لكن هناك قضايا تحصل، لا يمكن للإنسان، الذي لا يحمل في قلبه الإيمان ولا يعبد الله، أن يدركها جيّدًا. فالإنسان العارف بربّه يصل إلى مقامات معنويّة رفيعة جدًّا على أثر التوكّل والتسليم والرضا بتدبير الله وقضائه بحيث يتمكّن من إدراك تلك القضايا وفهمها. فنحن نعتمد على الأسباب والوسائل المتاحة، مثل القوى البدنيّة والفكريّة الموجودة فينا ومثل الأصدقاء والأهل والأقارب، من أجل تأمين حاجاتنا وذلك في هذه الحياة، وبغضّ النظر عن المعرفة التي نمتلكها تجاه الله تعالى، وهذا أمرٌ طبيعي. لكنّ التربية الدينيّة ليست على هذا النحو، فالدين يربّي الإنسان بطريقة أنّه كلّما شعر بالاحتياج ينبغي أن يبدأ أوّلًا بالتوجّه إلى الله من أجل تأمين حاجته، هذا وإن كانت الإرادة الإلهيّة قد

اقتضت أن تجري هذه الأمور في هذا العالم عن طريق الأسباب، لكن هناك فرقٌ بين أن يرى الإنسان هذه الأسباب الموجودة في الدنيا مجرّد أدوات ووسائل أو أن يؤمن بتأثيرها الاستقلاليّ. فأولئك الذين لا يتمتّعون بنتائج التربية الدينيّة الكاملة، يعتبرون أنفسهم أصحاب التدبير ويرون الأسباب الدنيويّة ذات تأثير مستقل. ولكنّ الدين يُعلّم الإنسان أنّ كلّ شيء هو من الله وأنّ الوجود والبقاء والتدبير والتقدير بيده سبحانه، وأنّ الله هو الذي بمشيئته يعطينا قدرة التصرّف في التكوين والتشريع.

علينا أن نسعى لتقوية هذه الروحيّة في أنفسنا وليكون توكّلنا واعتمادنا على الله قبل أيّ شيء. بالطبع، إنّ هذا الكلام لا يعني أن لا نقوم بأيّ عمل ولا نستفيد من أيّ وسيلة فنجلس في الزاوية ونعتزل وننتظر الله حتّى يقوم بكلّ شيء ويُصلح كلّ شيء، بل الكلام هو في أن نعتبر أنّ أساس كلّ فعل واختيار في هذا العالم هو بيد الله. إنّ خالق العالم قادر على تأمين حاجاتنا من دون الأسباب الماديّة، لكن حكمته اقتضت وجود هذه الأسباب لنكون في موضع آلاف الاختبارات والامتحانات الإلهيّة، فتتوفّر أرضيّة تكاملنا المعنويّ. فلو لم تكن مثل هذه الأسباب والامتحانات الإلهيّة لما كان هناك أيّ تكامل. فلو لم نعمل ولم نرتزق لما طُرح موضوع الحلال والحرام والواجب والمستحبّ ولما كان هناك رشد وتكامل للإنسان. إنّ تكامل الإنسان يأتي كنتيجة للالتزام بالتكاليف، وأرضيّة التكليف تتحقّق في ظلّ وجود أعمال حسنة وسيّئة. فينبغي أن تكون هذه الأسباب موجودة لكي نتكامل، لكنّ المهم هو التوجّه إلى هذه النقطة وهي أنّ هذه الأسباب والأدوات ليست فاعلة في ذاتها بل هناك يدٌ فوقها وكلّ شيء في قبضة قدرته تعالى. يجب أن نصل إلى الحالة التي يكون توكّلنا وتوجّهنا الابتدائيّ إلى الله في كلّ شيء ثم نتّجه بعدها نحو الأسباب. إنّ المعرفة التوحيديّة الخالصة والتربية الدينيّة الأصيلة تقتضي مثل هذه الرؤية.

إنّ الذي يحمل الإنسان على التفكّر والسعي والنشاط إمّا أن يكون مرتبطًا بالدنيا أو بالآخرة، وعلينا أن نعلم أنّ أساس كلّ شيء نريده لدنيانا وآخرتنا هو بيد الله. فأولئك الذين يتوجّهون بقلوبهم وتوكّلهم إلى الله، فإنّ الله يجعل أمورهم ميسّرة ويحلّ مشاكلهم الدنيويّة والأخرويّة وفق تدبيره وتقديره. فبدل أن يعتمدوا على قدرتهم وتدبيرهم ويتعبوا كثيرًا في هذا المجال، فإنّ الله يعينهم لكي تُحلّ

مشاكلهم. ومثل هذا يُعدّ فضلًا مضاعفًا من الله يخصّ هذا النوع من الأشخاص.

كما من المناسب أن نتذكّر دائمًا هذه الآية الشريفة ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[1]، حين نبتلى بالصعاب والمشكلات. فمن كان الله له ما الذي سيحتاجه عندئذٍ؟ إنّ الالتفات إلى هذا الأمر والذي يُعدّ أكبر رأسمالٍ عند المؤمن يؤدّي إلى تقوية اعتقادنا واعتمادنا على الله. أولئك الذين يتمتّعون بمثل هذه القدرة المعنويّة يجدون أنّ مشاكلهم تُحلّ بسرعة.

للأسف، يحدث في الكثير من الحالات ومع الكثيرين أنّهم عوض عن أن يعتمدوا على قدرة الله المطلقة ويتّكلوا عليه حين يُبتلون بالمصاعب، فإنّهم يعتمدون على أمور أخرى. فمثلًا نجد أنّ الأب الذي يسافر ويبتعد عن زوجته وولده المريض، يبقى طوال الوقت قلقًا على حال ابنه. مع أنّ هذا الشخص كان يواجه هذه المشاكل أثناء تواجده في بيته، لكنّه الآن وأثناء سفره يجد أنّ مشكلته قد تضاعفت لأنّه ابتعد عن بيته وحياته. فأولئك الذين يبتعدون عن بيوتهم وأوطانهم للقيام بتكليفٍ ما كالحجّ والعبادة والزيارة الواجبة أو المستحبّة أو تبليغ الدين أو الجهاد وأمثال ذلك فإنّهم شاؤوا أم أبوا سيقلقون على عيالهم وأبنائهم، لكنّ هؤلاء إذا توكّلوا على الله لن يعيشوا مثل ذلك القلق، بل ربّما لن يقلقوا أبدًا لأنّهم يعلمون أنّ من يتولّى أمور أسرتهم هو ذاك الذي قدرته أقوى من الجميع. فبالنسبة لله لا يوجد سفرٌ أو حضرٌ حين يريد أن يعِين، فلو قدّر الله الإعانة فإنّ حضورنا وغيابنا لا دخل له، وإذا كان التقدير الإلهيّ على الإمساك فإنّ حضورنا لن يكون مفيدًا.

ضرورة الشكر والصبر في مقابل النعم والبلاءات

لا تخرج كلّ الأحداث التي تقع في هذا العالم عن إحدى حالتين: فإمّا أن تكون مرغوبة ومتطابقة مع ميولنا، وإمّا أن تكون مخالفة لطباعنا وميولنا. فالصحة والرفاهيّة والراحة والطمأنينة والجوّ الجميل، وأشياء أخرى من هذا القبيل، كلّها نعمٌ. ومن جانبٍ آخر، فإنّ المرض والفقر والمصائب والاقتراض وأمثال ذلك،

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣٦.

ممّا لا يتوافق مع ميولنا، تُعدّ بلاءات. إنّ عالم الدنيا محفوفٌ بهذين النوعين من الحوادث، ولا يوجد شخصٌ في هذه الحياة الدنيا لم يَخبُر الأمور المرغوبة أي لم يكن له أيّ نعمة، وكذلك لا يوجد شخصٌ في هذه الحياة ممّن لم يواجه أيّ مشكلة: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾[1]. فالحياة في هذا العالم متلازمة مع الألم والصعاب.

إنّ تعاليم الدين وتربيته الأصيلة تعلّمنا أن نكون شاكرين مقابل النعم من أجل أن تزداد، وأن نصبر مقابل البلاءات لكي يزداد أجرنا وثوابنا. ولكي يتمكّن الإنسان من سلوك الطريق الصحيح، يجب أن يأخذ هذه القضيّة بعين الاعتبار وهي أنّه إذا واجه مشكلة ما فسوف يتبعها راحة وفرجٌ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا * إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾[2]. وإذا لم يلتفت الإنسان إلى هذه القضيّة فلن يحصل على راحة الدنيا ولا سعادة الآخرة. من لم يشكر الله لن يتمتّع بسعادة الآخرة، ومن لم يصبر على البلاءات ستزداد حياته صعوبة ومرارة، وبالإضافة إلى أنّ مشاكله لن تُحلّ سيجد أنّها قد تضاعفت. بناءً عليه، إذا كنّا نبتغي راحة الدنيا وسعادة الآخرة يجب أن نصبر على الصعاب والبلاءات، فإن لم نفعل ذلك سنكون من العاجزين. لهذا، يوصي الإمام عبد الله بن جندب وكذلك جميع المؤمنين بهذا الأمر ويقول: «**وَقَدْ عَجَزَ مَنْ لَمْ يُعِدَّ لِكُلِّ بَلَاءٍ صَبْرًا وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ شُكْرًا وَلِكُلِّ عُسْرٍ يُسْرًا**».

مشاكل الحياة الدنيا

إنّ هذا العالم الذي نعيش فيه يتلازم مع الآلام والصعاب والمصائب وأنواع المزعجات. فكلّ إنسانٍ شاء أم أبى سيُبتلى في حياته ببعض هذه البلاءات. فعلى سبيل المثال، إمّا أن يموت الإنسان قبل أمّه وأبيه أو بعدهما، فإن مات قبلهما سيكون ذلك مصيبة لهما، وإن مات بعدهما فإنّ المصيبة ستنزل به. ومثل هذه الحالة أيضًا تجري على الإخوة والأخوات والأصدقاء والأعزّاء. فلا يمكن أن نجد شخصًا لم يلقَ في حياته كلّها أي نوع من الصعاب والأمراض. إنّ هذه المصاعب

---

(١) سورة **البلد**، الآية ٤.

(٢) سورة **الشرح**، الآيتان ٥ و٦.

الطبيعيّة والاجتماعيّة تحدث لكلّ إنسان وإن تفاوتت. ونجد الإنسان في سعيٍ دائم لكي يأمن من هذه الأمور المؤلمة والمزعجة بأيّ وسيلة تُتاح له؛ بالطبع، قد ينجح في كثيرٍ من الأحيان، لكن حين ندقّق ونتأمّل جيّدًا سنرى أنّه إلى جانب كلّ رفاهيّة وطمأنينة ونعمة، وإلى جانب كلّ اختراع واكتشاف هناك مصائب جديدة تُلقي بظلالها على حياة الإنسان. في الماضي، كان الإنسان يسافر بواسطة الجمال والجياد وأمثالها، وبالطبع كان يعاني من مصاعب عديدة، وهو الآن يسافر بواسطة الحافلات والقطارات والطائرات.

في ذلك الزمان البعيد، كان من النادر أن يصدف أن يوقع المركب راكبه ويؤدّي إلى موته، لكنّنا اليوم نجد أنّ قطارًا واحدًا قد يخرج عن سكّته ويتسبّب بمقتل العشرات، أو تسقط الطائرة ويُقتل المئات. ففي هذا المجال، يتصوّر البعض أنّ أولئك الذين يمتلكون الثروات الطائلة يعيشون براحة أكبر في حياتهم، لكنّنا حين نقترب إلى تلك الحياة سنشاهد أنّ مصائبهم هي أكبر بكثير من الآخرين. فقد تكون راحة بالِ مزارعٍ يعيش في قرية نائية ويشتغل بكدّ عرقه وجبينه أكثر من ذاك الذي يعيش في القصور الفلانيّة. هذا وإن كان من الممكن أن لا يكون هذا المزارع قد جرّب الكثير من اللذائذ التي يتمتّع بها سكّان القصور، لكنّه في المقابل في مأمن من مشاكل الحياة التي يقع فيها أولئك. بالطبع، هذا الكلام لا يعني أنّه أينما وُجدت نعمة لا بدّ من وجود مصيبة إلى جانبها، لكن لا شكّ بأنّ الواقع يقول لنا إنّ حياة الإنسان محفوفة بأنواع الأمور المرغوبة وغير المرغوبة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الحياة الدنيويّة لا يمكن أن تخلو من المصاعب، فهذه خاصّية الحياة الدنيا؛ على عكس السعادة الأخرويّة التي لا يصاحبها أيّ نوع من المصاعب والغموم والغصص: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[1]. والله تعالى لم يعِد أحدًا بمثل ذلك في هذه الدنيا، ولا يوجد من جرّب حياة الدعة والراحة مدى العمر في هذه الدنيا.

نجد الناس في سعيٍ دائمٍ للتقليل من مشاكل الحياة عبر تأمين وسائل الراحة والاستقرار، ونجدهم أيضًا قد حقّقوا بعض النجاحات في هذا المجال. ومن

---

(١) سورة الحجر، الآية ٤٨.

الطرق التي يتوسّل بها الناس لأجل التقليل من الآلام والأمور المزعجة هي اللجوء إلى الملاهي. فهذا الإنسان يعمل اليوم جاهدًا على اختراع جميع أنواع الملاهي والألعاب من أجل الخلاص من كلّ ما يُشغل باله ويزعجه. وأكثر الاختراعات شيطنة في هذا المجال هي المسكرات والمخدّرات. فحين يكون الإنسان سكرانًا ينسى غمّه وغصصه ويبقى في هذه المدّة القصيرة فارغ البال من كلّ شيء.

ولكن على أيّ حال، إنّ مثل هذه الحالة لا يمكن أن تغيّر ماهيّة الحياة الدنيا. لهذا، نجد أنّ هؤلاء الذين يشغلون أنفسهم بأنواع الملاهي والمشاكل وإن كانوا سينسون همومهم وغمومهم في تلك اللحظات ولكنّهم سيجدون مصائبهم قد تضاعفت. أولئك الذين يدمنون على المخدّرات يقعون في بلاء عظيم لا يمكنهم الخروج منه بعد ذلك بسهولة. فهذا الإنسان لن يقدر بمثل هذه الطريقة على الابتعاد عن آلامه وهمومه، بل سيُبتلى بأنواع الأمراض الجسمانيّة والروحيّة والنفسيّة.

إنّ إنسان اليوم لم يتمكّن لحدّ الآن من اكتشاف طريق الحلّ الأساسيّ للتعامل مع المصاعب والمصائب. فحصيلة كلّ هذه التعاليم الموجودة في علم النفس هي أن تحمل الإنسان على تقبّل هذه الحياة والتكيّف معها. بالطبع، إنّ هذه التلقينات قد تكون مؤثّرة إلى درجةٍ ما، لكنّها لن تتمكّن أبدًا من اجتثاث جذور المصاعب والمشاكل.

الخلاص من مشاكل الدنيا في ظلّ تطبيق التعاليم الدينيّة

يقدّم الدين وصفة علاجيّة يمكن للإنسان أن يتخلّص بواسطتها من تلك الأمور المزعجة في الحياة. فلو أدرك الإنسان هذه المعرفة والرؤية التي تقول بأنّ كلّ النعم المتاحة له ليست من نفسه، بل هي أمانات وضعها الله تعالى بيده، فإنّه لا يمكن أن يتألّم أو ينزعج في حال فقدانها. وحقًّا لو أنّ أحد أصدقائكم أعاركم كتابًا لليلةٍ واحدة، ثمّ استرجعه في اليوم التالي، فهل ستتألّمون؟ فعلى الإنسان أن يصدّق بأنّ كلّ ما في هذه الدنيا هو من الله وقد وُضع بيده على نحو الأمانة لكي يستفيد منه مدّةٍ ما، وحين تقتضي حكمة الله استرجاعه فسوف يؤخَذ منّا. بناءً عليه، إنّ إدراك هذا الأمر وهو أنّ كلّ نعم الدنيا هي من الله يؤدّي إلى راحة الإنسان. من البديهيّ أنّ المُلحد، الذي لا يؤمن بالله، لا يمكنه أن يحمل مثل هذا الاعتقاد؛ فمثل هذا

التصديق والاعتقاد لا يتحقّق إلّا في ظلّ الدين، ويجب أن يكون الإنسان عارفًا بالله لكي يتمكّن من الاستفادة من هذا الدواء الذي هو عين المعرفة والإيمان.

النقطة الأخرى هي أنّ نعم الله لم تُعطَ لنا لهوًا وعبثًا. فإنّ الله يعطي عباده تلك النعم لأجل اختبارهم، حتّى يرى أوّلًا فيما إذا كانوا يشكرونه عليها، وثانيًا في حال استرجعها منهم هل يصبرون أو يجزعون.

إنّ الدين يعلّمنا أنّنا إذا صبرنا وشكرنا الله على نعمه فسوف نصل إلى السعادة الأبديّة، ذلك لأنّ الإنسان بهذا العمل يوفّر أسباب كماله المعنويّ. فكلّ من يحوز على هذه المعرفة سوف يرحّب بكلّ حوادث العالم، لأنّه يعلم أنّها وسائل رشده وتكامله الأبديّ.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا عبد الله بن جندب وجميع شيعته: «**صَبِّرْ نَفْسَكَ عِنْدَ كُلِّ بَلِيَّةٍ**»، أيّ احمل نفسك على الصبر حين تواجه أيّ مشكلة. فالإنسان شاء أم أبى سيواجه أنواع المشاكل في حياته؛ ومنها على سبيل المثال مصيبة الابن والتي تُعدّ من أشدّ أنواع المشاكل وأكثرها تأثيرًا، وكذلك فقدان المال والثروة الذي هو فائق التأثير، لأنّ تعلّق القلب بالمال والولد يكون أكثر من أيّ شيء آخر. وعلى الإنسان أن يصبر عند حصول مثل هذه المصائب والبلاءات. بالطبع، من الممكن أن نجد أشخاصًا لا يؤمنون بالله ومع ذلك يوصون بالصبر، لكن الاختلاف بين هؤلاء والتعاليم الدينيّة هي أنّ كلامهم ينطلق من الاضطرار والعجز، في حين أنّ الدين يجعل الصبر عذبًا، فطريقته تؤدّي إلى تسهيل تحمّل الإنسان للمصائب. إنّ فقدان المال والولد يؤدّي إلى تألّم الإنسان حين يعتقد أنّ تلك الأمور نابعة من ذاته، أمّا إذا اعتقد بأنّها أمانة واستعارة من الله تعالى، فإنّه لن يفقد الصبر ولن يجزع أبدًا حين فقدانها.

كما أنّ على الإنسان أن يلتفت إلى أنّ الله لا يضع بين يديه أمانة من دون حكمة، بل إنّ فلسفة النعم الإلهيّة هي الامتحان والاختبار. إنّ هدف الامتحانات الإلهيّة وفلسفتها هي أن يكون الإنسان على مفترق طريقين فيختار ما يشاء منهما. وحين يضع الله الإنسان على مفترق طريقين فإنّه يختبره فيما إذا كان سيشكر مقابل النعمة أو لا، وحين يسلبه هذه النعمة يرى إن كان سيصبر أو لا. وفي كلّ الأحوال، فإنّ الامتحان يكون لمصلحة الإنسان لأنّه إذا خرج مرفوع الرأس من الامتحانات سينال سعادته الأبديّة.

عدّة نقاط ووصايا أخلاقيّة ■

إنّ مثل هذه الرؤية لا تتحقّق إلّا في ظلّ الاعتقاد بالله والإيمان بالدين. فالدين جوهرة نفيسة إن لم نحصل عليها لن نتمتّع بهذه المعارف وهذه الطمأنينة والسكينة الروحيّة.

وفي هذا المقطع من الرواية، ذكر الإمام بعض المسائل المرتبطة بالخوف والرجاء فيما يتعلّق بالعذاب والرحمة الإلهيّة، ولأنّنا تعرّضنا لهذا البحث سابقًا فإنّنا نحيل هذه الجملة إلى ذلك الشرح.



الدرس التاسع عشر

فليحذر العاقل من تملّق الجاهل

- ضرورة إدراك الأفراد لانعكاسات سلوكهم
- ضرورة الحذر من كلام التملّق ومقاومته
- تقوية روحيّة تقبّل النقد
- اجتناب العجب والتكبّر

«وَلَا تَغْتَرَّ بِقَوْلِ الْجَاهِلِ وَلَا بِمَدْحِهِ فَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَتُعْجَبَ بِعَمَلِكَ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ الْعِبَادَةُ وَالتَّوَاضُعِ»[1].

ضرورة إدراك الأفراد لانعكاسات سلوكهم

نحن بحاجةٍ إلى ترسيخ العلاقات مع الآخرين والاستفادة من تجاربهم وإمكاناتهم إذا أردنا تأمين حاجاتنا الفرديّة والاجتماعيّة. وأكثر العوامل التي تؤثّر في حياتنا الفرديّة والاجتماعيّة، والدنيويّة والأخرويّة، هي تلك الأشياء التي نتعلّمها من الآخرين. ولو تحقّق هذا الارتباط بالشكل الصحيح، بحيث تنكشف الوقائع للإنسان، لاستطعنا أن نستفيد منه لأجل تحقيق أهدافنا الدنيويّة والأُخرويّة، أمّا إذا لم يكن هذا الارتباط سليمًا فيمكن أن تلحق به الآفات. فعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون لبعض الكلام الذي يقوله لنا الآخرون تأثيرًا يُبعدنا عن إدراك الواقعيّات بل من الممكن أن يوقعنا في الأخطاء؛ وهذا الأمر هو بعكس الهدف الذي نبتغيه من وراء التعامل مع الآخرين، وكمثالٍ فإنّ كذب الآخرين يمكن أن يؤدّي إلى انفصام عُرى الروابط وخداع الإنسان.

فمثلما أنّنا نحتاج إلى إدراك الوقائع الخارجيّة والاطّلاع على الأحداث التي تدور حولنا، ينبغي أن نطّلع على موقعيّتنا في المجتمع وأن نُدرك أنّ ما نقوم وما نتلفّظ به سيكون له تأثيرًا وردّات فعل في المجتمع. إنّ هذا الأمر يؤدّي إلى اطّلاعنا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٣.

على أخطائنا والقيام بتصحيحها، ولو صدر منّا خطأ وزلةٌ نسارع إلى جبرانهما. إذا لم يعلم الإنسان مدى تأثير كلامه وسلوكه في الآخرين، فإنّه لن يتمكّن من تأدية مسؤوليّاته في المستقبل أداءً صحيحًا؛ لا سيّما أولئك الذين يتمتّعون بموقعيّةٍ اجتماعيّة مميّزة في المجتمع، فإنّ هذه القضيّة تكون ذات أهمّيّة أكبر بالنسبة لهم لأنّ الأنظار تتطلّع إليهم، وإنّ أصغر سلوكٍ أو تحرّكٍ يصدر منهم سيكون تحت المجهر. بناءً عليه، على هؤلاء أن يدركوا تمامًا آثار أقوالهم وأفعالهم في المجتمع، أي أن يعلموا أوّلًا إذا ما كان استنتاج الناس من كلامهم أو سلوكهم إيجابيًّا أو سلبيًّا، وثانيًا إذا ما كان ذلك سيؤدّي إلى نفع الناس أم لا، وثالثًا إذا ما كانوا قد أخطأوا في هذا المجال أم لا.

إنّ التنظيم الصحيح للعلاقات والمعاملات بين الناس يعتمد على معرفة الأسئلة المذكورة والإجابة الصحيحة عنها.

فالالتفات إلى هذه النقاط، لا سيّما بالنسبة للمبلّغين في المجال الدينيّ، هو أمرٌ مهمٌّ جدًّا. ويوصي الأعاظم أن يستمع الخطباء إلى تسجيلات خطبهم لكي يلتفتوا إلى أخطائهم ويعملوا على تغييرها. على أيّ حال، من المسائل التي ينبغي الالتفات إليها عند التعامل مع الآخرين هي أنّ مدح الناس لنا وثناءهم علينا ليس بالضرورة أن يكون ناشئًا من الحكم الواقعيّ للأشخاص علينا، فربّما يكون كلامهم مخالفًا للواقع. فهناك أشخاصٌ قد لا يُظهرون ما يحملونه في قلوبهم تجاهنا لأسبابٍ مختلفة.

وإنّ من الدوافع الأكثر شيوعًا، والتي يمكن أن تجعل الأشخاص لا يظهرون لنا سلوكنا بالشكل الصحيح، هو طلبهم للحظوة لدينا، لأيّ سبب كان؛ كالتلميذ الذي يريد أن يكون مقرّبًا من أستاذه، أو العامل الذي يريد أن يتقرّب من رئيسه. كلّ إنسانٍ يحبّ نفسه، وإذا التفت إلى أنّه قام بعملٍ جيّد، فإنّه يبتهج. أولئك الذين هم من أهل الإيمان يقولون «الحمد لله» لقد وفّقنا الله للقيام بهذا العمل الخيّر في هذا المجال. هناك أشخاصٌ يستغلّون غريزة حبّ الذات هذه، ومن خلال إخفاء الوقائع، يتحدّثون بطريقة تُعجب الآخرين. والنموذج البارز لذلك هو تملّق البعض تجاه من يتمتّع بالموقعيّة الاجتماعيّة الرفيعة. إنّ دافع المتملّقين هو التأثير على كلّ من يتمتّع بالموقعيّة الاجتماعية المميّزة، وذلك لكي يحقّقوا مآربهم وأطماعهم من خلالهم، وهذه هي إحدى الطرق الشيطانيّة الموجودة بين الناس.

بالطبع، هناك أشخاصٌ لا يحتاجون إلى إرشادات الشيطان لأنّهم بأنفسهم شياطين وحتى الشيطان قد يتعلّم منهم! فمثل هؤلاء ولأجل أن يتفاخروا ويرتفعوا يسعون إلى الثناء على بعض الأشخاص، الذين قد يعجبون بمثل هذا الثناء، فينالون بذلك حظوة عندهم. إنّ هذا المدح والتمجيد للأشخاص الذين ليس لهم تلك المسؤوليّات المهمّة والرفيعة ليس ذات أهميّة، أمّا بالنسبة لأولئك الذين يتولّون المناصب الاجتماعيّة الحسّاسة فهو خطرٌ جدًّا. على مسؤولي المجتمع أن يطّلعوا جيّدًا على انعكاس أقوالهم وسلوكيّاتهم بين الناس. فلو أخطأوا، وقام الحواشي المحيطين بهم بالتظاهر بأنّه لا يوجد مشكلة في عملهم وأنّ الناس راضين عنهم، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى انخداع ذلك المسؤول. فلو كان مثل هذا الشخص محبًّا للدنيا فإنّ دنياه ستكون في خطر لأنّ إقبال الناس عليه سيتضاءل عاجلًا أم أجلًا وبذلك يخسر شعبيّته، وإذا كان يعمل في سبيل الله فلن يتمكّن من تصحيح أخطائه.

ضرورة الحذر من كلام التملّق ومقاومته

ما هي مسؤوليّة الإنسان مقابل مثل هذه الأخطار؟ وبعبارةٍ أخرى، ما الذي يفعله الإنسان لكي يصون نفسه من هذه المخاطر؟ وما العمل لكي لا ندع المجال للمتملّقين؟ من جانبٍ آخر، ماذا نفعل لكي لا ننخدع بالمتملّقين؟ إنّ هذا الأمر صعبٌ، ذلك لأنّ الإنسان يحبّ ذاته وهو بطبعه لا يحبّ أن يُنتقد أو يتعرّض للذمّ. فجميع الأفراد هم هكذا في البداية وعلى نحوٍ ذاتيّ، إلّا أولئك الذين يسعون لتهذيب أنفسهم، فعليهم أن يلتفتوا إلى أنّ مثل هذا الأسلوب يمكن أن يوقعهم في المخاطر العديدة. حين يلتفت الإنسان إلى أنّ التصرفات المتملّقة والمادحة يمكن أن تجلب له الكثير من الأضرار، فمن القطعيّ أنّه سيقرّر المقاومة مقابل هذا النوع من السلوكيّات الرديئة، أي إنّه سوف يسيء الظنّ بكلّ ثناءٍ وتمجيدٍ يُظهره الآخرون له. بالطبع، ليس من الضروريّ أن يُسيء الظنّ بالشخص نفسه لكنه سيشكّ بشأن كلامه، لأنّه من الممكن أنّ ذاك الشخص قد وقع في الخطأ أو المبالغة. فعلى الإنسان أن ينظر بعين الشكّ إلى كلّ ما يُقال على صعيد مصلحته ومدحه والثناء عليه وتبرير أعماله، ثمّ يسعى للتحقيق واكتشاف صحّة ذلك الكلام أو خطئه.

النقطة الآخرى هي أنّه ينبغي التعامل مع الشخص المتملّق بطريقةٍ تمنعه

من أن يندفع للاستمرار في نهجه وأسلوبه. وهناك روايةٌ مرويّة عن النبيّ الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ»[1]. أي لا تفسحوا المجال لهم لكي يمدحوكم ويثنوا عليكم، بل تعاملوا معهم بحدّةٍ وشدّة لكي لا يتجرّؤوا على مدحكم.

تقوية روحيّة تقبّل النقد

على الإنسان أن يسعى لتقوية روحيّة تقبّل النقد من خلال تلقين النفس، وعليه أن يفسح المجال للآخرين لكي يظهروا له عيوبه. هناك روايات كثيرة وردت في هذا المجال ومنها تلك الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «أَحَبُّ إِخْوَانِي إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»[2]. فالتعبير بالهديّة بشأن تذكّر العيب في هذه الرواية هو أمرٌ ملفتٌ. أولئك الذين هم بصدد تهذيب أنفسهم وبنائها وخصوصًا أولئك الذين يتحمّلون المسؤوليّات الاجتماعيّة يجب أن يشجّعوا الآخرين لمفاتحتهم بشأن عيوبهم وذلّاتهم وأن يعتبروا ذلك هديةً منهم. ففي هذه الحالة، سيرغب الآخرون بإظهار أخطائهم، هذا أوّلًا، وثانيًا لن يُبتلى هذا الإنسان نفسه بآفة العجب وتضخيم الأنا.

أولئك الذين يكذبون لأجل مدح الآخرين والتملّق لهم هم أشخاص ليسوا بعقلاء. ولو كانوا عقلاء لأدركوا أنّهم بهذا العمل سيشاركون في الكثير من الانحرافات والأخطاء التي تحدث في المجتمع، بالإضافة إلى أنّه سيأتي يومٌ يُفتضحون ويُخزون في الآخرة، ذلك لأنّهم بهذا الفعل يجعلون الآخرين يُخطئون. فالإنسان العاقل والحرّ لا يرتكب مثل هذا الفعل، ولا تدفعه الرغبة للحصول على بعض المنافع الماديّة أن يرتكب كلّ هذه الجنايات والخيانات الماديّة والمعنويّة بحقّ الآخرين. فقط أولئك الذين يعيشون الدناءة والانحطاط هم الذين يسعون للحصول على حظوةٍ عند الآخرين من خلال التملّق والتزلّف.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٠، الصفحة ٢٩٤.

(٢) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة١، ١٤١٦هـ)، الجزء ٣، الصفحة ٢٢٠٧.

اجتناب العجب والتكبّر

على الإنسان أن يكون مراقبًا لكي لا يقع تحت تأثير الكلام المتملّق للمتزلّفين والجاهلين ولا يغترّ بكلامهم: «**وَلَا تَغْتَرَّ بِقَوْلِ الْجَاهِلِ وَلَا بِمَدْحِهِ**». فإذا أردنا أن نصون أنفسنا مقابل كلام المتملّقين، يجب أن نتمتّع بإرادةٍ قويّةٍ وننطلق بعزمٍ أكيد واستعدادٍ روحيٍّ ونفسيٍّ مناسبٍ لمقاومة مثل هذا النوع من الكلام لكيلا تتشكّل فينا الصفات الرذيلة للعجب وحبّ الذات. إنّ روحيّة التكبّر هي أسوأ آفة تجرّ الإنسان إلى مستنقع السقوط والزوال. فمفردات التكبّر والاستكبار هما من المفردات القرآنيّة الأساسيّة التي تمّ التركيز عليها في العديد من الموارد، «الذين استكبروا» و«يستكبرون» و«مستكبرين» و«متكبّرين» وأمثالها. كما ويستعمل **القرآن الكريم** تعبير الاستكبار حتى بشأن أولئك الذين يقصّرون في بعض الأمور العباديّة مثل الدعاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]. فالمقصود من التكبّر عن العبادة في هذه الآية هو الإعراض عن الدعاء، فالذين لا يدعون هم في الواقع قد استكبروا عن عبادة الله، فهؤلاء يشعرون بالعار لأنّهم سيخضعون رقابهم بين يديّ الله. إنّ حقارة الإنسان ودناءته قد تصل إلى حيث يصبح مستعدًّا للذهاب إلى عتبة مخلوق الله لكنّه لا يدقّ بابه تعالى! والقرآن لا يقول إنّ هؤلاء يتمنّعون عن الدعاء بل يستخدم لفظ «يَستَنكِفون»، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ «يَسۡتَكۡبِرُونَ» عَنۡ عِبَادَتِي﴾[2]. فما أوصل إبليس إلى تلك المنطقة الشيطانيّة هو ذاك الاستكبار: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾[3].

إنّ الاستكبار عن قبول الحقّ قد جرّ الكثير من الناس على مدى التاريخ نحو الانحطاط والتسافل حتّى ساقهم إلى أسفل سافلين. بالطبع، إنّ استكبار شخصٍ كفرعون لا يتحقّق دُفعةً واحدة، بل إنّ الإنسان ينجرّ شيئًا فشيئًا إلى مثل هذه المفاسد. فلو أنّ الإنسان نهض في الوقت المناسب لمحاربة هذه الروح الاستكباريّة فإنّه لن يُبتلى أبدًا بالاستكبار عن الحقّ. فلو كان الإنسان عارفًا بالحقّ

---

(١) سورة **غافر**، الآية ٦٠.

(٢) سورة **غافر**، الآية ٦٠.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٣٤.

ويقدّر خدمات الآخرين ويشكرهم، فإنّه سيجد في نفسه روح الشكر مقابل نعم الله. ويوصي الربّ المتعال في القرآن بشكره وشكر الوالدين: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، وسرّ جعل شكر الوالدين في القرآن إلى جانب شكر الله تعالى هو أنّ الإنسان يقدر بسهولة على إدراك قيمة الأبّ والأمّ. فأيّ إنسانٍ يتمتّع بالقليل من الإنصاف يستطيع أن يُدرك أي خدمات يقدّمها للوالدين، وخصوصًا الأمّ، في حقّه. فلو كان الإنسان بصدد تقدير هذه النعمة الواضحة فسوف يكون شاكرًا لله أيضًا، أمّا إذا لم يكترث لهذه النعمة فإنّه لن ينطق بشكر الله.

حين تقوى الروحيّة المضادّة للتقدير (وهي روحيّة الاستكبار) في نفس الإنسان، فإنّه يكون قد اقترب خطوةً نحو جهنّم. فالإنصات إلى مدح المتملّقين يجعل الإنسان غافلًا عن عيوبه. ولو لم يطّلع الإنسان على عيوبه فسوف يصاب بالعجب والتكبّر، وحين يبتلى بالتكبّر فإنّه يسلك طريق الكفر: «**وَلَا تَغْتَرَّ بِقَوْلِ الْجَاهِلِ وَلَا بِمَدْحِهِ فَتَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَتُعْجَبَ بِعَمَلِكَ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الْعَمَلِ الْعِبَادَةُ وَالتَّوَاضُعِ**». إنّ ما ينسجم مع العبادة هو التواضع. فلو تكبّر الإنسان سوف يُحرم من التواضع، وإذا حُرم من التواضع سيُحرم من العبادة، وإذا حُرم من العبادة فإنّه يكون في الواقع قد حُرم من هدف خلقه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. وفي النتيجة، فإنّ الإنسان كلّما تكبّر ابتعد عن الله، وكلّما قويت فيه روحيّة التواضع اقترب من الله.

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ١٤.

(٢) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.



الدرس العشرون
علاقة المؤمن بالدنيا والماديّات

- عدم تعلّق القلب بالدنيا
- الاستفادة الصحيحة من العمر
- نظرة الإسلام بشأن التنمية الاقتصاديّة
- نقاط حول الاستفادة من نعم الدنيا
- الأشكال المختلفة لعلاقة الإنسان بمال الدنيا

«فَلَا تُضَيِّعْ مَالَكَ وَتُصْلِحَ مَالَ غَيْرِكَ مَا خَلَّفْتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكَ، وَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَهُ اللهُ لَكَ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَّا إِلَى مَا عِنْدَكَ، وَلَا تَتَمَنَّ مَا لَسْتَ تَنَالُهُ فَإِنَّ مَنْ قَنِعَ شَبِعَ وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ لَمْ يَشْبَعْ، وَخُذْ حَظَّكَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلَا تَكُنْ بَطِرًا فِي الْغِنَى وَلَا جَزِعًا فِي الْفَقْرِ»[1].

عدم تعلّق القلب بالدنيا

لقد ذُكرت الكثير من المسائل المتعلّقة بالزهد والقناعة وعزّة النفس في **القرآن الكريم** وفي روايات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما أنّ كتبنا الأخلاقيّة وخصوصًا الكتب ذات الطابع الراوئيّ، قد تضمّنت أبحاثًا كثيرة في هذا المجال. والنقطة الموجودة هنا هي أنّه في مثل هذه الحالات تجري العادة على طرح وتبيين بُعدٍ واحد للقضيّة، لهذا فإنّ مسؤوليّة العلماء والفقهاء أي أولئك المتخصّصين بالدين وبكلمات أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومباني الإسلام هي أن يلتفتوا إلى سائر الأبعاد ويبيّنوا نظرة الإسلام ونظرة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الموارد الخاصّة بدراستها وتحليلها.

وهنا، يوجد مسألة وهي أنّ توجّه الإنسان لا ينبغي أن يكون نحو الأمور المادّيّة ومتاع الدنيا الزائل، أي إنّ تعلّقاته لا ينبغي أن تكون في الشهوات واللذّات الدنيويّة العابرة، بل ينبغي أن يكون بعيد النظر ومتوجّهًا إلى الآخرة وصاحب همّةٍ عالية فيلتفت إلى هذا الأمر وهو أنّ الحياة الدنيا ليست سوى أيام قليلة وأنّ الحياة

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٣.

الأبديّة والحقيقيّة هي في عالم آخر. وعلى أساس هذه الرؤية، إنّ الإنسان لا يعدّ كلّ هذه الحياة الدنيا بما فيها من نعمٍ، حتّى لو لم تكن من نصيبه، شيئًا بالقياس مع عالم الآخرة، لأنّه بحسب نظره، الدنيا محدودة ومتناهية وعالم الآخرة غير محدود وغير متناهٍ، ومن الواضح أنّه لا يوجد أيّ مقارنة بين المتناهي واللامتناهي، فلو قلنا إنّ النسبة بين المتناهي واللامتناهي بمقدار طرفة عين فهذا أيضًا مبالغة.

فلو قارنّا عمر هذه الدنيا من بدايتها إلى نهايتها، بما يشمل الكرة الأرضيّة وغيرها من الكواكب الشمسيّة وحتّى من المجرّات الأخرى تلك المجرّات التي تفصلنا عنها مليارت السنوات الضوئيّة، مع الحياة الآخرة لما وجدنا أي نوع من النسبة بينهما، ذلك لأنّنا نقارن بين المحدود واللامحدود. فلو كان حال عمر كلّ هذه الدنيا بالمقارنة مع الآخرة على هذا النحو، يتّضح جيّدًا حال العمر المحدود للإنسان الذي يُقارب المئة سنة! هذه هي الرؤية التي تعرضها الأديان الإلهيّة ويعرضها أنبياء الله على الإنسان. ما ذُكر بشأن صغر الدنيا مبنيٌّ على رؤية فلسفيّة واعتقاديّة علميّة عميقة، وهذا ما يتطلّب من الإنسان ألّا يعلّق قلبه بهذه الدنيا وزخارفها ولو بمقدار رأس إبرة.

الاستفادة الصحيحة من العمر

المسألة الآخرى هي أنّ هذه الحياة الدنيا وإن كانت صحيحةً وهي أقلّ من طرفة عين، لكن يجب الالتفات إلى أنّ هذه الحياة المحدودة هي التي تحدّد مصير حياة الإنسان في الحياة الأبديّة. فإنّ سعادتنا أو شقاءنا في الحياة الأبديّة اللامتناهيّة مرهونان بأعمالنا التي نؤدّيها في الحياة الدنيا. بناءً عليه، فإنّ الحياة الدنيا لا قيمة لها من جهة وهي ليست بشيء مقارنةً بالحياة الآخرة، لكنّها من جهةٍ أخرى، وبلحاظ تأثيرها في الحياة الآخرة، ذات قيمةٍ متلازمةٍ مع قيمة الحياة الآخرة، ولهذا فإنّها تساوي قيمة الحياة في العالم اللامتناهي لأنّ نتيجتها هي اللانهاية: فإمّا أن تؤدّي إلى النعمة اللامتناهية وإمّا العذاب اللامتناهي. لهذا، لا ينبغي أن نحسب للذائذ الدنيا مثل هذا الحساب، لكن علينا أن نحسب بدقّة قيمة العمر الذي نعيشه في هذه الدنيا ولا نضيّع شيئًا منه ولو كان طرفة عين. من الطبيعيّ أنّ إدارة الحياة الفرديّة والأسريّة لا تكون ممكنةً من دون النشاط والسعي. فهذه سنّة الله التي اقتضت أن يكدح الإنسان في الدنيا لكي يؤمّن حاجاته الفرديّة وحاجات

أسرته وكذلك قسمًا من حاجات المجتمع. فما لم تكن هذه الأمور لما تحقّقت أرضيّة الامتحان ولما كان هناك اختيار أو مجال للاختيار أو تكاملٌ للإنسان أو مجالٌ للتكامل أو الثواب الأخرويّ. فذلك الثواب قد أُعدّ للاختيار الإنسانيّ الواعي لا للأنشطة الجبريّة.

من الممكن أن يُطرح هذا السؤال وهو ما يرتبط بالنسبة بين التعب الذي يبذله الإنسان لأجل كسب رزقه، مع التكاليف الأخرى الملقاة على عاتقه وكيف ينبغي أن يجمع بينهما؟ وفي الجواب، ينبغي أن نقول إنّ تشخيص الأولويّات ودرجة أهميّتها يقع على عاتق الفقهاء المتخصّصين بالدين. بالطبع، من الممكن للإنسان أن يُصاب بالتردّد في اختيار وتحديد الأولويّات بين القضايا المبهمة والمشتبهة. فعلى سبيل المثال، هل إنّ الدراسة الآن هي أولويّة أو غيرها؟ وما هو مقدار الوقت الذي ينبغي أن أخصّصه للدراسة وذلك الذي ينبغي أن أخصّصه للعبادة؟ وهل إنّ المطالعة أهمّ أو صلاة النافلة؟ وهل الذهاب إلى الدرس في الصباح الباكر أهمّ أم قراءة القرآن؟ وهل الرياضة أهمّ أم الاستراحة؟ إلى ما هنالك من أسئلة. فكلّ هذه القضايا لها خصوصيّتها التي ينبغي أن ينظّم الإنسان حياته على أساسها.

من الأسئلة الأساسيّة المطروحة في هذا المجال ما يتعلّق بالمقدار الذي ينبغي أن يبذله الإنسان من أجل تأمين الحياة الدنيا؟ ولهذا السؤال جهةٌ فرديّة وبعدٌ اجتماعيّ. ففي البعد الفرديّ، يرتبط الأمر إجمالًا باختلاف حياة كلّ فرد. كمثالٍ، فإنّ الجنديّ الذي يقاتل في الجبهة أو الممرّض الذي يعمل في المستشفى لا يمكنهما القيام بالأعمال الإنتاجيّة. أمّا المزارع الذي يعمل في الحقل أو العامل الذي يعمل في المصنع فأمرهما مختلف، وللمدير الذي يشتغل بالنشاط الإداريّ حسابٌ آخر، وهكذا بالنسبة للطالب والأستاذ وأمثالهما. وعلى كلّ حال، فإنّ ما نتوجّه إليه الآن هو البعد الاجتماعيّ لهذه القضيّة وبحث «التنمية الاقتصاديّة» في الرؤية الإسلاميّة التي من المناسب أن نشير إليها هنا.

نظرة الإسلام بشأن التنمية الاقتصاديّة

من القضايا التي نواجهها اليوم هي ما يتعلّق بوجوب سعي أبناء المجتمع لتحصيل الأمور الماديّة والمال والثروة. فمن القضايا التي طُرحت على مستوى مجتمعنا وخصوصًا بعد الحرب هي وجوب وضع برامج للتنمية الاقتصاديّة. ومنذ ذلك

الحين، طُرحت إشكاليّات من قبيل هل إنّ الإسلام يقبل بالتنمية الاقتصاديّة أم لا؟ وهل ينبغي أن نفكّر برفع مستوى الثروة القوميّة ومستوى حياة الناس أو إنّ علينا أن نعمل على إقناع الناس بخبز يومهم والالتفات أكثر إلى العبادة؟

وقد انجرّت هذه الأبحاث إلى الجامعات والمحافل العلميّة، وقد أُقيمت الكثير من الندوات والمؤتمرات وكُتب الكثير من المقالات في هذه المجالات. بالطبع، هناك من استغلّ هذه الظروف وتحت عنوان الحرص على الناس لكن بدوافع أخرى، يعلمها الله، قاموا بأعمال وقدّموا أبحاثًا مفادها أنّه ينبغي أن نختار بين قبول الدين أو التقدّم الاقتصاديّ. فقد طرح هؤلاء هذه القضيّة وهي أنّ الدين لا ينسجم من أساسه مع التقدّم والتنمية الاقتصاديّة. فالدين بحسب قول هؤلاء يدعو إلى الزهد والقناعة والبعد عن الدنيا، فإذا كانت الثورة، ثورةً إسلاميّة، فلا ينبغي الحديث عن التنمية!

لكن هل إنّ الإسلام حقًّا يعتبر أنّ ثروة الدنيا لا ينبغي أن تكون بيد المسلمين؟! وهل يوجد في الإسلام رؤية تقول إنّ كلّ من كان بيده مجموعة من النعم الإلهيّة فهو مذمومٌ بنظر الإسلام؟! في حين جاء في **القرآن الكريم** كلامٌ أنّ أحد أدعية سليمان النبيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ التي كان يدعو الله بها هي: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[1]. بالطبع، إنّ اليهود والنصارى لا يعدّون سليمان نبيًّا، لكنّه بنظرنا نحن المسلمين أحد أنبياء الله العظام. فلو كان امتلاك الثروة والتمتّع بالنعم الإلهيّة مذمومًا لما مدح **القرآن الكريم** هذا النبيّ، الذي كان يمتلك كلّ هذه الإمكانات الهائلة. ومن النعم التي أعطاها الله لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن سخّر له الريح والجنّ والوحوش والشياطين. وقد كان لسليمان قصورٌ من البلور التي لعلّه لا يوجد مثلها في عالم اليوم، فحين دخلت بلقيس، ملكة سبأ، إلى قصره ظنّت أنّ عليها أن تجمع ثوبها لأنّها ستعبر الماء، فقال لها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[2]. أجل، لقد كان لسليمان مثل هذا القصر وغيره من النعم الكثيرة التي أشير إلى بعضها في **القرآن الكريم**.

---

(١) **سورة ص**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **النمل**، الآية ٤٤.

وفي سيرة وحالات نبيّ الإسلام صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ والأئمّة الأطهار عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، حتّى فيما يتعلّق بأزهد الأئمّة عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، ورد أنّ هؤلاء العظماء كانوا يعتقون عشرات العبيد كلّ سنة. وعتق العبد ليس أمرًا بسيطًا. صحيحٌ أنّه لا يوجد اليوم عبيد لكي نحدّد قيمة العبد بحسب سعر السوق، ولكن يمكننا تصوّر القيمة الإجماليّة للإنسان؛ فهذا الإنسان يكون بخدمة صاحبه طوال حياته فيستفيد من عمله وقدراته ومهاراته. فإذا أراد أحدٌ أن يعتق مئة عبدٍ فلا بدّ أن يكون حائزًا على إمكانيّة هذا الفعل من الناحية الماديّة. نسمع عن الإمام الحسن عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ أنّه قد وزّع ثروته عدّة مرات في حياته الشريفة على الفقراء، فكان يُبقي النصف ويوزّع النصف. فلم يكن جميع أئمّتنا، كما يُقال، محتاجون للقمة خبز الشعير أو يبيتون لياليهم جائعين؛ صحيحٌ أنّهم كانوا زاهدين، لكن لا بمعنى الفقر أو أنّهم كانوا معدمين.

بناءً عليه، إذا أردنا أن نجيب عن السؤال: هل إنّ الإسلام يريد لثروات الدنيا أن تكون بيد المسلمين؟ فالجواب هو الإيجاب. فالإسلام لم يرد للمسلمين أن يكونوا أذلّاء وجائعين ومتخلّفين. إنّ العمل وإنتاج الثروة وامتلاكها وإنفاقها في سبيل الله هي قضيّة، وتعلّق القلب بمال الدنيا والاهتمام بها مقابل الآخرة هي قضيةٌ أخرى. ويُصادف أنّ من النظريّات التي تُطرح اليوم في القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة هي أنّ من عوامل تقدّم الصناعة في العالم هو أنّ المسيحيّين المؤمنين والملتزمين كانوا قليلي الاستهلاك وكثري الادّخار؛ وقد أدّت هذه الأموال المدّخرة إلى نشوء رساميل هائلة وبسببها أُسّست الصناعات الكبرى. وقد ألّف ماكس ويبر كتابًا في هذا المجال وشرح فيه عملية تشكّل رأس المال في أوروبا، وقد اعتبر أنّ من أسباب انتشار الرأسماليّة في الغرب هي الأخلاق البروتستانتيّة، أي تلك الذهنيّة التي أدّت إلى كثرة العمل وقلّة الاستهلاك. بالطبع، نحن لسنا الآن بصدد رفض أو قبول مثل هذا التبرير، لكنّني أريد أن أقول إجمالًا إنّ هناك أشخاصًا يظنّون أنّ قلّة الاستهلاك تؤدّي إلى النموّ الاقتصاديّ. بالطبع، هناك نظرياتٌ مخالفة لهذه النظريّة أيضًا.

على أيّ حال، فالكلام هو أنّ عدم امتلاك الثروة والحقارة والذلّة هو أمر، وامتلاك عزّة النفس وعدم الاكتراث للدنيا والزهد والنزاهة هو مطلبٌ آخر. من الممكن أن يكون هناك من لا يمتلك خبز يومه ومع ذلك يكون عاشقًا للدنيا وعابدًا لها. ومن الممكن أن يكون هناك أشخاصٌ يمتلكون ثروات الدنيا، لكنّهم

طلّاب الآخرة وأعداء الدنيا تمامًا مثلما كان أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والذين تربّوا في مدرستهم. إنّ الوصايا التي صدرت من الإسلام بشأن القناعة والزهد لا تعني أن لا تعملوا ولا تنتجوا ولا تملكوا الثروة، بل من وجهة نظر معيّنة، يصبح اكتساب الثروة واجبًا إذا كان من أجل حفظ العزّة الإسلاميّة مقابل الأعداء، وهذا لا يتنافى أبدًا مع الزهد. إنّ تعاليم الإسلام التربويّة بخصوص القناعة والزهد هي لأجل أن لا يتعلّق المسلمون بهذه الدنيا، لا أن لا يكون لهم دنيا. فهاتان حيثيّتان ينبغي التفكيك بينهما تفكيكًا تامًّا.

بناءً عليه، إنّ التنمية الاقتصاديّة لا تتنافى أبدًا مع روح الزهد. هناك أشخاصٌ يقومون بجمع المال والثروة وشيئًا فشيئًا يتحوّل ذلك المال والثروة بالنسبة لهم إلى موضوعٍ بحدّ ذاته. ففي البداية، يكون المال والثروة بالنسبة للإنسان أداةً ووسيلة لتأمين الحاجات، لكنّه يصبح عند هؤلاء أمرًا مطلوبًا بذاته. فمثل هؤلاء لا يهمّهم كيفيّة إنفاق المال، بل المهمّ عندهم هو مجرّد الحصول على المال وامتلاكه. بالطبع، حين لا ينفقون المال، ففي أحسن الأحوال سيكون هذا المال من نصيب الورثة، على أن يستفيدوا منه استفادة صحيحة. فهل إنّ هذا الأمر عقلائيّ بحيث يتعب الإنسان ويجمع المال وبدل أن ينفقه يضعه بأيدي الآخرين؟ بدل أن يتعب ويستفيد من تعبه ويلتزم بوظائفه الشرعيّة، فإذا خلّف ثروة من بعده فمن حقّ الوارث أن يستفيد منها، وقد جعل الله هذا الحقّ على أساس مجموعةٍ من الحِكم.

نقاط حول الاستفادة من نعم الدنيا

بشأن القضايا التي ترتبط بعلاقة الإنسان بنعم الدنيا والتي غالبًا ما وردت في الآيات والروايات على نحو الذمّ يتمّ القيام بأبحاث مختلفة تتّخذ في العديد من الموارد جانب الإفراط أو التفريط. ولكيلا نُبتلى بالاعوجاج الفكريّ في هذا المجال، يجب أن نفكّك عدّة حيثيّات عن بعضها. وأحد النقاط هي أن نعلم فيما إذا كانت هذه النعم بحدّ ذاتها حسنة أو سيّئة؟ فهل إنّ الأطعمة اللذيذة والألبسة الجيّدة والعطور الطيّبة والأزهار الجميلة وأمثالها هي أشياءٌ سيّئةٌ بحدّ ذاتها؟ هناك أشخاص يتصوّرون أنّ نعم الدنيا هي أمورٌ قبيحة في الأساس وأنّ المستفيدين منها هم من أهل العذاب وجهنّم! وهذا نوعٌ من الخطأ في فهم الآيات والروايات. صحيحٌ أنّ الدنيا شُبّهت في بعض الروايات بالأفعى وبالأشياء المضرّة والخطرة، لكنّ هذا

النوع من المسائل ناظرٌ إلى بُعدٍ آخر سيأتي توضيحه في تتمّة هذا الكلام. يُسمّي **القرآن الكريم** نِعمَ الدنيا بالطيّبات ويقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[1]. وفي موضعٍ آخر، يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[2]؛ فقد ذكر **القرآن الكريم** في العديد من الآيات الزينة تحت عنوان نعم الله؛ بل إنّه ذكر السماء والنجوم كزينةٍ للناس وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[3]، أي إنّ من فوائد خلق السماوات هي أن يبتهج الناس عند النظر إليها. بل إنّ القرآن يذهب إلى أبعد من ذلك فيما يتعلّق ببعض الحيوانات والأنعام ويقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[4]. بالطبع، لأنّنا لا نعيش حياة القرية والزراعة فقد لا نُدرك جيّدًا هذا الجمال، ولكن أولئك الذين يمتلكون هذه الأنعام والدواجن ويتعاملون مع النعاج لا بدّ أنّهم يشاهدون هذا الجمال في تلك القطعان. بناءً عليه، فإنّ جميع النعم الإلهيّة بحسب الرؤية القرآنيّة تُعدّ طيّبات وزينة، ولم تكن يومًا محلّ إنكار أو ذمّ.

النقطة الثانية: هل ينبغي الاستفادة من هذه النعم أو يجب اجتنابها مطلقًا؟ يمكن أن نقول إجمالًا: إنّه لا شكّ في وجوب الاستفادة من هذه النعم، بل نجد **القرآن الكريم** نفسه يأمر في بعض الموارد بالتزيّن: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[5]. وفي الكثير من الروايات، تمّ التأكيد على المسواك واللباس النظيف والعطر وتصفيف الشعر والتجمّل. على أيّ حال، فإنّ الاستفادة من الزينة وردت كأمرٍ قرآنيّ وإسلاميّ؛ لا شكّ أنّ هناك نهيًا أيضًا عن بعض أنواع الزينة.

والنقطة الأهمّ التي كانت مورد تأكيد الآيات والروايات وكانت الأبحاث القرآنيّة والروائيّة ناظرةً إليها نظرة أساسيّة هي قضيّة الارتباط القلبيّ للإنسان بهذه النعم، أي إلى أيّ مدى ينبغي أن يتعلّق القلب بها، وأيّ قسمٍ من القلب الذي هو محل الحبّ والعواطف يختصّ بهذه الأمور؟ ففي هذا المجال، يجب على الإنسان أن

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٣٢.

(٣) سورة **الحجر**، الآية ١٦.

(٤) سورة **النحل**، الآية ٦.

(٥) سورة **الأعراف**، الآية ٣١.

يمتلك تلك القدرة التي لا تجعل قلبه يتعلّق بأيٍّ من هذه النعم التي تُعطى له، أي إنّ وجودها وعدمه يكون سيّانًا بالنسبة له. إنّ جميع الآيات والروايات التي وردت في ذمّ الدنيا إنّما كانت في الواقع تذمّ تعلّقنا بالدنيا. إذا كانت الدنيا هي «دار الغرور»، ففي الحقيقة إنّ الذمّ هو لغرورنا وانخداعنا بهذه الدنيا. إذا كانت الحياة الدنيا لهوٌ ولعبٌ وزينةٌ وتفاخر، فذلك لأنّنا نحن الذين نلهو ونلعب ونتزيّن ونتفاخر. إنّ انشغالنا بالدنيا هو المذموم، لا أنّ الدنيا نفسها هي أمرٌ سيّئ.

هناك بحثٌ آخر، ذو بعدٍ تربويّ وهو يتعلّق بما ينبغي أن يتعامل به الإنسان مع أولئك الذين يقعون تحت تأثير أقواله وأفعاله من أجل أن يُرشدهم إلى قمم الزهد وعدم الاعتناء بالدنيا. إنّ من الأصول الأساسيّة ولعلّها ممّا ليس له استثناء في القضايا التربويّة، هو رعاية الاعتدال. فكلّ ما ينجرّ إلى الإفراط والتفريط سيكون منشأ للضرر والخسارة. بناءً عليه، فإنّ النقطة المهمّة في قضيّة التربية هي أن نحقّق الشروط التي تأخذ بيد المتربّي نحو أمور الخير تدريجيًا، وإلّا إذا كنّا نريد أن نقترح عليه الوصول إلى المراتب العالية للكمال من اليوم الأوّل، فمن الواضح أنّه لن يقدر على ذلك.

وكمثالٍ، إنّنا لو أردنا أن نربّي الشاب اليافع في بداية التكليف، فعلينا أن نتعامل معه بليونةٍ ونوفّر له الظروف التي تحقّق له الميل والرغبة بالأمور المعنويّة. إنّ الرغبة بالأمور الماديّة تكون طبيعيّةً ولا تحتاج إلى التعليم والتربية. فعلى المربّي أن يسعى لاستبدال الرغبة بالأمور الماديّة إلى رغبة بالأمور المعنويّة على نحو التدريج.

فلو أنّ الإنسان هيّأ الظروف بحيث إنّ مستوى استفادة المتربّين لديه من النعم الماديّة يفوق الحدّ المتوسّط لاستفادة سائر أفراد المجتمع منها بكثير، يكون في الواقع قد رغّبهم بالإقبال على الدنيا لأنّه يكون قد لقّنهم بصورةٍ غير واعية أنّ هذه الأمور الماديّة هي التي تحوز على الأهميّة. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ الغرائز الحيوانيّة تسوق هؤلاء وبشكلٍ طبيعيّ نحو الأمور الماديّة، ونكون نحن هنا في هذا المجال قد وفّرنا لهم المزيد من الأرضيّة لذلك. إنّ قياس استعداد المتربّي يُعدّ من القضايا المهمّة جدًّا، فإذا شاهدنا لديه الاستعداد يجب أن نسعى بالتدريج لتأمين الظروف المناسبة لكي يكون انشغاله بالأمور الماديّة واهتمامه بها أقلّ من الآخرين. وعلى كلّ حال، يجب على الإنسان في جميع الأمور ألّا يسعى لتجاوز الحدّ المتعارف،

لا بل عليه أن يُقلّل مهما أمكن من اللذائذ الماديّة حتّى لا يصبح لهذه الأمور قيمة عند الآخرين. إنّ السعي نحو التكاثر في الأمور الماديّة يمكن أحيانًا أن يجرّ الإنسان إلى حافّة الكفر. وما أجمل ما يبيّنه القرآن بشأن مصير أولئك الذين كانوا بصدد الاستعلاء: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1]. وقد جاء في روايةٍ أنّ الذي يحبّ أن يكون رباط نعله أفضل من رباط نعل أخيه يكون قد ابتلي بدرجةٍ من الكبر.

ويقول الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ لعبد الله بن جندب: **«وَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَهُ الله لَكَ»**، أي اقنع بالظروف التي هيّأها الله لك من ناحية الاستعدادات الذاتيّة والظروف الاجتماعيّة. **«وَلَا تَنْظُرْ إِلَّا إِلَى مَا عِنْدَكَ»**، أي لا تنظر إلى ما عند الآخرين وتُقارن بما عندك بل انظر إلى ما منحك الله إيّاه من النعم. وهناك مثلٌ معروفٌ يقول إنّ هناك أشخاصٌ يرون النصف الفارغ للكأس وهناك من يرى النصف الممتلئ. والله يريد أن يتربّى الإنسان بطريقةٍ يرى دائمًا النصف الممتلئ، فيكون شاكرًا ومقدّرًا للنعم الموجودة عنده. **«وَلَا تَتَمَنَّ مَا لَسْتَ تَنَالُهُ»**؛ من هنا، لا ينبغي للإنسان أن يجعل كلّ فكره وذكره في الوصول إلى تلك الأمور، فيهدر وقته من أجل الحصول على الأشياء التي لا يمكن الوصول إليها. **«فَإِنَّ مَنْ قَنِعَ شَبِعَ وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ لَمْ يَشْبَعْ»**؛ إنّ ماء الدنيا هو ماء مالح، كلّما شربت منه ازددت عطشًا. فلو ظهرت مثل هذه الروحيّة في الانسان بحيث يقنع بما لديه، يبقى فرحًا دائمًا ويكون له عيشةٌ طيّبة. وما لم يتمتّع الإنسان بروحيّة القناعة، فسوف يبقى مغمومًا دائمًا، وكلّما ازدادت ثروته سيمدّ عينيه إلى ما عند الآخرين. **«وَخُذْ حَظَّكَ مِنْ آخِرَتِكَ»**؛ هذا يعني أنّ ما لدى الإنسان لا ينبغي أن ينحصر في إطار تأمين الحاجات المرتبطة بالحياة الدنيا، بل عليه أن يفكّر بإنفاق هذه الأموال لأجل تأمين سعادة الآخرة التي لا حدّ لثوابها.

الأشكال المختلفة لعلاقة الإنسان بمال الدنيا

يمكن أن نحلّل علاقة الإنسان بمال الدنيا من عدّة زوايا، وأحد جهاتها ترتبط بالعلاقة القلبيّة بهذا المال. ففي هذا المجال، لا يوجد أيّ اختلافٍ بين المال الكثير والمال القليل، فمن الممكن أن يمتلك الإنسان مالًا قليلًا لكنّ علاقته القلبيّة به تكون قويّة

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٨٣.

جدًّا. إنّ علاقة الإنسان القلبيّة بمال الدنيا مبغوضة بالمطلق سواء كان المال قليلًا أو كثيرًا؛ غاية الأمر أنّ هذه المبغوضيّة لا تصل إلى حدّ الحرمة، لكنّها يمكن أن تجرّ الإنسان إلى المعصية. فلو أدّت علاقة الإنسان القلبيّة بمال الدنيا إلى منعه من القيام بالوظائف الشرعيّة أو كانت بدرجةٍ تؤثّر ولو قليلًا على نشاطاته كالعبادة والتعلّم تكون مذمومة جدًّا. بناءً عليه، إنّ وظيفة الإنسان هي أن يحارب مثل هذا التعلّق القلبيّ. وأفضل حالةٍ في هذا المجال هو أن يكون وجود مال الدنيا وعدمه بالنسبة للإنسان سيّان، أي لو امتلك مال الدنيا، فإنّه لا يفرح كثيرًا ولو لم يمتلك أيّ شيء أو فقد أمواله فلا يغتمّ كثيرًا ولا ينزعج، لماذا؟ لأنّ هاتين الحالتين بالنسبة له هما وسيلة الامتحان الإلهيّ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1]. بالطبع، هذا الكلام سهلٌ على اللسان، لكن الوصول إليه ليس كذلك أبدًا.

إنّ من طرق تحقيق هذه الحالة هي أن يسعى الإنسان لإنفاق مقدارٍ من ماله وبالحدّ الميسّر له في سبيل الله؛ بالطبع أن ينفق ممّا يحبّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]، أي إنّكم لن تصلوا إلى مقام الأبرار والخواصّ أو الدرجات العليا في الجنّة إلّا إذا أنفقتم ممّا تحبّون في سبيل الله.

بالطبع، هناك شرط لحسن السعي من أجل اكتساب المال لإنفاقه في سبيل الله، وهو ألا يكون اكتساب المال والثروة بدافع أداء المستحبّات سببًا لصدّ الإنسان عن الواجبات والمسائل الأساسيّة والمهمّة. فلو أنّ طالب علمٍ أو مجتهدٍ أو محقّقٍ صرف كلّ وقته وطاقته وفكره وذهنه لاكتساب الثروة والمال الدنيويّ بدافع إنفاقه في سبيل الله، وكان ذلك سببًا لصدّه عن مسؤوليّته الأساسيّة وهي التعلّم والتحقيق، فإنّه لا يكون قد أدّى عملًا صحيحًا، وفي الواقع يكون قد ضحّى بالواجب من أجل المستحبّ.

إنّ القيام بالعمل الذي يؤدّي إلى ترك الواجب يكون فيه شبهة حرام. بناءً عليه، فإنّ اكتساب المال لا يكون صحيحًا بالمطلق ولو كان بدافعٍ صحيح ونيّةٍ

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.

سليمة، فشرطه هو ألّا يتعارض مع التكليف الأرجح والأولى؛ فلو تعارض مع تكليفٍ واجبٍ يكون القيام به محرّمًا، وإذا تعارض مع تكليف مستحبٍّ مرجّح، فإنّ القيام به يكون بحكم المكروه. فإذا كان دافع اكتساب المال لأجل القيام بتكليفٍ واجب فهو مطلوب بل واجبٌ، وأيضًا إذا كان بدافع القيام بعملٍ مستحبّ لا يعارض تكليفًا واجبًا أو تكليفًا أولى، فهو مستحبّ.

من الممكن أن يمتلك الإنسان مالًا كثيرًا لكنّه لا يستفيد منه. فحسن هذا الأمر أو قبحه يرجع إلى دافع الإنسان. فقد يكون عدم إنفاقه بسبب أنّ هذا الإنسان يحبّ أن يبقى ماله مصونًا، وهذا ما يُقال له البخل والذي يُعدّ في النظرة الإسلاميّة مذمومًا جدًّا وغير صحيح. أمّا إذا لم يستفد من ماله وثروته بدافع عدم اعتياده على لذائذ الدنيا، فإنّ هذا يُعدّ هدفًا عاليًا وسليمًا. حين يلتذّ الإنسان بامتلاك شيءٍ فإنّه سوف يتعلّق به ويحبّه تلقائيًّا، وفي العادة، إنّ أنواع المحبة تتشكّل بهذه الطريقة، فيلتذّ الإنسان في البداية من الشيء ثمّ يعجبه هذا الأمر وبعدها يريد قلبه أن يمتلكه دائمًا. بناءً عليه، فإنّ من طرق عدم تعلّق القلب بمال الدنيا هو أن يقلّل الإنسان من الاستفادة منه لكي يقلّ التذاذه به. فلو كان استهلاكه القليل بهذا الدافع وهو أن لا يتعلّق بالمال الدنيويّ، فإنّه سوف يصل بالتدريج إلى صفة الزهد التي هي صفة يطلبها أولياء الله، وهي من الصفات الكماليّة. فكون الإنسان زاهدًا لا يعني الفقدان، فمن الممكن أن يمتلك الإنسان ثروةً طائلةً وفي الوقت نفسه يكون زاهدًا. من المعروف أنّ النبيّ سليمان عَلَيهِ السَّلَامُ، مع كلّ هذه الهبات التي منحه الله إيّاها، كان يقنع بخبز الشعير، الذي كان يصنعه بنفسه أيضًا، ففي الوقت الذي كان يمتلك تلك الثروة الهائلة كان يعيش حياة الزهد.

العلاقة الأخرى التي يمكن أن تنشأ في الإنسان تجاه مال الدنيا، هي ذات بُعد أخلاقيّ وقيميّ، فمن هذه الحيثيّة يمكن أن تتشكّل صفاتٌ أخلاقيّة حسنة أو سيّئة في الإنسان. فلو شُغِف الإنسان بمال الدنيا إلى الحدّ الذي اعتبر لهذا المال قيمةً، فإنّه في حال ازدياد ماله سوف ينسى نفسه من شدّة الفرح. وفي اللغة العربيّة، يُطلق على هذه الحالة من الفرح الشديد التي تحصل جرّاء التمتّع بنعمةٍ من نعم الدنيا عنوان «البطر». وعكس هذه الحالة، هي حالة الحزن التي يعيشها الإنسان حين يفقد المال والقدرة اللذين كان يمتلكهما، وقد يصل حزنه إلى الدرجة التي يفقد معها سكينته وصحّته النفسيّة.

فهاتان الحالاتان من لوازم تعلّق القلب بالدنيا. فلو لم يكن للإنسان علاقةٌ بمال الدنيا وأراده فقط لأجل القيام بوظائفه، فإنّه لن يتعلّق به. فعلى الإنسان أن يرى في هذه الحالة التي هو عليها أيّ مسؤوليّاتٍ تقع على عاتقه. فالإنفاق في سبيل الله في قمّة الاقتدار، أو الصبر في منتهى الفقر، كلاهما يُعدّان من مسؤوليّات الإنسان التي تندرج تحت عنوان العبادة.

من كان هدفه الآخرة فإنّه لا يفرح إذا حصل على المال ولا يحزن إذا فقده. يقول الإمام الصادق عَلَيهِالسَّلَامُ لعبد الله بن جندب: «**وَلَا تَكُنْ بَطِرًا فِي الْغِنَى**».

إنّ الله لا يحبّ أولئك الذين يسكرون من شدّة الفرح وينسون أنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[1]. كما أنّ الله تعالى يذمّ أولئك الذين ييأسون بسبب فقدان أموالهم وثرواتهم ويفقدون معنى الحياة إلى الدرجة التي لا يرغبون بعدها بمعاشرة الناس أو تحصيل العلم أو الدراسة أو غير ذلك. وهذه الحالة تحصل لأولئك الذين حُرموا من التربية الدينيّة الصحيحة، ولم يعرفوا الهدف الحقيقيّ للحياة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[2]، فالله يقول لنا هنا إنّ الإنسان مخلوقٌ حريصٌ بطبعه. فنجاة الإنسان من هذه الحالات السيّئة التي تحصل بسبب ضعف النفس إنّما تكون في ظلّ تحقيق الرابطة مع الله والصلاة أفضل مصاديقها. بناءً عليه، على الإنسان أن يسعى لإبعاد هاتين الحالتين عن نفسه وهما البطر (في حال الغنى والثروة)، والجزع (في حال الفقر والمصيبة).

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٦.

(٢) سورة **المعارج**، الآيات ١٩ - ٢٢.



الدرس الواحد والعشرون

علاقة المؤمن بالمؤمنين

- الأشكال المختلفة لعلاقات الناس فيما بينهم
- عدم النزاع مع المدراء والقادة اللائقين

«وَلَا تَكُنْ فَظًّا غَلِيظًا يَكْرَهُ النَّاسُ قُرْبَكَ، وَلَا تَكُنْ وَاهِنًا يُحَقِّرُكَ مَنْ عَرَفَكَ، وَلَا تُشَارَّ مَنْ فَوْقَكَ، وَلَا تَسْخَرْ بِمَنْ هُوَ دُونَكَ، وَلَا تُنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَلَا تُطِعِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَكُنْ مَهِينًا تَحْتَ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا تَتَّكِلَنَّ عَلَى كِفَايَةِ أَحَدٍ»[1].

الأشكال المختلفة لعلاقات الناس فيما بينهم

من المسائل الأخلاقيّة ما يرتبط بعلاقات الناس فيما بينهم والتي يكون لها جهات مختلفة. فنجد أنّ الناس في معاشراتهم قد يصلون إلى حدّ الإفراط أو التفريط. فهناك من يتعامل مع غيره بجفاءٍ وعبوس إلى الدرجة التي لا يرغب أحدٌ بمعاشرته، وهناك أشخاصٌ منفعلون إلى الدرجة التي يمكن لأيّ إنسانٍ وفي أيّ حالة أن يؤثّر فيهم. فمثل هذا الإفراط والتفريط في العلاقات الإنسانيّة مذمومٌ. فمن جانبٍ لا ينبغي للإنسان أن يكون خشنًا وعبوسًا وحادًّا بحيث لا يرغب أحدٌ بمعاشرته، ومن جانبٍ آخر لا ينبغي أن يكون منفعلًا بحيث يمكن لأيّ إنسانٍ وفي أيّ حالة أن يؤثّر فيه. لقد جعل الله الناس نعمةً لبعضهم، وينبغي أن يؤثّروا ويتأثّروا فيما بينهم، فكلّ واحدٍ يوصل نفعًا للآخر، بالطبع على طريق تكامل الشخص الآخر.

بناءً عليه، ينبغي للناس أن يتعاملوا فيما بينهم من أجل تحقيق هدف الحياة الاجتماعيّة. فلو تقرّر أن يكون الجميع عبوسين وجافّين، فمن الطبيعي أنّه لن يتحقّق

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٣.

بينهم أيّ نوعٍ من الألفة ولن يكون هناك تعاونٌ ومحبّةٌ ومودّة، وفي النتيجة لن يستفيدوا من بعضهم البعض. في حين أنّ الله تعالى قد جعلهم نعمة لبعضهم لكي يستفيدوا ويتعاونوا. فإذا لم يتحقّق مثل هذا الأمر المهمّ يكون قد حصل ما ينقض الغرض والهدف.

النقطة المهمّة هنا في هذا المجال هي أن لا يكون هناك شخصٌ منفعلٌ، وهناك شخصٌ مؤثّر. فلأجل أن لا يكون الإنسان منفعلًا دائمًا، يجب أن يجعل لنفسه شخصيّةً، فلا ينبغي أن يكون خاضعًا مقابل الجميع وأمام أيّ شيء فيكون لأيّ شخصٍ قدرة التأثير عليه في أيّ حالٍ أو وقت. إنّ الليونة الزائدة عن الحدّ تجعل صاحبها ذليلًا بنظر الآخرين، بالإضافة إلى أنّها تجعله منفعلًا، وهذا ما يسقطه في أعين الناس ويعتبرونه شخصًا حقيرًا ووضيعًا ولا يولونه أيّ أهمّيّة. بناءً عليه، لا ينبغي للإنسان أن يكون خشنًا وعنيفًا إلى الدرجة التي يكره الناس الاقتراب منه، ولا أن يكون ليّنًا ومنفعلًا بحيث لا يمتلك أيّ مقاومةٍ مقابل الآخرين. فلو كان الأمر كذلك لنظر الناس إليه بعين الحقارة: **«وَلَا تَكُنْ فَظًّا غَلِيظًا يَكْرَهُ النَّاسُ قُرْبَكَ، وَلَا تَكُنْ وَاهِنًا يُحَقِّرُكَ مَنْ عَرَفَكَ»**. فعلى الإنسان أن يتصرّف بطريقةٍ يجعل الناس يرغبون بالتعامل معه، ولكن في الوقت نفسه لا يكون خاضعًا بالكامل لهم بحيث يمتنع عن التفكّر والعبادة والحياة.

لكلّ إنسان، بحسب ظروفه الوراثيّة واستعداداته الجسمانيّة والفكريّة وعمره، يكون له موقعيّةٌ اجتماعيّة خاصّة في المجتمع. بالطبع، هناك أشخاصٌ يتمتّعون بمكانة اجتماعيّة عالية في المجتمع، وهناك من هم في مرتبة أدنى أيضًا.

وفي العادة، فإنّ أيّ موقعيّة يحوز عليها الإنسان في المجتمع سيكون للآخرين موقعيّة أعلى منها أو أدنى. فكيف ينبغي للإنسان أن ينظّم علاقاته مع الآخرين من هذه الناحية؟ لا يمكن للإنسان أن يتجاهل سلسلة الرتب الاجتماعيّة، فيتصوّر لأنّ روح الصفاء والمعنويّات مطلوبة في الإسلام، فمعنى ذلك أنّ على الجميع أن يكونوا بمستوًى واحدٍ. فهذا التصوّر غير صحيحٍ لأنّه شئنا أم أبينا هناك أشخاص في المجتمع هم أفضل منّا مكانةً وأعلى رتبة؛ كالأستاذ بالنسبة لتلامذته، والمدير بالنسبة لمرؤوسيه، والأبّ بالنسبة لابنه، أو ما يحصل أيضًا في الجيوش والقوى الأمنيّة حيث توجد تلك الرتب والدرجات. فهل يمكن للإنسان بحجّة تساوي الجميع بنظر الإسلام أن ينافس ويخاصم ويشاغب ويخالف أولئك الذين يتمتّعون

بموقعيّةٍ اجتماعيّةٍ أفضل؟

صحيحٌ أنّ هناك روايات كثيرة في مجال تساوي الناس ومنها هذه الرواية المعروفة: «النَّاسُ سَوَاءٌ كَأَسْنَانِ الْمُشْط» لكنّ المعنى الصحيح لهذا النوع من الروايات لا يفيد تجاهل موقعيّات الأفراد في سلسلة المراتب الاجتماعيّة، بل المعنى المُستفاد هو أنّ جميع الناس متساوون أمام الله والقانون. إنّ العلاقات الاجتماعيّة توجب في بعض الحالات حفظ هذه السلسلة من المراتب والدرجات. بناءً عليه، يجب على الإنسان أن يحترم من هو أعلى منه رتبةً في المجتمع، ولا يجوز له أن يعانده ويخاصمه. وفي العادة، إنّ هذه الحالات تبرز في ضعاف النفوس، فقسمًا مهمًّا من الشغب ينشأ من الشعور بالحقارة، ولهذا قد يُعارض الإنسان من هو أعلى منه رتبةً في المجتمع لأجل جبر هذا الشعور بالحقارة، عسى أن يجعله ذلك يظهر في مستوى واحدٍ معه!

وعلى أيّ حال، إذا كان حفظ هذه السلسلة من المراتب هو لمصلحة المجتمع الإسلاميّ، فعلى الإنسان أن يحترمها. ما دامت هذه الظروف والشروط محفوظةً والرتب الاجتماعيّة قائمة على أساسٍ معقول، لا ينبغي للإنسان أن يُحارب من هو أعلى منه رتبةً من الناحية الاجتماعيّة. فعلى الإنسان المؤمن أن يُدرك موقعيّته الاجتماعيّة ويحترم أولئك الذين لهم المرتبة الأعلى من أجل الحفاظ على مصلحة المجتمع: «**وَلَا تُشَارَّ مَنْ فَوْقَكَ**». وهذا المقطع من كلام الإمام يؤيّد هذه المسألة المرتبطة بقبول الإسلام لسلسلة الرتب الاجتماعيّة، لا أنّ الجميع متساوون من حيث المكانة الاجتماعيّة.

ومن جانبٍ آخر، لا ينبغي للإنسان أن ينظر باحتقار إلى من هم أدنى منه بالمكانة الاجتماعيّة، فلو لم يحترمهم كما ينبغي فعلى الأقلّ لا ينبغي أن يحتقرهم أو يسخر منهم. يقول الله تعالى في القرآن: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾[1]. وقد يصبح من هو أدنى اليوم صاحب سلطةٍ في الغدّ وتتفتّق استعدادته وقدراته. فالأخلاق الإسلاميّة تقتضي أن لا ينظر الناس إلى من هم تحت أيديهم نظرة احتقار، بل يجب عليهم احترامهم: «**وَلَا تَسْخَرْ بِمَنْ هُوَ دُونَكَ**».

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١١.

عدم النزاع مع المدراء والقادة اللائقين

لكلّ واحدٍ من أبناء الأمّة الإسلاميّة مسؤوليّة خاصّة تجاه إمامهم وقائدهم. بالطبع، ليس المقصود من الإمام والقائد هنا من هو نائب إمام الزمان فقط، بل المقصود هو ذاك الذي يكون على رأس أيّ مجتمع أو جماعة ويتمتّع بموقعٍ خاصّ مقارنةً بالآخرين من ناحية صلاحيّاته وحقّ اتّخاذ القرارات. ولا يخرج القادة والمدراء في أيّ مجتمع عن إحدى حالتين: إمّا أن يمتلكوا الأهليّة واللياقة اللازمة للتصدّي لمثل هذه المسؤوليّة أو لا. فإذا كان أبناء مجتمعٍ ما أو جماعةٍ أصحاب دورٍ في تعيين القائد والمدير، فلا ينبغي أن يسمحوا لأولئك الذين لا يتمتّعون بالكفاءة والإدارة المطلوبة بالتصدّي للمسؤوليّات. فلو كان المدير غير كفوء، فإنّه سيفسد من يعمل تحت إدارته ويؤدّي إلى القضاء على المؤسّسة. أمّا إذا كان يمتلك الأهليّة والكفاءة اللازمة للمسؤوليّة التي أُلقيت على عاتقه، فلا ينبغي أن ينازع ويُخاصم: «**وَلَا تُنَازِعِ الْأَمْرَ أَهْلَهُ**». إنّ منازعة أولئك الذين يتمتّعون بالكفاءة اللازمة للمسؤوليّة، لن يكون له أيّ فائدةٍ سوى أنّه سيؤدّي إلى انحلال طاقات المجتمع. بالطبع، من الممكن أن يخطئ المدير ولكن لا ينبغي لنا أن نضخّم خطأه ونجعله مبرّرًا لمنازعته ومخاصمته، لأنّ مثل هذا الفعل لا يكون لمصلحة المجتمع. يقول الله في هذا المجال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾[1].

ومهما أمكنهم فلا ينبغي للناس أن يسمحوا لأولئك الذين لا يتمتّعون بالعقل والتدبير اللازمَين للإدارة أن يصلوا إلى تلك الموقعيّة: «**وَلَا تُطِعِ السُّفَهَاءَ**». فالبعض يتصوّرون أنّ معنى التواضع هو أنّ على الإنسان أن يخضع ويرضخ في حياته الاجتماعيّة وفي علاقاته مع الآخرين بحيث يفعل الآخرون كلّ ما يحلو لهم ويفرضوه عليه. فهذا الفعل ليس تواضعًا، بل هو نوع من الحماقة لأنّه يؤدّي إلى عدم تفتّح تلك النعم والاستعدادات التي أودعها الله في وجود الإنسان، فلا يستفيد منه المجتمع.

إنّ التواضع لا يعني أن لا يكون للإنسان أيّ مكانة اجتماعيّة بحيث يتمكّن الجميع من فرض رغباتهم عليه من دون أن يكون له أيّ رأيٍ. بالطبع، على الإنسان

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤٦.

أن يُراقب نفسه جيّدًا لئلّا يُبتلى بالعجب وحبّ الذات والغرور، وذلك بأن يتصوّر نفسه أكبر ممّا هي في الواقع. وتضخيم الذات يؤدّي بالإنسان إلى أن يتظاهر بوجود موقعيّةٍ لنفسه أكبر من الآخرين، فيغترّ ويمهّد بذلك لسقوطه. إنّ أساس سقوط الشيطان هو العجب وحبّ الذات والتكبّر لألوهيّة الله! فعلى الإنسان أن يختار الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط، فلا يكون مغرورًا إلى الدرجة التي يعدّ نفسه فوق الجميع بحيث لا يتواضع لأحد أصلًا، ولا أن يجعل نفسه ذليلًا وحقيرًا إلى الدرجة التي لا يرى الآخرون له أيّ موقعيّة؛ فإنّ مثل هذا الأمر يؤدّي إلى عدم ظهور الاستعدادات والطاقات الإنسانيّة فلا يستفيد المجتمع منها وهكذا تُهدر نعم الله.

وفي تتمّة كلامه، يقول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**وَلَا تَتَّكِلَنَّ عَلَى كِفَايَةِ أَحَدٍ**». ففي الرؤية التوحيديّة، لا ينبغي للإنسان أن يرجو الآخرين، بل يجب أن يحصر توجّهه بالله ولا يستعين إلّا به. إنّ التوجّه إلى الله يؤدّي من جهةٍ إلى استغناء الإنسان عن الخلق، ومن جهةٍ أخرى يؤدّي إلى أن يفعّل الإنسان طاقاته المودعة فيه فتتفتّح. وبهذا الفعل، فإنّ الإنسان ينال الشخصيّة الاجتماعيّة والمكانة والعزّة والاحترام وتزداد علاقته بالله قوّةً. فلو أنّ الإنسان مدّ يده إلى الآخرين من أجل تأمين حاجاته، فإنّه شاء أو أبى سيكون ذليلًا لهم بهذا المقدار، أمّا إذا عرض حاجته على الله فلن يكون ذليلًا لأحد وسوف يحفظ احترامه وماء وجهه بين الجميع.



- الآثار السيّئة للعجلة في الأمور
- مصباح العقل عامل نجاة الإنسان
- المنّ يزيل الأجر
- آفات اللسان

«وَقِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ، وَاجْعَلْ قَلْبَكَ قَرِيبًا تُشَارِكُهُ، وَاجْعَلْ عِلْمَكَ وَالِدًا تَتَّبِعُهُ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ عَدُوًّا تُجَاهِدُهُ وَعَارِيَةً تَرُدُّهَا، فَإِنَّكَ قَدْ جُعِلْتَ طَبِيبَ نَفْسِكَ وَعُرِّفْتَ آيَةَ الصِّحَّةِ وَبُيِّنَ لَكَ الدَّاءُ ودُلِلْتَ عَلَى الدَّوَاءِ، فَانْظُرْ قِيَامَكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدَ إِنْسَانٍ فَلَا تُفْسِدْهَا بِكَثْرَةِ الْمِنَنِ وَالذِّكْرِ لَهَا، وَلَكِنْ أَتْبِعْهَا بِأَفْضَلَ مِنْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَلُ بِكَ فِي أَخْلَاقِكَ وَأَوْجَبُ لِلثَّوَابِ فِي آخِرَتِكَ، وعَلَيْكَ بِالصَّمْتِ تُعَدَّ حَلِيمًا، جَاهِلًا كُنْتَ أَوْ عَالِمًا، فَإِنَّ الصَّمْتَ زَيْنٌ لَكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَسَتْرٌ لَكَ عِنْدَ الْجُهَّالِ»[1].

الآثار السيّئة للعجلة في الأمور

عادةً ما نغفل نحن عن محاسبة أنفسنا والتدقيق في دوافعنا ونوايانا والحِيل التي تمرّ في باطننا. فالناس يُظهرون سلوكيّاتٍ خاصّة على أساس سلسلة عوامل طبيعيّة ونفسيّة واجتماعيّة. فما يأكلونه أو يقولونه أو يفعلونه كردّة فعل كلّ ذلك يرتبط بالعوامل المذكورة؛ لأجل ذلك، فإنّنا نخطئ في الكثير من الحالات، حين نقوم بأعمالٍ غير مدروسة وغير عقلانيّة، ثمّ نندم على ما فعلناه؛ ينطق لساننا بكلامٍ غير موزون ويؤدّي إلى إيذاء الآخرين. فالذي يريد أن يكون سلوكه عقلانيًّا يجب أوّلًا أن

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٣.

يحسب النفع والضرر في ذلك العمل، وثانيًا عليه أن يفكّر جيّدًا في كيفيّة القيام بذلك العمل حتّى يصل إلى الشكل المطلوب فيه. يوصي الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أصحابه بأن لا يعجلوا في أيّ حالٍ من الأحوال، بل عليهم أن يتريّثوا قليلًا لكي يطمئنّوا أنّ نفع ذلك أكبر من ضرره، وكذلك ليروا كيف ينبغي أن يقوموا بذلك العمل لكي يصلوا إلى النتيجة المطلوبة. فهذه وصيّةٌ عامّة تجري في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة أيضًا. فالإنسان المؤمن لا يحصر حساباته في المنافع والأضرار المادّيّة والدنيويّة، بل يأخذ بعين الاعتبار الأهداف الأخرويّة. من هنا، فإنّه لا يتحرّك باتّجاه المعصية أبدًا لأنّه يعلم أنّه قد يتحمّل عذاب آلاف السنين بسبب لذّةٍ عابرة. إنّ ارتكاب المعصية إنّما يحصل بسبب أنّنا لم نحسب المنافع والأضرار جيّدًا، أي إنّنا لم نتعامل بشكلٍ عقلانيّ مع الأمر. وإذا تجاوزنا هذا فإنّنا أيضًا لم نحسب بدقّة طريق الدخول والخروج منه حين أردنا القيام بذاك العمل. على سبيل المثال، لأجل أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نفكّر أنّنا إذا قلنا لمرتكب المعصية لا تفعل ذلك يكون التكليف قد سقط عنّا، في حين أنّنا لو أردنا أن ننجي ذاك الشخص من مستنقع المعصية انطلاقًا من الحرص الواقعيّ عليه، فينبغي أن نتحدّث معه بطريقة يتقبّلها منّا ولا يفكّر بتكرار تلك المعصية بعناد.

بناءً عليه، فإنّ الشخص المؤمن يجب أن يكون عاقلًا وبعيد النظر ويشخّص جيّدًا النفع والضرر في كلّ أمر، وكذلك طريق الدخول والخروج منه بشكلٍ جيّد لكيلا يندم بعد القيام بالعمل: «**وَقِفْ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى تَعْرِفَ مَدْخَلَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِيهِ فَتَنْدَمَ**».

مصباح العقل عامل نجاة الإنسان

نُسب للإنسان في **القرآن الكريم**، ثلاثة مفاهيم هي: القلب والعقل والنفس. عادةً، حين تُذكر النفس بنحوٍ مطلق فإنّ الجانب السلبيّ يؤخذ فيها: ﴿**إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ**﴾[1]. بالطبع، هناك أيضًا صفاتٌ أخرى للنفس تظهرها بصورةٍ حسنة

(١) سورة **يوسف**، الآية ٥٣.

وتخاطبها: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾[1]. على كلّ حال، يجب الالتفات إلى أنّ هذه المفاهيم تتمتّع بموقعيّة خاصّة في الأخلاق والثقافة الإسلاميّة هذا أوّلًا، وثانيًا تُستعمل بمعاني مختلفة. فالإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاطب في هذه الرواية عبد الله بن جندب وجميع شيعته طالبًا منهم أن يقرّبوا قلوب من معهم فيتشاركون فيما بينهم، ويجعلون العقل بمنزلة الأبّ الذي يضعون أيديهم في يده ويسيرون معه، وأن يجعلوا النفس بمنزلة العدوّ الذي ينبغي أن يجاهدوه ويحاربوه.

إنّ الكثير من الناس يعملون بخلاف هذا الحكم تمامًا، فبدل العقل يجعلون النفس قائدًا. فالتعاليم الإسلاميّة توجّهنا إلى اتّباع العقل في الحياة، لا تلك النفس التي تدعونا إلى الهوس والشهوة والرغبات. من جانبٍ آخر، غالبًا ما نتوجّه نحن البشر إلى خارج أنفسنا ونغفل عن الالتفات إلى باطننا؛ نادرًا ما يحدث أن ندقّق في باطننا ونتفحّص أسباب القيام ببعض الأعمال أو تركها. فعلى سبيل المثال، ذاك الذي يتحدّث مع شخصٍ آخر وهو ينصحه بحسب الظاهر يجب أن يرى ما هو الدافع وراء ذلك، فهل إنّه حقًّا يريد خيره ومصلحته أم يريد أن يتظاهر أمامه ويضخّم عيوب الطرف الآخر؟ قد تكون لهجة الإنسان إصلاحيّة، إلّا أنّ دافعه الواقعيّ لا يكون لأجل مصلحة الطرف المقابل، بل يريد أن يقول له إنّني أعلم أنّك تعاني من هذه العيوب ولأنّني لست كذلك فإنّني أعطي لنفسي الحقّ بأن أنصحك.

إنّ من وصايا علماء الأخلاق للناس، وما يؤكّدون عليه كثيرًا، هو أن يتفحّصوا قلوبهم جيّدًا حين يهمّوا بعملٍ ما، من أجل أن يروا ما هو دافعهم وقصدهم من هذا العمل. فلو أخذ الإنسان هذا الأمر بعين الاعتبار سوف يكون مصانًا من الكثير من الأخطار. وكما يراقب الإنسان مثلًا شريكه لكي لا يخدعه، يجب أن يكون حذرًا لئلّا يصبح قلبه شيطانيًّا ولئلا تجرّه الوساوس والدوافع الشيطانيّة إلى طريق الخطأ.

يجب الالتفات إلى أنّ للعقل والنفس في المعارف والعلوم الإسلاميّة، ومنها الفلسفة، معانٍ متعدّدة. فهذا الاشتراك اللفظيّ يؤدّي بالكثيرين إلى الاشتباه والخطأ فيظنّون الشيء شيئًا آخر. والاصطلاح الذي يُستعمل هنا للعقل والنفس هو اصطلاحٌ أخلاقيٌّ، وعلى أساسه فإنّ العقل هو ذاك الشيء الذي يهدي الإنسان

---

(١) سورة الفجر، الآية ٢٧.

إلى الطريق الصحيح، والنفس هي التي تجرّه إلى مستنقع الهلاك. بالطبع، إنّ تحديد الشيء الذي يؤدّي إلى الصعود والتكامل، والشيء الذي يؤدّي إلى السقوط والانحطاط، إنّما يحصل بواسطة العقل والأحكام الشرعيّة والموازين التي ينبغي رعايتها.

من الطبيعيّ، أنّ الإنسان الذي يريد الخير لنفسه أن يتّبع من يدعوه إلى طريق الخير. يجب علينا دائمًا أن نجعل عقلنا قائدًا، فنكون مثل الابن الذي يتّبع والده الذي يأخذ بيده لنجاته من المخاطر. ومن جانبٍ آخر، إنّ النفس التي تمنعنا من الوصول إلى القيم العليا والكمالات الإنسانيّة والإلهيّة تكون بمثابة العدوّ الذي ينبغي أن نحاربه: «**وَاجْعَلْ عِلْمَكَ وَالِدًا تَتْبِعُهُ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ عَدُوًّا تُجَاهِدُهُ**».

إنّ الرغبات النفسانيّة تحدث لذّات معيّنة لدى لإنسان، لكن على الإنسان أن يلتفت إلى أنّ هذه اللذّات سريعة الزوال ولا تدوم ولا أهمّيّة لها. إنّ قيمة اللذائذ الدنيويّة لا تختلف كثيرًا عن المنامات الجميلة واللذيذة، وكما أنّ الإنسان لا يحصل على شيء من جرّاء المنام، فإنّ أعمق وأفضل اللذّات الدنيويّة تكون سريعة الزوال ولا يبقى منها بعد مدّةٍ أيّ أثر. أمّا اللذّات الأخرويّة والمعنويّة فليست كذلك، فهي تبقى وتدوم، وإنّ الارتباط بالله لا يعرف الزوال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[1].

فلو تصرّفنا بطريقةٍ يكون حاصلها المزيد من الارتباط بالله فإنّ هذا الارتباط لا يفنى. إنّ الأنس بالله ومعرفة الله وأوليائه هي أمورٌ تبقى دائمًا وهي تتّصف بالبهجة الكبرى؛ أمّا ما يرتبط بالهوس الماديّ والعابر لهذه الدنيا، فمهما تصوّرناه واقعيًّا فسوف نرى في عالمٍ آخر حيث تتّضح الحقائق لنا أنّه كان منامًا وخيالًا لا أكثر. يقول **القرآن الكريم** على لسان أولئك الذين لم يتوجّهوا إلى الآخرة ولم يعملوا لها وهم ينطقون في الآخرة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[2]. هناك حيث يُدرك الإنسان أنّ ما كان يتصوّره موتًا هو عين الحياة، وأنّ الحياة الدنيا كانت في الواقع موتًا ولعبًا ولهوًا: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[3]. بناءً

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٩٦.

(٢) سورة **الفجر**، الآية ٢٤.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٤.

عليه، يجب أن نعلم أنّ ما تدعونا النفس إليه هو أمرٌ عابرٌ، يبقى للحظاتٍ عندنا ثمّ بعد ذلك نردّه إلى صاحبه كالأمر المستعار: «**وَعَارِيَةٌ تَرُدُّهَا**». فما يبقى للإنسان هو ما حصل له في ظلّ العقل والارتباط القلبي بالله.

يقول الإمام في تتمّة كلامه إنّك مثل ذاك الذي ينبغي أن يكون طبيب نفسه فيعرف داءه ودواءه، فأنت الذي ينبغي أن تختار من بينهما. والإنسان العاقل لا يختار المرض أبدًا بل يتّجه نحو علائم الصحّة والسلامة التي وضعت بين يديه من أجل أن يدركها بحسن تدبيره: «**فَإِنَّكَ قَدْ جُعِلْتَ طَبِيبَ نَفْسِكَ وَعُرِّفْتَ آيَةَ الصِّحَّةِ وَبُيِّنَ لَكَ الدَّاءُ ودُلِلْتَ عَلَى الدَّوَاءِ فَانْظُرْ قِيَامَكَ عَلَى نَفْسِكَ**».

المنّ يزيل الأجر

هناك في أعمالنا التي نقوم بها سواء كانت واجبة أو مستحبّة شروطٌ ترتبط بصحّة العمل وشروط ترتبط بقبوله. فمثلًا هذه الصلاة التي نصلّيها والصوم الذي نصومه لهما شروطٌ للصحّة إذا لم تتحقّق يبطلان ويجب إعادتهما. هناك شروطٌ أيضًا مؤثّرة في قبول العمل، بمعنى أنّ أداء هذا العمل على فرض صحّته لن يؤدّي لزومًا إلى الثواب الأخرويّ، بل يحتاج إلى شروط أخرى غير شروط الصحّة حتّى يُقبل.

والآن إذا كانت عباداتنا مثلما بيّنت الروايات، وأدّيناها بكامل شروط الصحّة والقبول، فهل ينبغي أن يرتاح بالنا بأنّنا أدّينا تكليفنا بحسب الجانب الفقهيّ وكذلك بحسب الجانب المعنويّ للصحّة والقبول وضمنّا الثواب الأخرويّ، ولهذا لن نواجه بعدها أيّ مشكلة يوم القيامة؟ الأمر المهمّ هنا هو لماذا لا نعتبر عملنا مصونًا من المخاطر حتّى لو أدّيناه وفق شروط الصحّة والقبول؟ فقد تحصل أمورٌ بعد أداء هذا العمل تُزيل تلك الآثار المعنويّة السابقة. فالأعمال السيّئة في المستقبل يمكن أن تُحبط الأعمال الحسنة السابقة، مثلما أنّ الأعمال الحسنة أو التوبة يمكن أن تجبر بعض ذنوبنا. فالإنسان الذي يسعى بكلّ جهدٍ لكي تكون أعماله مطابقةً للشروط الفقهيّة ويراعي شروط قبولها مثل الإخلاص واجتناب الرياء والعجب وغيرها، فإنّه يمكن أن يقوم بعد مدّةٍ بعملٍ يحبط هذه الأعمال الحسنة. حتى إنّه في بعض الأمور مثل الارتداد تحبط كلّ الأعمال السابقة. وعلى كلّ حال، يجب الالتفات إلى أنّه من الممكن أن يصدر من الإنسان أعمالٌ تُفسد عمله أو أعماله السابقة. يقول تعالى في سورة **الحجرات**: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ

﴿وَرَسُولِهِۦ﴾[1]، ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[2]. فهذا الذي لا يُعدّ احترامًا يؤدّي إلى إحباط الأعمال السابقة التي أدّاها الإنسان مع رعاية شروط الصحّة والقبول.

من الممكن أن يساعد الإنسان محتاجًا بدافع الإخلاص لأجل أداء التكليف، لكنّه بعد مدّة يُظهر هذا العمل أمامه ويؤدّي إلى إحباطه؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[3]. وفي موضعٍ آخر، يقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[4]. فلو أنّ الإنسان ردّ على سؤال المحتاج بلسانٍ طيّب، فإنّ ذلك أفضل من أن يساعده ويمنّ عليه بعد ذلك. فإنّ هذه المنّة تُبطل أصل العمل. وقد أشار **الإمام الصادق** عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الرواية الشريفة إلى هذا الموضوع وقال: «**وَإِنْ كَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدَ إِنْسَانٍ فَلَا تُفْسِدْهَا بِكَثْرَةِ الْمِنَنِ وَالذِّكْرِ لَهَا، وَلَكِنْ أَتْبِعْهَا بِأَفْضَلَ مِنْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَلُ بِكَ فِي أَخْلَاقِكَ وَأَوْجَبُ لِلثَّوَابِ فِي آخِرَتِكَ**».

آفات اللسان

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمّة وصاياه لعبد الله بن جندب: «**وعَلَيْكَ بِالصَّمْتِ تُعَدَّ حَلِيمًا، جَاهِلًا كُنْتَ أَوْ عَالِمًا، فَإِنَّ الصَّمْتَ زَيْنٌ لَكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَسَتْرٌ لَكَ عِنْدَ الْجُهَّالِ**».

ومن الدوافع الموجودة بشكلٍ طبيعيّ في البشر هو حبّ البروز. وتظهر هذه الحالة عند الأطفال بصورةٍ أوضح. فحين يكون الطفل مثلًا يعلم شيئًا فإنّه يرغب بإظهاره حتّى يقول للآخرين إنّه يجيد هذه الأمور؛ ومثل هذه الحالة نجدها أيضًا عند القاصرين أو البالغين الذين لم يتلقّوا التربية المعنويّة حتّى الآن، وهو أمرٌ طبيعيّ ولا عيب فيه. أمّا الذي وصل إلى سنّ التكليف وهو يريد أن يتخلّق بالأخلاق الإسلاميّة يجب أن يسعى بالتدريج لإضعاف هذه الدوافع غير الإلهيّة وتقوية الدوافع الإلهيّة مكانها. بالطبع، فيما يختصّ بالأطفال، إذا أراد شخص أن

---

(١) **سورة الحجرات**، الآية ١.

(٢) **سورة الحجرات**، الآية ٢.

(٣) **سورة البقرة**، الآية ٢٦٤.

(٤) **سورة البقرة**، الآية ٢٦٣.

يربّي أطفاله منذ البداية على الإخلاص الكامل فلا يكون في أعمالهم أيّ نوعٍ من الرياء والتظاهر، يجب عليه الالتفات إلى أنّ ذاك الطفل لن يصبح أبدًا شخصًا مؤمنًا ومصلّيًا، ذلك لأنّ الطفل حتّى يقوم بالأعمال الحسنة يحتاج إلى التشجيع والترغيب، وأحد طرق تشجيعه هو مدحه والثناء عليه أمام الآخرين، وهذا ما يستلزم جعل الطفل يظهر هذه المعارف.

بناءً عليه، يجب رعاية هذه العوامل الطبيعيّة طالما أنّ الطفل لم يصل بعد إلى سنّ التكليف، أمّا إذا وصل إلى سنّ التكليف فيجب تعريفه على الأحكام الشرعيّة وعلى الواجب والحرام، وإفهامه مثلًا أنّ الصلاة إذا لم تكن لله وكانت لأجل التظاهر فإنّها تبطل. إنّ بعض الأشخاص يصلّون إلى سنّ الستين والسبعين من دون أن يبلغوا مرحلة الرشد من الناحية العقلانيّة، فتجد فيهم تلك الحالات التي تكون في الأطفال قبل البلوغ، أي يريدون أن يظهروا للآخرين ما يعرفونه ليبرزوا بهذه الطريقة. ومن الطرق التي تُنجي الإنسان من هذه الآفة هي أن يعوّد نفسه على قلّة الكلام.

فأولئك الذين أطلقوا العنان لألسنتهم ولم يمسكوا بزمامها لا يأخذون بعين الاعتبار تلك الدوافع والنوايا الشرعيّة الخالصة حين الكلام. كان عظماؤنا يسعون دائمًا إلى تقليل الكلام من أجل صيانة أنفسهم من هذه الآفة. ففي بعض الأحيان، نجد عالمًا يعيش في مدينةٍ مدّة طويلة لكنّ أقرب الناس إليه لا يعرفون مستوى علمه، في حين أنّ ذاك العالم يكون فاضلًا مجتهدًا كبيرًا وصاحب تأليفات عديدة.

ولقلّة الكلام آثارٌ أخرى حسنة منها أن يحول دون استغلال الجاهلين واستهزاء المعاندين. فقليل الكلام مصون من شرّ الجهّال ومحترم وموقّر عند العلماء. كما إنّ من آفات اللسان الحدّة في الكلام والهذر. إنّ قليل الكلام إذا سمع كلامًا غير لائقٍ من شخصٍ ما، فلأنّه لا يسارع إلى الإجابة يستطيع أن يكظم غيظه ولا يردّ بالمثل. إنّ الكثير من الكلمات السيّئة والقبيحة تنطلق من اللسان أثناء الغضب، أمّا إذا كان الإنسان صبورًا سواءٌ كان عالمًا أو جاهلًا فإنّه يستطيع أن يبقى بأمانٍ من الكثير من آفات اللسان. لهذا، يقول الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ لعبد الله بن جندب: «**وَعَلَيْكَ بِالصَّمْتِ تُعَدَّ حَلِيمًا، جَاهِلًا كُنْتَ أَوْ عَالِمًا، فَإِنَّ الصَّمْتَ زَيْنٌ لَكَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَسَتْرٌ لَكَ عِنْدَ الْجُهَّالِ**».



الدرس الثالث والعشرون

وصايا عيسى بن مريم للحواريّين

- ضرورة ستر عيوب الآخرين
- مواجهات الرغبات النفسيّة
- الصبر مقابل المشاكل
- ضرورة اجتناب الأحكام المتسرّعة
- آفات تتبع عيوب الآخرين

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ (ع) قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِأَخِيهِ فَرَأَى ثَوْبَهُ قَدِ انْكَشَفَ عَنْ بَعْضِ عَوْرَتِهِ أَكَانَ كَاشِفًا عَنْهَا كُلِّهَا أَمْ يَرُدُّ عَلَيْهَا مَا انْكَشَفَ مِنْهَا؟ قَالُوا: بَلْ نَرُدُّ عَلَيْهَا، قَالَ: كَلَّا بَلْ تَكْشِفُونَ عَنْهَا كُلِّهَا، فَعَرَفُوا أَنَّهُ مَثَلٌ ضَرَبَهُ لَهُمْ، فَقِيلَ: يَا رُوحَ اللهِ وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: الرَّجُلُ مِنْكُمْ يَطَّلِعُ عَلَى الْعَوْرَةِ مِنْ أَخِيهِ فَلَا يَسْتُرُهَا. بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَا تُصِيبُونَ مَا تُرِيدُونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ، وَلَا تَنَالُونَ مَا تَأْمُلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ. إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً. طُوبَى لِمَنْ جَعَلَ بَصَرَهُ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ بَصَرَهُ فِي عَيْنِهِ. لَا تَنْظُرُوا فِي عُيُوبِ النَّاسِ كَالْأَرْبَابِ وَانْظُرُوا فِي عُيُوبِكُمْ كَهَيْئَةِ الْعَبِيدِ، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا الْمُبْتَلَى وَاحْمَدُوا اللهَ عَلَى الْعَافِيَةِ»[1].

ضرورة ستر عيوب الآخرين

من الأساليب التي يستعملها أعاظمنا وعلماؤنا هي أنّهم ينقلون حديثًا أحيانًا عن الآخرين في طيّات كلماتهم. وهذا الأسلوب هو درسٌ لنا أنّنا إذا أخذنا علمًا من الآخرين فعلينا أوّلًا أن ننقله لغيرنا من دون أي تحريف، وثانيًا أن ننسبه إلى صاحبه. فمثل هذه الأساليب يمكن إلى حدٍّ ما أن تحفظ الإنسان من التكبّر والتظاهر. كما

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨٣ و٢٨٤.

ينقل الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ كمعلّمٍ للأخلاق هنا قصّةً عن النبيّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لكي يلفت أنظار أصحابه إلى هذه المسألة الأخلاقيّة، فالإمام لا يحتاج هنا إلى أن يتعلّم من الآخرين.

والقصّة هي أنّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل حواريّيه ذات يوم: لو حصل أن شاهدتم أحد إخوانكم أثناء نومه وقد طار لباسه وانكشف شيءٌ من عورته فهل ستُسارعون إلى ستره أم تتركونه مكشوفًا؟ فأجابوا: من الطبيعيّ أن نسعى إلى ستر عورته. فقال عيسى: كلّا، إنّكم لن تفعلوا ذلك، بل جميعكم سيظهرها. فتعجّبوا من كلام نبيّ الله لكنّهم سرعان ما التفتوا إلى أنّ هناك سرًّا مخفيًّا في هذا السؤال والجواب. فنبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد بهذا الفعل أن يُفهم أنصاره وتلامذته أنّ حقّ المؤمن على المؤمن أن يستر عيبه ولا يُعلنه، بل إذا استطاع أن يستر عليه فينبغي أن يفعل ذلك ليحفظ ماء وجهه وسمعته.

بناءً عليه، إذا اطّلع إنسانٌ على فعلٍ سيّئٍ صدر من شخصٍ ما، لا أنّه لا ينبغي له أن يستغيبه ويُظهر سيّئته للآخرين فحسب، بل ينبغي أن يسعى لعدم انكشاف هذا العيب ولأن يبقى مكتومًا، فلا ينبغي أن يُذيع ذاك الخطأ الذي صدر منه بين الناس والمسلمين.

بالطبع، إنّ قضيّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والموعظة والإرشاد هي قضيّةٌ أخرى لها شروطها الخاصّة. على كلّ حال، إذا أردنا أن نُزيل عيب أحدٍ في الواقع، ينبغي أن ننصحه ونرشده في الخلاء وذلك أيضًا بطريقةٍ لا يلتفت فيها إلى أنّنا اطّلعنا على عيبه.

مواجهة الرغبات النفسيّة

يحتاج الإنسان إلى أسبابٍ ووسائل لأجل الوصول إلى أهدافه الماديّة والمعنويّة، وهذه الأسباب والوسائل هي على نحوين: إمّا أن تكون إيجابيّة وثبوتيّة أو سلبيّة وعدميّة. من البديهيّ أنّ الوصول إلى المقصد يحتاج إلى أداء بعض الأعمال في أكثر الأوقات. على سبيل المثال، الإنسان الجائع الذي يريد أن يُشبع نفسه يجب أن يعدّ أسباب ووسائل الطعام، أو ذاك الشخص الجاهل الذي يريد أن يصبح عالمًا يجب أن يهيّئ مقدّمات الدراسة. ولكن من النادر أن يحصل بأن يضطرّ الإنسان إلى

ترك فعلٍ لأجل الوصول إلى هدف. بعبارةٍ أخرى، إنّ الأسباب السلبيّة والشروط العدميّة لأجل الوصول إلى الهدف تُعدّ بالمقارنةً مع الأمور الإيجابيّة والثبوتيّة أقلّ أهميّة بالنسبة لنا. فمثلًا لأجل الوصول إلى الكمالات المعنويّة نبادر أكثر الأحيان إلى فعل الواجبات والمستحبّات أكثر من ترك المكروهات والمحرمات.

ومن بين الأديان والمذاهب المختلفة الموجودة في هذا العالم هناك مذاهب تعرض أهدافًا غير ماديّة وبرامج لأجل الوصول إلى الكمالات المعنويّة، وهي في العادة على هذا النحو. فعلى سبيل المثال، هناك بعض البوذيّين والمرتاضين الذين يطلقون على أنفسهم عنوان العرفان أو التصوّف ويتحمّلون رياضات شاقّة لأجل الوصول إلى الكمالات المعنويّة، لكنّهم يغفلون عن الأسباب السلبيّة.

فلأجل الوصول إلى الأهداف لا يكفي أداء بعض الأعمال، بل يجب ترك الكثير من الأفعال أيضًا. فعلى سبيل المثال، إنّ علاج الكثير من الأمراض يتحقّق من خلال اجتناب تناول بعض الأطعمة والمأكولات وهو أسلوبٌ أكّد عليه كثيرًا الأطبّاء القدماء ولا ينبغي تناول أدويةً خاصّة سوى في بعض الموارد. ويصدق هذا الأمر على الأمور المعنويّة أيضًا. فمثلًا في مجتمعنا الإسلاميّ هذا، يلتفت المتديّنون إلى الأسباب الإيجابيّة مثل صلاة عدّة ركعات في اليوم أو ختم القرآن أو بعض الأدعيّة المختلفة ويغفلون عن البرامج السلبيّة لأجل الوصول إلى الأهداف المعنويّة.

فلو تعبّد الإنسان ليل نهار، لكنّه ارتكب المعصية إلى جانب ذلك، فإنّه يكون مثل الذي يضع أمواله في كيسٍ مثقوب، فهو يتعب ويجني المال، لكنّه حين يحتاج إليه سيلتفت إلى أنّه لا يوجد في الكيس أيّ مالٍ. لهذا، مثلما أنّ عليه أن يؤدّي تلك الأعمال التي حدّدها الشارع كواجبات، فإنّ عليه أيضًا أن يترك الأمور المحرّمة. بالطبع، إنّ أولئك الذين يتمتّعون بالهمّة العالية ويريدون الوصول إلى المقامات الأعلى لا ينبغي أن يكتفوا بهذا الحدّ من الواجب والحرام، بل عليهم إلى جانب ذلك أن يؤدّوا المستحبّات ويجتنبوا المكروهات.

إذا أراد الإنسان أن يصل إلى الكمالات المعنويّة والمقامات العالية، ينبغي له أن يواجه رغباته النفسانيّة ولا يتّبع أهواءه وميوله الحيوانيّة والشيطانيّة. بالطبع، إنّ الإفراط في هذا المجال ليس صحيحًا أيضًا، لأنّ البعض يتصوّرون أنّ طريق

الوصول إلى الله ينحصر بمخالفة النفس، أي لا يتوجّهون كثيرًا إلى العوامل الإيجابيّة ودائمًا يفكّرون بما ترغب به أنفسهم حتّى يقمعوها، وكأنّه لا يوجد عندهم إلّا محاربة النفس. بالطبع، إنّ هذه الحالة صحيحةٌ في الجملة، لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ كلّ ذلك يكون حسنًا مع مراعاة حدّ الاعتدال. فلا ينبغي للإنسان أن يؤدّي بنفسه إلى الأمراض البدنيّة والاضطرابات العصبيّة والنفسيّة من خلال الضغط الشديد عليها أو من خلال الرياضة الشاقّة، فإنّ ذلك سيؤدّي في النتيجة إلى ترك التكاليف الواجبة أيضًا.

يقول نبيّ الله عيسى لتلاميذه وأتباعه أنّه إذا أراد الإنسان اكتساب المقامات المعنويّة والكمالات الروحيّة فعليه أن يلتفت جيّدًا إلى ما يقول، فإنّه لن يصل إلى ما يرغب إلّا بترك الأشياء التي تميل إليها نفسه وشهوته: «**بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَا تُصِيبُونَ مَا تُرِيدُونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ**».

الصبر مقابل المشاكل

شاء الإنسان أو أبى سيواجه في حياته قضايا لا تنسجم مع ميوله وسيسعى إلى القضاء عليها. ويمكن أن تكون مواجهة بعض أمور الحياة غير المحمودة أحيانًا من وظائفه الشرعيّة، فعليه مثلًا أن يبعد المرض والداء عن نفسه ويسعى لمعالجته. والنقطة المهمّة في مثل هذه الموارد هي أنّ على الإنسان أن يتجاوز تلك المشاكل والصعاب التي تحدث في حياته من خلال سعة الصدر، فيتعامل معها بعيدًا عن الجزع والفزع وقلّة الصبر والتحمّل. وفي تتمّة وصيّته للحواريّين، يقول نبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا أردتم أن تصلوا إلى المقامات العالية، يجب أن تصبروا على المكاره والأمور الصعبة التي تحدث في حياتكم: «**وَلَا تَنَالُونَ مَا تَأْمُلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ**».

من الممكن أن يواجه الإنسان مشاكل وصعاب صغيرة وكبيرة في الحياة، من الزكام البسيط إلى الأمراض المعضلة، من العيش مع زوج سيّئ الأخلاق إلى امتلاك ولدٍ معاق وغير ذلك. كلّ هذه أمورٌ مؤلمة لا بدّ من حدوث بعضها في هذه الحياة. والمهمّ هنا هو ردّة فعلنا وتعاملنا مع مثل هذه المشاكل. أولئك الذين لا يريدون سوى رضا الله، لا يهمّهم سوى أن يؤدّوا تكليفهم ووظيفتهم ويواجهون الصعاب بالصبر والتحمّل. وفي هذا المجال، يوجد قصّةٌ معروفة أنقلها هنا دون

الاعتناء بصحّتها أو سقم جزئيّاتها، بل لمجرّد ما فيها من عبرةٍ تربويّة.

يُقال إنّ عارفًا صاحب قلب حيٍّ كان يعيش في منطقة «خرقان» واسمه الشيخ «أبو الحسن الخرقاني»، وقد بلغت شهرته الآفاق. وفي أحد الأيام، جاء شخصٌ طالبٌ للحقيقة من مدينةٍ بعيدةٍ لملاقاة الشيخ في «خرقان» عسى أن ينال منه نصيحة أو يستفيد من كراماته. وبعد عناءٍ شديد، وصل هذا الطالب إلى محلّ سكن الشيخ ووجد منزله. وحين طرق الباب خرجت زوجة الشيخ «أبو الحسن» وأرادت أن تعرف من هو هذا الرجل المجهول، فأجاب باحترامٍ أريد أن أزور الشيخ؛ وما إن سمعت كلامه حتى انطلق لسانها بالشتم والسب له ولزوجها. وبعد الإصرار الشديد من هذا الرجل للالتقاء بالشيخ، قالت له المرأة إنّ زوجها قد ذهب إلى البادية لجمع الحطب. فذهب هذا الرجل عبر المسير الذي ذكرته زوجة الشيخ، فشاهد من بعيد رجلًا يركب حيوانًا وهو يحمل كومة الحطب، وحين اطمأنّ إلى أنّ هذا الرجل هو «أبو الحسن الخرقاني» فرح كثيرًا لأنّه وجد ضالّته. وحين اقترب منه التفت إلى أنّ الشيخ يركب أسدًا ضخمًا، فذُعر وتسمّر في مكانه وسأله: هل أنت الشيخ أبو الحسن الخرقاني؟! فقال له: أجل. وقبل أن يعرض هذا الرجل حاجته، ذكر له ما قالته زوجته وفعلته من سلوكٍ سيّئ وقال له: أيّها الشيخ كيف تعيش مع مثل هذه المرأة ولماذا لم تطلّقها إلى الآن؟ فأجابه الشيخ: إنّ هذا المقام والكرامات التي وهبني الله إيّاها كان بسبب صبري على أخلاق زوجتي السيّئة.

النقطة المهمّة في هذه القصّة هي أنّ الإنسان إذا صبر على الأمور المكروهة في حياته من أجل رضا الله، فسوف ينال المقامات المعنويّة العالية: **«وَلَا تَنَالُونَ مَا تَأْمُلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ»**.

ومن مصاديق مخالفة النفس أيضًا اجتناب النظرة الحرام. فمن اللذائذ التي تحصل بكلّ سهولةٍ ومن دون أيّ تعب هي تلك اللذّة التي تعطيها العين. وبشكلٍ عام، فإنّ مشاهدة الطبيعة أو ذهاب وإياب الإنسان في الشارع قد يمنح الإنسان سكينة. فلو حُبس الإنسان في غرفةٍ ولم ينظر إلى شيء سيكون الأمر صعبًا جدًّا عليه. لكنّه من جانبٍ آخر إذا لم يراقب عينيه من الممكن أن يسقط في فخّ الشيطان. فلو نظر الإنسان إلى أشياء لا يجوز له النظر إليها، فإنّه في الواقع يكون كمن بذر في قلبه بذور الشهوة، ونتيجة ذلك أنّ هذا الإنسان لن يصل إلى أهدافه

العقلانيّة، بل حتّى أهدافه الدنيويّة الصحيحة، وسوف يُعاني في أخذ القرارات أيضًا.

فلو أنّ الإنسان أمسك بعنان بصره منذ البداية ولم يترك له حريّة النظر، يمكنه أن يصون نفسه من الآثار السيّئة للشهوة، أمّا إذا كان مطلق العنان له ولم يحترز من النظرات غير الصحيحة، لا أنّه لن يصل إلى كمالاته المعنويّة فحسب، بل ستعرُض عليه حالاتٌ أشبه بالحيوانات؛ ومثل هذه الحالات كافيةٌ لوقوع الإنسان في الفتنة والانحراف عن المسير الصحيح: «**إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ وَكَفَى بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً**».

ضرورة اجتناب الأحكام المتسرّعة

هناك أشخاصٌ يُسارعون إلى إصدار الأحكام ولا يرون إلّا الظواهر، فما إن يشاهدوا ظاهر إنسانٍ أو شيءٍ حتّى يحكموا مباشرةً بشأن حُسنه أو قُبحه. فهذه الحالة من السطحيّة ليست فقط مخالفةً لشأنيّة المؤمن فحسب، بل لا تنسجم حتى مع شأن أيّ إنسانٍ عاقل. إنّ حكم الإنسان العاقل ينبغي أن يقوم على أساس التحقيق والنظرة البعيدة المدى. فمجرّد وجود ظاهرٍ خدّاع أو سلوك جيّد أو سيّئ، لا ينبغي أن يكون أساسًا لحكم الإنسان. لكن للأسف، إنّ الكثير من الناس هم على هذه الشاكلة، فيكون أساس حكمهم هو تلك الاستنتاجات السطحيّة والبدويّة، فيسقطون في مصيدة الشيطان في الكثير من الحالات بسبب أحكامهم الخاطئة هذه.

وفي معرض تحذيره من هذه الآفة، يقول نبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**طُوبَى لِمَنْ جَعَلَ بَصَرَهُ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ بَصَرَهُ فِي عَيْنِهِ**». فمجرّد النظر عبر العين لا يُعدّ بصيرةً أو رؤية، بل هو مجرّد نظرة سطحيّة نشترك فيها مع الحيوانات. والمصداق الواقعيّ لكلمة «القلب» في هذه الجملة هو العقل الذي يجمع الإدراكات الباطنيّة والعميقة.

بناءً عليه، يجب أن نسعى لاجتناب الأحكام المنفعلة والسطحيّة بشأن الأشخاص، التي لا يكون منشؤها سوى تلك الإدراكات الحسيّة الظاهريّة. فلو حكم الإنسان انطلاقًا من التحقيق والدقّة واستعمل عقله، فإنّه لن ينخدع بزخارف الدنيا

وبهارجها. ففي الدنيا، أشياءٌ يمكن للإنسان أن يتسرّع في الحكم بشأنها بمجرّد مشاهدتها، وعلى هذا الأساس ينخدع. فلو فكّر الإنسان جيّدًا سيلتفت إلى أنّ للكثير من الأشياء ظواهر خدّاعة وليست جيّدة في باطنها. فقد يُبتلى الإنسان بسنواتٍ من الشقاء والتعاسة بسبب نظرةٍ واحدة؛ كما أنّه لا يمكن من خلال رؤية ظاهر الأشخاص الحكم بشأن شخصيّتهم الحقيقيّة. من الممكن أن يكون ظاهر بعض الأشخاص صالحًا، وبحسب المصطلح «حزب اللهي»، لكنّهم في الباطن أفرادًا من ذوي الوجهين والنفاق، وبالعكس قد يكون للبعض ظاهر غير جيّد لكنّ باطنهم يكون أفضل من ظاهرهم. من هنا، لا ينبغي أن نكتفي بالمشاهدات الظاهريّة والحكم السريع على أساسها، بل ينبغي أن نستخدم عقولنا بتبع الإدراكات الحسيّة.

آفات تتبّع عيوب الآخرين

إنّ الكثير من الناس، بدل أن يتتبّعوا عيوب أنفسهم، فإنّهم يسعون دائمًا لتتبّع عيوب الآخرين. إنّ مثل هذا النوع من الأشخاص يجعلون سلوك الآخرين تحت المجهر حتّى بمجرّد أن يشاهدوا أدنى زلّةٍ أو خطأ منهم يبدأون بتعييرهم؛ فمثل هذه الحالة تنبع من حبّ الذات. فمثل هذا الإنسان وبسبب حبّه لذاته لا يريد أن يصدّق أنّه ملوّثٌ بالعيوب الكثيرة. كلّ النّاس مطّلعون على نقائصهم ونقاط ضعفهم: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾[1]، لكن بعض هؤلاء وبسبب امتلاك هذه الحالة من حبّ الذات والعجب يتظاهرون وكأنّهم خالون من كلّ أنواع العيوب والمشاكل. ولأجل أن يغطّي هؤلاء على عيوبهم، فإنّهم يقارنون أنفسهم بأولئك المبتلين بالعيوب الأشدّ سوءًا لكي يظهروا أنّهم أفضل من الآخرين، وحتى يُرضوا أنفسهمَ بأنّهم ليسوا بمثل هذا السوء!

فلو أردنا أن نبعد هذا الدافع الشيطانيّ عن أنفسنا، يجب أن نسعى لاكتشاف عيوبنا وإزالتها بدل أن نشتغل بتتبّع عيوب الآخرين. فلو أنّ الإنسان كان عازمًا جازمًا للتخلّص من هذا الفخ الشيطانيّ، فلن يجد مجالًا للالتفات إلى عيوب الآخرين.

---

(١) سورة القيامة، الآية ١٤.

أولئك الذين يسعون لإظهار عيوب الآخرين انطلاقًا من غرورهم وتكبّرهم، يتصرّفون وكأنّهم هم أرباب الناس، فيحقّ لهم أن يفشوا عيوب الآخرين ويقيّموا سلوكهم. فنبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول هنا إنّ على الإنسان أن يعمل على التخلّص من هذه الخصلة، بل عليه أن يكون كالعبد المتواضع الذي يسعى ليبقى في أمان من معاقبة سيّده له، فلا يرتكب أيّ مخالفة: «**لَا تَنْظُرُوا فِي عُيُوبِ النَّاسِ كَالْأَرْبَابِ وَانْظُرُوا فِي عُيُوبِكُمْ كَهَيْئَةِ الْعَبِيدِ**».

إنّ التربية الدينيّة تقتضي أن يتعرّف الإنسان أوّلًا على عيوبه ويعمل على إزالتها، ومن ثمّ يهتمّ بعيوب الآخرين ونقائصهم ونقاط ضعفهم.

إنّ روحيّة تقبّل النقد تُعدّ من الطرق الأخرى التي تؤدي إلى إزالة العيوب الظاهريّة والباطنيّة. فلا ينبغي أن نكتفي بانتقاد أنفسنا، بل ينبغي أن نسمح للآخرين بذلك لكي يدلّونا على عيوبنا التي لم تُدركها أعيننا. لقد كان الكثير من أعاظم الأخلاق على هذا النحو، كانوا يذهبون إلى أساتذتهم ويرجونهم أن يدلّوهم على عيوبهم من أجل أن يُزيلوها.

ولكن للأسف إنّ الكثير من الناس ليسوا هكذا، بل يعملون على إخفاء وإنكار تلك العيوب التي يعرفونها. من هنا، فإنّهم يسعون لتتبّع عيوب الآخرين لأجل تعييرهم.

ومن الآفات الأخرى للتدقيق والفحص في سلوك الآخرين هو شعور الإنسان بالتكبّر والعجب حين يرى النقص فيهم، لا سيّما إذا كان ذاك النقص من العيوب الظاهريّة ولم يكن هو مبتلًى بها؛ فمثل هؤلاء الغافلين من الممكن أن يستهزؤوا ويسخروا من الآخرين بمجرّد مشاهدة عيوبهم، أو إنّهم إذا كانو مؤدّبين جدًّا فإنّهم يضحكون في سرّهم ويقولون في أنفسهم إنّنا أفضل بكثير من هؤلاء لأنّنا لسنا مبتلين بتلك العيوب! وفي هذا المجال، يجب الالتفات إلى أنّ الناس ينقسمون في هذا المجال إلى طائفتين: إمّا أن يكون فيهم نقصٌ وعيب، وإمّا أن يكونوا في عافيةٍ وسلامة، وهذه العيوب تشمل أيضًا النقائص الجسمانيّة وغيرها. وعلى أيّ حال، حين يواجه الإنسان شخصًا فيه نقصٌ، ينبغي أن يشكر الله لأنّه حفظه من هذا العيب والنقص بدل أن يحقرّ ذلك الإنسان. حتى إنّه ورد عندنا في إحدى الروايات أنّه إذا التقيتم بكافرٍ فقولوا: «الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا...

وَجَعَلَنِي حَنِيفًا مُسْلِمًا»[1]. ففي الأمور الظاهريّة، يكون الأمر هكذا أيضًا، فإذا التقينا بشخصٍ يُعاني من نقصٍ في بدنه فعلينا أن نشكر الله على السلامة منه؛ ويصدق هذا الأمر أيضًا على الأمور العلميّة والأخلاقيّة والدينيّة. فإذا صادفنا شخصًا ضعيفًا من ناحية قوّة الفهم والاستدلال، أو مبتلًى بصفة أخلاقيّة سيّئة أو بمعصيةٍ، أو محرومًا من تلك النعم التي نتنعّم بها عمومًا، ينبغي لنا أوّلًا أن نشكر الله بأنّنا لسنا كذلك، وثانيًا أن ندعو له لكي يفيض الله عليه بتلك النعمة: «**إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا الْمُبْتَلَى وَاحْمَدُوا الله عَلَى الْعَافِيَةِ**».

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٠، الصفحة ١٣٢.



الدرس الرابع والعشرون

أخلاق السالكين

- تفاوت درجات قيمة الأعمال
- نقطة تربويّة: الالتفات إلى ارتباط المعرفة
- العطف على القساة
- القيمة الأخلاقيّة للعفو

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ سَبَّكَ وَأَنْصِفْ مَنْ خَاصَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ كَمَا أَنَّكَ تُحِبُّ أَنْ يُعْفَى عَنْكَ، فَاعْتَبِرْ بِعَفْوِ اللهِ عَنْكَ، أَلَا تَرَى أَنَّ شَمْسَهُ أَشْرَقَتْ عَلَى الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَأَنَّ مَطَرَهُ يَنْزِلُ عَلَى الصَّالِحِينَ وَالْخَاطِئِينَ»[1].

تفاوت درجات قيمة الأعمال

لا يخرج ردّ فعل الإنسان على التصرّفات غير اللائقة للآخرين عن عدّة حالات: فإمّا أن يتصرّف بشكلٍ أسوأ، أو بشكلٍ مشابه، أو يغضّ النظر ويتجاوز، أو أن يتجاوز ويصفح ويُحسن في المقابل.

من البديهيّ أنّ النظام الأخلاقيّ والقيميّ في الإسلام يُعدّ الحالة الأولى قيمةً سلبيّة، أي إنّ ظلم الآخرين هو أمرٌ مذمومٌ قطعًا ويقينًا. والسلوك الثاني أي المقابلة بالمثل تُعتبر مجازةً في بعض الحالات. لكنّ غضّ النظر عن التصرّفات القبيحة للآخرين أو الإحسان إليهم في مثل تلك الحالات فإنّه من القيم العظيمة والسامية. وقد ذكر **القرآن** أيضًا حكمًا عامًّا فيما يتعلّق بأولئك الذين يتصرّفون بطرقٍ غير لائقة: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[2]، أي واجه إساءة الآخرين بالإحسان

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٤.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٩٦.

إليهم. ومثل هذه الآية قد وردت في موضعين من القرآن. وفي الموضع الآخر تكمل الآية: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

إنّ التصرّف الحسن في مقابل التصرّف السيّئ، الذي يصدر من الغير، بالإضافة إلى كونه قمّة القيم الأخلاقيّة، فإنّه يُعدّ سببًا لإيجاد دافعٍ في الطرف المقابل لاكتساب هذه القيمة الأخلاقيّة. يوجد في المنظومة القيميّة الإسلاميّة للسلوكيّات الإنسانيّة درجات ومراتب مختلفة من الناحية القيميّة. فهذه القيمة قد تصل أحيانًا إلى حدّ تكون فاقدة للفعاليّة، وفي أحيانٍ أخرى قد تكون إيجابيّة، وذلك أيضًا بدرجاتٍ متفاوتة. فمثلًا فيما يتعلّق بتصرّف الآخرين السيّئ، لو أنّ الإنسان تصرّف بطريقةٍ مشابهةٍ لذلك التصرّف، فهذا التصرّف من الناحية القيميّة فاقد للفعاليّة ويصل إلى درجة الصفر لأنّه ليس قيمةً سلبيّة ولا قيمةً إيجابيّة. أمّا عمل ذاك الذي لا يواجه سلوك الآخرين السيّئ بالمثل، بل يُحسن إليهم في المقابل فهذا يُعدّ ذا قيمةٍ إيجابيّة.

وفي بحث فلسفة الأخلاق، هناك من يعتقد عمومًا أنّ السلوك إمّا أن يكون حسنًا أو سيّئًا. يقول «كانت» الفيلسوف الأخلاقيّ المعروف في هذا المجال: إنّ للفعل الحسن شروطًا يمكن مع تحقّقها اعتباره حسنًا، ومن هذه الشروط أن يقوم الإنسان بالعمل لأجل طاعة حكم العقل أو الوجدان، لا انطلاقًا من العواطف والدوافع الأخرى. فعلى أساس نظرة «كانت»، إنّ عمل الأمّ التي تقوم في منتصف الليالي من فراشها الدافئ لأجل الاهتمام بطفلها ورعايته هو فاقدٌ للقيمة الأخلاقيّة، لأنّ الأمّ هنا قد قامت بهذا العمل لأجل إرضاء عاطفتها!

أمّا في الجهاز القيميّ الإسلاميّ فإنّ للقيم الإيجابيّة مراتب ودرجات، فلا يدور الأمر بين السلب والإيجاب. فمن الممكن أن يكون لعملٍ ما قيمةٌ من الدرجة الأولى وحتّى اللامتناهي. فلمراتب العبوديّة والإخلاص كلّها قيمة، غاية الأمر أنّها بدرجاتٍ متفاوتة. فالإخلاص الكامل الذي يبتغيه الإسلام هو ذاك الإخلاص الذي كان موجودًا في الإمام علي عَلَيهِ السَّلَامُ. فهذا الإمام هو الذي كان يقول: «مَا عَبَدْتُك خَوْفًا مِنْ نَارِكَ وَلَا طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ، لَكِنْ وَجَدْتُك أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُك»[2].

---

(١) **سورة فصلت**، الآية ٣٤.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحة ١٨٦.

بناءً عليه، فإنّ النظام القيميّ الإسلاميّ لا يأخذ القيم على نحو الكلّ أو لا شيء، بل للأعمال الحسنة مراتب ودرجات كثيرة. بالطبع، إنّ قيمة الكثير من هذه الأفعال يرتبط بنيّة الإنسان، فكلّما ازداد إخلاص الإنسان في عملٍ ما سترتقي قيمته بمستوى ذلك الإخلاص. والإخلاص لا يتحقّق بمجرّد التلفّظ بـ«قربة إلى الله»، بل إنّ العمل ينبغي أن يكون حقًّا ومن صميم القلب لأجل الله.

نقطة تربويّة: الالتفات إلى ارتباط المعرفة بالدافع

لا يمكن للإنسان أن يكتسب المراتب العليا للكمال دفعةً واحدةً، لأنّ هذا الأمر المهمّ لا يمكن أن يتحقّق إلّا بتربية النفس وبالتدريج. كما أنّ تربية البشر بحسب المنظومة التربويّة الإسلاميّة ينبغي أن تكون منسجمة مع مستوى معرفتهم وإدراكاتهم وفهمهم. في الواقع، يرجع الاختلاف بين مراتب قيمة الأفعال إلى الاختلاف في معرفة الأفراد وتربيتهم، وبحسب معرفتهم تكون تربيتهم متفاوتة. فنحن جميعًا نعلم أنّ شرط صحّة الصلاة هو أن يؤدّيها الإنسان بنية القربة، فلو كانت الصلاة لأجل أغراض مادّيّة أو للرياء ففيها إشكالٌ. ولكن هل يستطيع جميع المسلمين أن يؤدّوا الصلاة بإخلاصٍ كامل؟ في الواقع، لا يمكن لجميع الناس أن يحقّقوا الإخلاص الكامل في أعمالهم وفي جميع مراحل الحياة وظروفها، ذاك لأنّ الناس متفاوتون من حيث المعرفة. فمثلًا لا يمكن أن نتوقّع من فتاة بعمر تسع سنوات بلغت سنّ التكليف حديثًا أن تؤدّي صلواتها وسائر عباداتها بإخلاصٍ كامل.

فعلى الإنسان أن يستعمل الترغيب والتشجيع على الصلاة إذا أراد للطفل أن يصلّي، حتّى لو مدحه وأثنى عليه أمام الآخرين. صحيحٌ أنّ هذا النوع من الدوافع يؤثّر في نيّة الطفل ويخدش إخلاصه، لكنّه لا يوجد طريقٌ آخر لجعله يصلّي. فمعرفة الطفل لا تصل إلى مستوى إدراك هذا النوع من القضايا، فإنّ مجرّد صلاته على الوقت يُعدّ أمرًا كافيًا. ولكنّه بالتدريج وبزيادة عقله ومعرفته سيتمكّن من تخليص نيّته حتّى يصل إلى المراحل العليا للتكامل.

لو أردنا أن نؤدّي أعمالنا وفق النظام الأخلاقيّ عند «كانت» (الذي يقول إنّ الفعل الأخلاقيّ إنّما يكون أخلاقيًّا إذا كان بدافع اتّباع حكم العقل أو الوجدان)، فلعلّنا لن نجد من بين ملايين البشر وأفعالهم مصداقًا واحدًا يكون فقط لأجل اتّباع حكم العقل. ولكن كما أشرنا فإنّ الجهاز التربويّ في الإسلام يقوم بتربية الناس

بحيث يجعلهم يلتفتون إلى دوافعهم المختلفة.

وكمثالٍ، إنّ من مسؤوليّات المسلمين الجهاد، ولأنّ ذلك يُعدّ عبادةً ينبغي أن يكون قربةً إلى الله. لكن بما أنّ الناس ليسوا جميعهم بمستوًى رفيع من ناحية الإخلاص، فقد اعتنى الإسلام بالدوافع المختلفة للأفراد لأجل حثّهم على الجهاد. فبعض الأفراد يكون دافعهم في المشاركة في الجهاد ما يغلب عليه البعد الماديّ. فلأجل حثّ هؤلاء على الجهاد يقول الله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾[1]. فمثل هذا الفعل هو نحوٌ من إيجاد الدافع، تمامًا مثل أنّنا نريد من أبنائنا أن يصلوا ليكون لهم فرصة الحصول على بعض الألعاب. يوجد في المجتمع أشخاصٌ يعيشون بحكم الأطفال، ينبغي سوقهم نحو الأفعال الحسنة بواسطة الوعد والوعيد. بالطبع، لا يكتفي الإسلام بهذا الحدّ، ولهذا يعرّفنا على قيمٍ أعلى للجهاد، ومن جملة ذلك قيمة الانتصار على العدوّ الذي يظلم المسلمين ويعتدي عليهم، أو قيمة الجنّة والنعم الإلهيّة الباقية، أو قيمة تحصيل رضا الله.

بالطبع، إنّ **القرآن** في تتمّة ذلك يوبّخ أولئك الذي يشاركون في الجهاد بدوافع مادّيّة ويقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِـرَةَ﴾[2]. فالاهتمام بالآخرة يمثّل دافعًا أعلى، وهو أيضًا ذو مراتب كثيرة مثل النجاة من العذاب، والأجر والثواب الدائم، والمراتب العليا في الجنّة وجنّات عدن. وهناك من يكون دافعهم وهمّتهم أعلى من ذلك أيضًا، لأنّهم لا يريدون سوى رضا الله؛ وإن كان عدد أمثال هؤلاء قليل، لكنّ الإسلام يريد أن يرشد كلّ الناس نحو هذا الدافع بالتدريج. وعلى أيّ حال، ما يريده الإسلام من خلال هذه الدوافع هو جذب اهتمام الناس من الأهداف المادّيّة والدنيويّة إلى الأهداف المعنويّة والأخرويّة.

بناءً عليه، فإنّ منهج الإسلام التربويّ لتحقيق القيم يلحظ مراتب معرفة الناس، فلم يحصر الله تربيته بأمثال سلمان وأبي ذر، بل جعل الآخرين أيضًا تحت تأثير التربية الإسلاميّة والقرآنيّة بما يتناسب مع فهمهم ومعرفتهم. ولكن بما أنّ همم الناس مختلفة، فإنّ الذين هم من أصحاب الهمم الدانية يخضعون للتربية بواسطة

(١) سورة **الفتح**، الآية ٢٠.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٦٧.

إيجاد الدوافع الماديّة، أما أصحاب الهمم العالية فإنّهم يتعرّفون على حقائق أخرى. ففي هذه المرحلة، يُدرك الإنسان محبّة الله، وحين تتحقّق محبّة الله فإنّ الكثير من مشاكل الإنسان تُحلّ.

العطف على القساة

إنّ لمعاشرة أولئك الذين يتصرّفون في المجتمع بطرقٍ غير لائقة (مثل ذوي اللسان السليط أو قليلي الأدب أو الذين يظلمون أو الذين لا يراعون حقوق الآخرين) درجات مختلفة. وإنّ أفضل سلوك مع هذا النوع من الأفراد المقابلة بالأحسن. فبواسطة هذا الفعل، تحلّ مشاكلنا الدنيويّة بالدرجة الأولى، لأنّ السلوك الحسن مع ذاك الذي يسعى لأذيّتنا يؤدّي أوّلًا إلى الأمن من شرّه، وثانيًا يبدّل العدوّ إلى صديق: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. كما أنّ مثل هذا الفعل يؤدّي بالإنسان إلى أن تصبح أعماله بالتدريج فقط لأجل كسب رضا الله، الأمر الذي يُعدّ من المراتب العليا للقيم. فلا يمكن للإنسان أن يتصوّر دافعًا أعلى من كسب رضا الله، ولهذا نجد الإسلام والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يريدون أن يربّوا الإنسان بطريقةٍ يصل معها إلى هذا الحدّ من المعرفة والكمال.

من هنا، يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من كلامه، مخاطبًا عبد الله بن جندب، اجعل ارتباطك وصلتك بأقاربك وإخوانك وجيرانك الذين قطعوك أكثر إحكامًا ولا تعاملهم بالمثل؛ كما إنّك إذا احتجت إلى مساعدة أحدٍ لكنّه بخل ولم يُعنك فلا تحرمه حين حاجته إليك. فليكن جوابك لمن يُعاملك بالسوء الإحسان حتى لو طعن بك وأساء فاحترمه، وليكن تعاملك برفعةٍ وعزّةٍ مقابل ظلم الآخرين وإساءتهم وتجاوز عن أفعالهم: «**صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ سَبَّكَ وَأَنْصِفْ مَنْ خَاصَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**». ثم يؤكّد الإمام على هذه النقطة من أجل إيجاد الدافع في أصحابه فيقول: ألا يحبّ كلّ واحد منكم أن يصفح الله عن سيئاته؟ «**كَمَا أَنَّكَ تُحِبُّ أَنْ يُعْفَى عَنْكَ**». فلا يوجد شخصٌ من غير المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يحتاج إلى عفو الله. بالطبع، هم أيضًا يرون

(١) سورة **فصلت**، الآية ٣٤.

في مقامهم ذنوبًا وتقصيرًا يجعلهم يخافون من الله أكثر بكثير ممّا نخاف، ويطلبون منه العفو. فكيف نكون طالبين لعفو الله لكنّنا غير مستعدّين للعفو عن الآخرين؟! ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[1].

وقد جاء في الروايات أنّ الذي يعفو عن الآخرين فإنّ الله سيعفو عن سيّئاته يوم القيامة. وكمثالٍ: إنّ الذين يتساهلون في المعاملات ويعفون، لن يشدّد الله عليهم في الحساب يوم القيامة. أمّا أولئك الذين يتشدّدون في التعامل مع الآخرين لكي لا يخسروا فلسًا واحدًا، فإنّ الله سيشدّد عليهم يوم القيامة. بناءً عليه، إذا أردنا أن يتجاوز الله عنّا ويصفح، يجب علينا أن نسعى للتعامل بإحسانٍ مع الآخرين والعفو عن أخطائهم.

القيمة الأخلاقيّة للعفو

إنّ من أكبر الفضائل الأخلاقيّة التي أكّد **القرآن الكريم** والروايات عليها كثيرًا هي قضيّة العفو والصفح: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[2]. فإذا أردنا أن يعفو الله عن أخطائنا، ينبغي أن نعفو ونصفح عن أخطاء الآخرين: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[3].

والسؤال الذي يمكن أن يُطرح ها هنا هو: هل إنّ لهذه الفضيلة الأخلاقيّة قيمةٌ مطلقةٌ أم نسبيّة؟ وبعبارةٍ أخرى، هل ينبغي للإنسان أن يعفو عن الآخرين في كلّ الحالات والظروف أو لا؟

وبمعزلٍ عن بحث النسبيّة في فلسفة الأخلاق، والتي على أساسها تكون القيم كلّها تابعةً لموضوعاتها، يجب القول إنّ الفعل قد يقع مصداقًا لعدّة عناوين أحيانًا. فإذا كنّا في عصر الطّاغوت مثلًا وسُئلنا بشأن ذاك الشخص المظلوم الذي هرب من أيدي جلاوزة جهاز الاستخبارات ولجأ إلينا، هل إنّكم رأيتموه أو لا، فبماذا ينبغي أن نُجيب؟ هل ينبغي لنا أن نكشف عن مكان هذا الشخص لأنّ الكذب ليس جيّدًا،

---

(١) **سورة النور**، الآية ٢٢.

(٢) **سورة آل عمران**، الآية ١٣٤.

(٣) **سورة النور**، الآية ٢٢.

أم علينا أن نقول لا نعلم لأجل نجاة هذا الشخص المظلوم ونتظاهر بعدم المعرفة؟ فلو قلنا لا نعلم، وإن كان هذا الجواب يتّخذ صبغة الكذب، ولكن يوجد عنوانٌ آخر هنا أيضًا وهو نجاة شخصٍ بريء؛ فهنا يجب أن نرى أيّ قيمةٍ أهمّ، هل هي قيمة الصدق أم قيمة إنقاذ إنسان بريء من يد الظالم؟

ولقضيّة العفو عن الآخرين مثل هذا الحكم أيضًا، أي إنّه من الممكن أن تتغيّر قيمتها مع طرح عدّة عناوين أخرى. فلو كان العفو عن شخصٍ ما سببًا لتضييع حقوق فردٍ أو أفرادٍ آخرين، فسوف يكون له حكمٌ مختلف. فمثلًا إذا كان هناك شخصٌ يُشارك شخصًا آخر في المال، وكان هناك من خان في هذا المال، وأردنا أن نعفو عنه ها هنا فسوف نكون شركاء للظالم نفسه لأنّ ذاك الشريك يمكن أن لا يكون راضيًا عن فعلنا هذا. فهنا يؤدّي التخلّي عن الحقّ إلى تضييع حقٍّ آخر والأمر الذي لا يُعدّ أمرًا حسنًا بنظر الشرع والأخلاق.

كذلك من الممكن أن يؤدّي العفو عن شخصٍ مذنب إلى تجرّئه، أي إنّه يؤدي إلى جعل هذا الشخص يكرّر أفعاله القبيحة. ففلسفة العفو والصفح تكمن في تنبيه الإنسان الخاطئ لكي يُصلح نفسه ويبدّل عداوته إلى صداقة: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. بناءً عليه، لو أدّى العفو إلى تجرّؤ الشخص المذنب أكثر، فلا ينبغي أن نعفو عنه.

وبشكلٍ عام، يجب على الإنسان أن يأخذ مصالحه ومصالح المجتمع دائمًا بعين الاعتبار. فعلى هذا الأساس، فمن غير المعلوم أن يكون العفو هو أفضل طريقٍ دائمًا، فمن الممكن مثلًا أن يؤدّي تنبيه ومعاقبة الشخص الذي داس على حقوق الآخرين إلى منعه من تكرار فعله السيّئ. وفي الأساس، إنّ من حكمة وفلسفة الأحكام الجزائيّة في الإسلام هي هذه النقطة التي ترتبط بإصلاح الفرد والمجتمع. وما حكم الإسلام في بعض الموارد بضرورة إقامة الحدّ على مرأى ومسمع العموم، إلّا بهدف أن يعتبر الآخرون ولا يرتكبون مثل هذا الفعل.

في بداية الثورة حين كانوا يعاقبون المجرمين، كان البعض يقول إنّ هذا الفعل

---

(١) سورة **فصلت**، الآية ٣٤.

يتنافى مع العفو والرأفة في الإسلام. وهناك رواية تقول إنّ الإمام المهدي (عج) حين يظهر سيعاقب العصاة والظالمين لدرجة أنّ البعض يقولون إنّه لو كان من وِلد فاطمة لما أهرق مثل هذه الدماء، أي إنّهم يرون فعله هذا مخالفًا للرحمة والعاطفة الإسلاميّة. والآن، ينبغي أن نرى ما هي نتيجة ترك معاقبة أمثال هؤلاء؟ يقول **القرآن الكريم** في هذا المجال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

إنّ إجراء الحقوق الإلهيّة يؤدّي إلى الرحمة بالمجتمع وحياته. يؤكّد القرآن على هذه القضيّة ويقول: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]. بالطبع في الموارد التي تقتضي مصالح الإسلام والمجتمع الإسلاميّ، يحقّ للحاكم الشرعيّ (الولي الفقيه) في العفو.

بناءً عليه، إنّ فلسفة إجراء الحدود والديّات والقصاص هي الحؤول دون شيوع الفساد في المجتمع، وقد جاء في الروايات أنّ بركة إقامة حدٍّ من حدود الله في المجتمع هي أكثر من الأمطار التي تنزل على الأرض وتؤدّي إلى اخضرارها ونباتها. يجب على مسؤولي النظام الإسلاميّ أن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار وهي أنّ العفو والصفح عن أولئك الذين خانوا بيت المال قد يكون في بعض الحالات خيانةً عظمى للمجتمع والشعب. يقول تعالى بشأن أولئك الذين ارتكبوا أعمالًا مخالفةً للعفّة وشهد عليهم أربعة عدول أنّهم ارتكبوا مثل هذا العمل القبيح: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾[3].

إنّ رعاية مصالح المجتمع هي أهمّ بكثير من الحفاظ على سمعة شخصين ارتكبا أعمالًا مخالفة للعفّة، فقد تكون فائدة إقامة الحدود الإلهيّة أكبر بكثير من العفو والصفح عن بعض العصاة.

يقول الإمام جعفر الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من كلامه: «**وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ كَمَا أَنَّكَ تُحِبُّ أَنْ يُعْفَى عَنْكَ**». بالطبع، وكما مرّت الإشارة سابقًا يجب الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّه لا يحقّ لنا أن نعفو عن أولئك الذين خانوا بيت المال،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٧٩.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٩.

(٣) سورة **النور**، الآية ٢.

وإنّما نستطيع أن نعفو عمّا هو حقٌّ لنا.

النقطة الأخرى هي قضيّة حقّ الله وحقّ الناس. فلو ارتكب شخصٌ جناية بحقّ شخص آخر، حتّى وإن عفا عنه ذلك الشخص، فلا يعني ذلك أنّه سيحصل على العفو الإلهيّ. وبعبارةٍ أخرى، إنّ تجاوز صاحب الحقّ عن حقّه لا يعني أنّ حقّ الله قد عُفي عنه؛ إنّما يُعفى عن حقّ الله بالتوبة وقبولها من جانب الله. بناءً عليه، ينبغي في مثل هذه الحالات أن نطلب العفو والصفح من الله لكي يعفو عنّا خالق الوجود، إلى جانب وجوب تحصيل رضا الناس.

يقول الإمام في تتمّة الاعتبار من عفو الله وكرمه: «**فَاعْتَبِرْ بِعَفْوِ اللهِ...**». إنّ من الصفات الإلهيّة أنّه تعالى يشمل برحمته الصالح والسيّئ. وعلينا نحن كبشر أن نسعى لنكون مظهرًا لصفات الله، فحين تقتضي الحكمة والمصلحة، ينبغي أن نتصرّف بالعطف والرأفة مع جميع الناس سواء الصالحين أو السيّئين. فهذا الأمر يشكّل دافعًا أعلى لكي يقوّي الناس سعيهم من أجل الوصول إلى مظهريّة رحمانيّة الله؛ لأنّ الله، الذي هو الكمال المطلق، لا يحرم العصاة من رحمته: «**أَلَا تَرَى أَنَّ شَمْسَهُ أَشْرَقَتْ عَلَى الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَأَنَّ مَطَرَهُ يَنْزِلُ عَلَى الصَّالِحِينَ وَالْخَاطِئِينَ**».



الدرس الخامس والعشرون

الله والآخرة غاية أفعال المؤمن

- دور النيّة في العبادات
- الرياء آفة الإنفاق
- تأثير الرؤية الصحيحة على سلوك الإنسان
- توجيه الحياة في ظلّ الاعتقاد بالمعاد
- الآخرة محل السعادة والشقاء الواقعيّ
- التفكّر بشأن النعم الإلهيّة
- مسؤوليّة الإنسان تجاه النعم الإلهيّة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، لَا تَتَصَدَّقْ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لِيُزَكُّوكَ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَوْفَيْتَ أَجْرَكَ، وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَ بِيَمِينِكَ فَلَا تُطْلِعْ عَلَيْهَا شِمَالَكَ، فَإِنَّ الَّذِي تَتَصَدَّقُ لَهُ سِرًّا يَجْزِيكَ عَلَانِيَةً عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي لَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا يُطْلِعَ النَّاسَ عَلَى صَدَقَتِكَ [...] يَا ابْنَ جُنْدَبٍ الْخَيْرُ كُلُّهُ أَمَامَكَ وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ أَمَامَكَ، وَلَنْ تَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَّا بَعْدَ الْآخِرَةِ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَزَّ جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الْجَنَّةِ وَالشَّرَّ كُلَّهُ فِي النَّارِ لِأَنَّهُمَا الْبَاقِيَانِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ وَهَبَ اللهُ لَهُ الْهُدَى وَأَكْرَمَهُ بِالْإِيمَانِ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَرَكَّبَ فِيهِ عَقْلًا يَتَعَرَّفُ بِهِ نِعَمَهُ وآتَاهُ عِلْمًا وَحُكْمًا يُدَبِّرُ بِهِ أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ وَلَا يَكْفُرَهُ، وَأَنْ يَذْكُرَ اللهَ وَلَا يَنْسَاهُ، وَأَنْ يُطِيعَ اللهَ وَلَا يَعْصِيَهُ، لِلْقَدِيمِ الَّذِي تَفَرَّدَ لَهُ بِحُسْنِ النَّظَرِ، وَلِلْحَدِيثِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بَعْدَ إِذْ أَنْشَأَهُ مَخْلُوقًا، وَلِلْجَزِيلِ الَّذِي وَعَدَهُ، وَالْفَضْلِ الَّذِي لَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ طَاعَتِهِ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَمَا يَعْجِزُ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَضَمِنَ لَهُ الْعَوْنَ عَلَى تَيْسِيرِ مَا حَمَّلَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَنَدَبَهُ إِلَى الاسْتِعَانَةِ عَلَى قَلِيلِ مَا كَلَّفَهُ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَمَّا أَمَرَهُ وَعَاجِزٌ عَنْهُ، قَدْ لَبِسَ ثَوْبَ الاسْتِهَانَةِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، مُتَقَلِّدًا لِهَوَاهُ مَاضِيًا فِي شَهَوَاتِهِ مُؤْثِرًا لِدُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ، وهُوَ فِي ذَلِكَ يَتَمَنَّى جِنَانَ الْفِرْدَوْسِ، وَمَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَطْمَعَ أَنْ يَنْزِلَ بِعَمَلِ الْفُجَّارِ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ، أَمَا إِنَّهُ لَوْ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وقَامَتِ الْقِيَامَةُ وَجَاءَتِ الطَّامَّةُ وَنَصَبَ الْجَبَّارُ الْمَوَازِينَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ وَبَرَزَ الْخَلَائِقُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَيْقَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ لِمَنْ تَكُونُ الرِّفْعَةُ وَالْكَرَامَةُ وَبِمَنْ تَحِلُّ الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ، فَاعْمَلِ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا بِمَا تَرْجُو بِهِ الْفَوْزَ فِي الْآخِرَةِ»[1].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨٤ و٢٨٥.

دور النيّة في العبادات

للنيّة في الثقافة الإسلاميّة دورٌ مصيريٌّ على مستوى قيمة الأعمال التي يؤدّيها الإنسان. أمّا فيما يتعلّق بسرّ هذا الأمر فهناك قسمٌ يرتبط بفلسفة الأخلاق وقسمٌ يرجع إلى مجالات أخرى. بما أنّ تناول الأبحاث الموسّعة والاختصاصيّة لا يتّسع له هذا المقال فسوف نكتفي بالإشارة الإجماليّة إلى بعض آثار النيّة.

نقل الشيعة والسنّة حديثًا شريفًا عن النبيّ الأكرم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حيث قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1]. بالطبع، ليس المقصود من النيّة أن يعبّر الإنسان عن دافعه للقيام بأي عمل من خلال اللسان أو الذهن فيقول مثلًا إنّني أؤدّي هذا العمل لأجل الله، بل المقصود هو أن يكون الدافع الواقعيّ للإنسان في عمله رضا الله أو الوصول إلى الثواب الأخرويّ أو في الحدّ الأدنى أن ينجو من العذاب الإلهيّ. فعلى أساس هذا الحديث، إذا أدّى الإنسان عملًا بنيّةٍ غير إلهيّة، فسوف يكون ثوابه ما نوى ولن ينال عند الله الأجر. فمثلًا إذا أنفق ملياردير كلّ ثروته أو قسمًا كبيرًا منها في المصلحة العامّة من قبيل بناء مدرسة أو مستشفى أو جسر وأمثال ذلك، فإذا كانت نيّته من ذلك أن يحصل على الثناء والتعظيم من قبل الناس، فطبق هذا الحديث الشريف يكون قد نال أجره ولن يكون له ثوابًا عند الله.

على أساس الفلسفة الإسلاميّة للأخلاق، فإنّ قيمة العمل الذي لا يكون فيه نيّةٌ لله تكون في حدّ الصفر، وإن كان يقوم بعبادةٍ واجبةٍ وكان فيها الدافع مجرّد التظاهر والرياء، فإنّ القيمة تبقى بمستوى الصفر؛ فبالإضافة إلى أنّ أصل العبادة يبطل، فإنّه ذلك يستتبع عذابًا أخرويًّا. بالتأكيد، إنّ هذا الأمر لا ينسجم مع الثقافة العامّة لأهل الدنيا وخصوصًا غير المسلمين. فهؤلاء لا يمكن أن يتقبّلوا مثل هذا الأمر وهو أن تكون عاقبة الخدمات الكثيرة التي يقدّمها أي إنسانٍ للمجتمع والناس بلا طائل، لمجرّد أنّ الدافع الإلهيّ لم يكن موجودًا فيها. أمّا من ناحية التعاليم الدينيّة فإنّ الإنسان لو قدّم خدماتٍ لأجل الحصول على المحبوبيّة في المجتمع، كأن يُنفق المبالغ الطائلة في المصالح العامّة لأجل أن يفوز في الانتخابات ويحصل على المزيد من الأصوات، فقام الناس بانتخابه، فإنّه يكون في الواقع قد نال أجره

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٦٧، الصفحة ٢١١.

ولا يمكن أن يُطالِب الله بشيءٍ آخر.

في النظام القيمي الإسلاميّ، يكون للشيء قيمة إذا ترك أثرًا جيّدًا في روح الإنسان. وظهور هذه الحالة في الآخرة سيكون في صورة النعم الجنّاتيّة أو سائر النعم الأخرويّة. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ اتصاف الإنسان بالله أو ارتباطه بنعم الجنّة هو ذاك الأثر الذي يبقى في روح الإنسان. فالجنّة ونعيمها يكونان في الحقيقة نتيجة الأعمال التي يقوم بها الإنسان في الدنيا. يقول نبيّ الإسلام الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «حين تقولون سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر فإنّكم تزرعون شجرةً في جنّتكم»، أو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1].

بناءً عليه، إنّ ما يمنح أعمالنا قيمتها ويربطها بالله والعالم الآخر هو نيّتنا القلبيّة. فالحجم والظاهر لا يدلّ على قيمة الشيء أو عدمه. وبعبارةٍ أخرى، لا تكون قيمة الأعمال بحسب كمّيّتها. ففي ظاهر القضيّة لا يوجد أي اختلافٍ مثلًا بين إنفاق المال عبر الطرق المحلّلة أو عبر الطرق المحرّمة، فما يفصل بين هذا وذاك هو نيّة الإنسان. فالدافع والنيّة هما اللذان يحدّدان قيمة أعمال الإنسان.

النقطة الأخرى، هي أنّ العبادات لا تكون بنفس الدرجة بلحاظ مستوى نفوذ وتأثير الدوافع غير الإلهيّة فيها، بل يوجد بينها اختلاف وتفاوت. فعلى سبيل المثال، إنّ الذي يصلّي لأجل التظاهر والرياء من الممكن فقط أن يكون محلّ تشجيع المؤمنين والمصلّين، لكنّ غير المصلّين الذين لا يهتمّون بالصلاة لن يعتنوا بفعله. أمّا في مجال المصالح العامّة كبناء المدارس والمستشفيات وأمثالها، فإنّ المسلم وغير المسلم والمصلّي وغير المصلّي سيرحّب بها ويُثني عليها. بناءً عليه، فإنّ مجال الرياء في إنفاق المال هو أوسع من الصلاة. قليلٌ ما نجد شخصًا يصوّت

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٠، نصّ الحديث: عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِرَجُلٍ يَغْرِسُ غَرْسًا فِي حَائِطٍ لَهُ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غَرْسٍ أَثْبَتَ أَصْلًا وَأَسْرَعَ إِينَاعًا وَأَطْيَبَ ثَمَرًا وَأَبْقَى، قَالَ: بَلَى، فَدُلَّنِي يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: إِذَا أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ فَقُلْ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لله وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله وَالله أَكْبَرُ، فَإِنَّ لَكَ إِنْ قُلْتَهُ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ عَشْرَ شَجَرَاتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ، وَهُنَّ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَات .. [**بحار الأنوار**، الجزء ٢٢، الصفحة ١٢٢].

لمصلّي لأجل صلاته، أمّا إذا كان هذا الشخص يُنفق المال فمن المحتمل أن ينال المزيد من الناخبين والمؤيّدين. من هنا، إنّ دافع الأفراد في العبادة الفرديّة يتفاوت مع العبادات التي يكون فيها منفعة للناس.

الرياء آفّة الإنفاق

إنّ الإنفاق من العبادات التي يُحتمل فيها كثيرًا حصول الرياء. ففيها، يجب على الإنسان بالإضافة إلى أخذ الثواب بعين الاعتبار أن يتصرّف بطريقةٍ لا يخدش بسمعة من يُنفق عليه. فالناس لهم عزّة نفس، وإذا أنفق أحدٌ عليهم أمام الآخرين فإنّهم يتألّمون وينزعجون. فإذا استطاع الإنسان أن يُنفق على محتاجٍ وكان بالإمكان أن لا يعرفه هذا الشخص فهو أفضل بكثير. وكلّما كان الإنسان مهتمًّا بالحفاظ على سمعة وماء وجه الأشخاص كان أجره في الإنفاق عليهم أعلى بدرجات. وقد يكون لعبادةٍ صغيرةٍ جدًّا من الثواب ما يعجز الإنس والجنّ عن تعداده. وهذا بسبب رعاية آداب وجِهات حسن العبادة وكذلك الإخلاص الذي حصل فيها. إنّ العمل الفيزيائيّ أو الحركة المادّيّة لا يمكن أن تكون بذاتها سببًا للقيمة، فبالإضافة إلى الحسن الفعليّ يجب أن يكون هناك حسن فاعليّ، فلا ينبغي أن ينحصر الحُسن بالعمل ذاته بل ينبغي أن يكون الفاعل أيضًا صاحب نيّةٍ حسنةٍ في عمله هذا. يقول **القرآن الكريم** في هذا المجال ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾[1]. بالطبع، إنّ هذا الثواب والقيمة هو بشرط أن يكون الإنفاق في سبيل الله فقط، وبتعبير القرآن: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾[2] و﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3].

من الممكن أن يؤدّي الإنسان عملًا صحيحًا، لكن قد يفعل أمرًا غير صحيحٍ فيحبط قيمة ذاك العمل، مثل النار التي تُحرق المحصول الزراعي: ﴿إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ﴾[4]. ومن الأمور التي تؤدي إلى زوال العمل الصالح، المنّ: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦١.

(٢) سورة **الروم**، الآية ٣٨.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٥.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٦.

صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[1].

إنّ تركيز **القرآن** على الإخلاص في الإنفاق هو أكثر بدرجات من تركيزه على الإخلاص في الصلاة. بالطبع، لا شكّ بأنّ الرياء في الصلاة يؤدّي إلى بطلانها، لكن نادرًا ما نجد آيةً قرآنيّة توصي بالإخلاص في الصلاة، وذلك بسبب أنّ شائبة حصول الرياء في الإنفاق هي أكثر بكثير منها في الصلاة.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في هذا المقطع من وصاياه لعبد الله بن جندب، لا تنفق أمام الناس كي يمدحوك، لأنّك ستكون قد نلت أجرك (أي إنّك لن تنال أجرًا من عند الله). فكن بحيث حين تُنفق بيمينك بألا تعرف شمالك بذلك. وسوف تنال صدقة السرّ (التي لا يضرّك عدم اطلاع الناس عليها في الدنيا) أفضل ثوابٍ في الآخرة، وذلك على أعين جميع الخلائق.

بالطبع، لا ينبغي للإنسان ألّا يسعى وراء أعمال الخير ومنها الإنفاق بسبب احتمال امتزاج عمله بالرياء. فمثل هذا الأمر من الممكن أن يكون من دسائس الشيطان لكي يمنعنا من القيام بالأعمال الحسنة. وعلى أيّ حال، فإنّ الإنسان حين يُنفق ممّا يحبّ، يكون قد قطع مرحلةً من مجاهدة النفس التي تؤدّي إلى طهارتها من بعض الشوائب. ولعلّه لا يوجد ما هو أقبح للمؤمن من البخل؛ يقول الله في القرآن: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2]. فإذا لم ينفق الأسخياء ثروتهم في سبيل الله، فإنّهم يكونون أقرب إلى الجنّة من البخلاء.

النقطة الأخرى هي أنّ القيام بعمل الخير بصورة علنيّة بالطبع في حال كان الإنسان قادرًا على التحكّم بنفسه له بركات وثواب عظيم. حين يقوم الإنسان بعملٍ خيّر علنًا قد يرغب الآخرون ويندفعون للقيام بعملٍ مشابه. فإذا تقرّر أن لا يكون هناك أيّ عملٍ خيّر أمام أعين الآخرين، فإنّ أبناء المجتمع وخصوصًا الأطفال والشباب لن يولوا أعمال الخير أهميّةً؛ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[3]. ففي هذه

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٤.

(٢) سورة **التغابن**، الآية ١٦.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٤.

الآية وبعض الآيات الأخرى، أيّد القرآن الإنفاق السرّيّ والإنفاق العلنيّ وأكّد عليهما.

الأثر الآخر الذي سيكون للأعمال العلنيّة الصالحة هي أنّها تمنع الكثير من سوء الظنّ. فلو كان الإنسان يزكّي ماله ويخمّسه في السرّ، من الممكن أن يؤدّي ذلك إلى سوء ظنّ الناس به واعتقادهم بأنّ هذا الشخص لا يؤدّي واجباته الدينيّة.

تأثير الرؤية الصحيحة على سلوك الإنسان

إنّ الرؤية الكونيّة وطريقة نظرة الإنسان للحياة والوجود، توجّه حياة الإنسان وتؤدّي إلى اختياره لنمطٍ من السلوك الفرديّ والاجتماعيّ. فلو بُنيت الرؤية الكونيّة على أساسٍ صحيح، فسوف تكون حياة وسلوكيّات الإنسان بشكلٍ وتوجّهٍ صحيحين. أمّا إذا لم يكن للإنسان استنباطٌ صحيحٌ لعالم الوجود ونظر إليه بالشكّ وتردّد بشأن بدايته ونهايته، فإنّه شاء أم أبى سيؤثّر ذلك على أعماله وسلوكيّاته بصورةٍ غير سليمة، حيث يكون ذلك في الحدّ الأدنى بصورة التواني عن القيام بالوظائف والتكاليف. فلأجل أن يفهم الإنسان مجموعة من المفاهيم ويحلّ مجموعة من القضايا التي تطرح التساؤلات عنده، ينبغي بالحدّ الأدنى أن يتعرّف إلى الرؤية الكونيّة بنحوٍ صحيح ويمتلك الرؤية الصحيحة فيما يتعلّق بموقعيّته في عالم الوجود وما يرتبط بمصيره فيه؛ فإن لم يتمكّن الإنسان من حلّ مثل هذه القضايا، فإنّ سعيه لاختيار نظامٍ قيميٍّ وأخلاقيٍّ صحيح سيكون بلا طائل، لأنّ الأخلاق من دون الدين، والنظام القيميّ من دون الرؤية الكونيّة الصحيحة، لن يوصلا إلى مكان.

وفي القرون الأخيرة وخصوصًا في الدول الغربيّة، فإنّ الركائز الأخلاقيّة للشعوب ضعفت وتزلزلت بسبب ضعف ووهن أركان الرؤية الكونيّة والاعتقاديّة. وحيث إنّ المفاهيم المرتبطة بالله والوحي والقيامة تشكّل أساس اعتقادات الإنسان ولا يمكن إثباتها بالوسائل الحسّيّة والتجريبيّة، فمن الطبيعيّ للذين تقوم مبانيهم الفكريّة على أساس التجربة الحسّيّة أن ينكروا هذه المسائل، أو في الحدّ الأدنى النظر إليها بشكٍّ وريب.

إنّ هذا النوع من الاستنباط والرؤية لا تنسجم مع الدين، لأنّ الدين يرتكز على

اليقين: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[1].

أمّا في العالم الغربيّ فلأنّهم قدّموا الفلسفات المادّيّة، قد تسبّبوا بزعزعة الأسس الاعتقاديّة عند الكثير من الناس. ومن جانبٍ آخر، إنّ حياة الإنسان غير ممكنةٍ من دون وجود نظام أخلاقيّ، فقد أقاموا نظامًا أخلاقيًّا غير دينيّ، وعلمانيّ لا يكون فيه للاعتقاد بالله والقيامة والوحي أيّ وجود. ومثل هذا الأمر لم يؤدِّ إلى نتيجة، وهذا ما يصرّح به اليوم الكثير من فلاسفة القرن ويقولون إنّ الأخلاق من دون الدين تساوي اللاأخلاق. فلو عزلنا الدين عن ساحة المجتمع، لن يبقى مجالٌ للقيم الأخلاقيّة والالتزام بها، لأنّه في مثل هذه الحالة لن يتمتّع النظام القيميّ بأيّ ركيزة فكريّة ومنطقيّة، ولا يمكن الاتيان بأيّ دليل عقلانيّ على حسن أو قبح أيّ فعل.

بناءً عليه، فإنّنا نستطيع أن نمتلك نظامًا قيميًّا صحيحًا إذا كان مبنيًّا على الرؤية الصحيحة. ومثل هذه الرؤية ينبغي أن تكون قائمةً على أعمدةٍ قابلةٍ للإثبات والإدراك. فلو تمّ تبيين هذه الأصول الثلاثة: «التوحيد، والنبوّة والمعاد»، التي هي من أصول الدين، تبيانًا صحيحًا، حينها يمكن بناء نظامٍ قيميٍّ صحيح على أساس هذه الأصول.

توجيه الحياة في ظلّ الاعتقاد بالمعاد

إنّ الاعتقاد بالمعاد وعالم الآخرة من أصول ديننا. إنّ هذا الأصل الذي يشكّل روح تعاليم الأنبياء قد ذُكر في القرآن والأحاديث بصورٍ مختلفة. ومن الآيات القرآنيّة في هذا المجال ما يدور حول المقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

وفي باب المعاد والحياة بعد الموت يوجد نوعان من الرؤية الكونيّة؛ الأولى تقول إنّ كلّ شيءٍ ينتهي بعد الموت، والأخرى تقول إنّ للإنسان بعد الموت حياةً أبديّة. من أركان الرؤية الكونيّة الدينيّة في هذا المجال هو الاعتقاد بالمعاد وعالم ما بعد الموت، وهناك أديانٌ لا تؤمن بالنبوّة لكنّها تعتقد بالمعاد. وتُشير الدراسات في علم الآثار أنّ البشر الذين عاشوا قبل آلاف السنين كانوا أيضًا يعتقدون بالمعاد. فقد دلّت الكشوفات في المقابر القديمة أنّهم كانوا يضعون بعض الأمور إلى جانب

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤.

موتاهم، لكي يستفيدوا منها ويستعملوها في حياتهم بعد الموت.

إنّ فلسفة الدين وإرسال الرسل قائمةٌ على هذا الأصل، وهو الذي يُقنع الإنسان بأنّ الحياة الدنيا ليست هي الحياة الأساسيّة بل هي مقدّمةٌ لعالمٍ آخر. فالحياة في الدنيا تُشبه تلك المرحلة التي يكون فيها الإنسان جنينًا في بطن أمّه؛ أي كما أنّ الإنسان لا يعدّ مرحلة الجنينيّة من عمره، فلا ينبغي أن يحسب الحياة الدنيا كذلك لأنّ الحياة الواقعيّة والأبديّة إنّما تبدأ حين يخطو الإنسان بعد هذه الدنيا نحو العالم الآخر.

كما يعلّمنا القرآن أنّ علينا أن نكرّر بعض المسائل لكي تحصل لنا حالة التوجّه المتزايد نحوها. فصلاة الفرائض اليوميّة التي تتكرّر هي نموذجٌ من هذا التوجّه والتذكّر. وفي مورد الآخرة والحياة بعد الموت، هناك أمورٌ أيضًا ركّز **القرآن الكريم** عليها كثيرًا وهي أنّ الحياة الواقعيّة هي التي تكون بعد الموت، منها قوله تعالى: **﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾**[1]. فهذه الآية تؤكّد على هذا الأمر وهو أنّ الحياة إنّما تكون في الآخرة، أمّا الحياة الدنيا فليست سوى لعب ولهو. وفي موضعٍ آخر، يقول: **﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾**[2].

الآخرة محل السعادة والشقاء الواقعيّ للإنسان

المسألة الأخرى التي يذكرها **القرآن الكريم** في هذا المجال هي ما يتعلّق بكون الآخرة محل السعادة أو الشقاء، ومحل الخير أو الشر: **﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾**[3]. لكلّ إنسانٍ مهما كانت قوميّته نوعٌ من الإدراك والفهم بالنسبة لقضيّتي السعادة والشقاء. وقد بحث جميع الفلاسفة

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٤.

(٢) سورة **النبأ**، الآية ٤٠.

(٣) سورة **هود**، الآيتان ١٠٧ و١٠٨.

حول هذه القضيّة منذ القدم وإلى يومنا هذا. ويبدو أنّ أكثر المفكّرين تناولوا هذه القضيّة أيضًا وأشاروا إلى أنّه إذا أراد الإنسان أن يكون سعيدًا في هذه الدنيا، فعليه أن يقوم بمجموعة من الأعمال. لكنّ القرآن يقول إنّ السعادة تخصّ أهل الجنّة، وأنّ الشقاء يرتبط بأهل النار.

لا ينكر القرآن تلك الآلام والمصائب ولا تلك البهجات والتنعّمات التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا، ولكنّه يعدّها كوسيلةٍ وأداةٍ للاختبار: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2].

يظنّ بعض الناس أنّ السعادة في الدنيا تعني العزّة عند الله؛ وعلى العكس، إنّ الحرمان من نعم الدنيا دليلٌ على غضب الله. يقول **القرآن الكريم** إنّ كِلَا الأمرين امتحان للإنسان: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[3].

لا ينبغي للإنسان أن يسكر ويغترّ بأفراح الدنيا، ولا أن يغتمّ ويحزن بمصاعبها وأتراحها. يقول **القرآن الكريم**: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[4].

إنّ من التعاليم الأساسيّة لجميع الأنبياء والتي وردت في الكتب السماويّة وخصوصًا القرآن هي أنّ الحياة الواقعيّة ستكون في عالمٍ آخر، وحتّى تلك الأعمار الطويلة للبشر في هذه الدنيا لا تكون سوى طرفة عين مقارنةً بالحياة في الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[5]. لا يمكن أن نقارن هذه الدنيا بالآخرة، فالآخرة هي البقاء الحتميّ والدنيا هي الفناء الحتميّ. فلو أراد الإنسان أن يكون صاحب رؤية كونيّة صحيحة، يجب عليه أن يثبّت هذا الركن الفكريّ وهو أنّ الدنيا

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٣٥.

(٣) سورة **الفجر**، الآيات ١٥ - ١٦.

(٤) سورة **الحديد**، الآية ٢٣.

(٥) سورة **الأعلى**، الآيات ١٤ – ١٧.

محلٌّ للعبور والمرور كمقدّمة للعالم الباقي.

إنّ أفراح هذه الدنيا وأتراحها ليست من الخير أو الشرّ المطلق والواقعي، وكلّ ما يُطلقه القرآن على بعض الأمور المرتبطة بالدنيا تحت عنوان الخير فذلك يكون خيرًا نسبيًّا. ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾[1]، أو ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2]. أمّا لماذا عبّر **القرآن الكريم** عن المال بالخير؟ فهناك نقاطٌ تفصيليّة كثيرة لا مجال الآن لعرضها. وفي الإجمال، فإنّ هذا المال ينبغي أن يكون حلالًا كي يتمكّن الإنسان من تركه لأبنائه.

ما دام الإنسان لا يرى عالم الآخرة، فإنّه يظنّ أنّ الحياة في هذه الدنيا هي الحياة وأنّه لا يوجد سوى الفناء والعدم بعدها، أمّا إذا رأى عالم الآخرة سيدرك أنّ الحياة الواقعيّة هي هناك. وكما أُشير فإنّ **القرآن الكريم** قد ركزّ على هذه القضيّة في موارد متعدّدة. والتأكيد الكثير على قراءة سورة **الأعلى** في الصلاة يعود لوجود معاني وتعابير سامية استُعملت فيها، فلو قرأها الإنسان بتوجّه كامل، سيتأثّر بشكلٍ عميق.

إنّ مجرّد تركيب وتشكيل الأحرف لا يؤثّر في الروح، بل إنّ التدقيق في معاني المفردات والتوجّه إلى مفاهيمها هو الذي يترك الأثر. فينبغي أن نكرّر دائمًا قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[3]، لكي تتوفّر الأرضيّة المناسبة لكلّ أعمال الخير، وذلك أن يكون في ذهننا لا في لساننا فقط، لأنّ كل شيءٍ في النظام القيمي الإسلاميّ مبنيٌّ على هذا الأساس.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ لعبد الله بن جندب: «**الْخَيْرُ كُلُّهُ أَمَامَكَ وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ أَمَامَكَ وَلَنْ تَرَى الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَّا بَعْدَ الْآخِرَةِ**». إنّ هذا المقطع من كلام الإمام يعني أنّ الخير والشرّ اللذان يعرضان على الإنسان في هذه الدنيا هما خيرٌ نسبيّ وشرٌّ نسبيّ، أمّا الخير والشرّ الحقيقيّان فهما في الآخرة. إنّ خيرات هذه الدنيا وشرورها ضعيفةٌ إلى درجةٍ لا تستحقّ الالتفات إليها. بالطبع، إنّ إدراك هذا الأمر الواقعيّ هو

---

(١) سورة **العاديات**، الآية ٨.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٨٠.

(٣) سورة **الأعلى**، الآية ١٧.

شيءٌ صعبٌ بالنسبة لأكثر الناس. فذاك الذي كدح طيلة ستين أو سبعين سنة لكي يوفّر بضع سنوات مريحة يقضيها حتّى آخر عمره، من الممكن أن لا يتمكّن من الغضّ عنها بسهولة. فالإنسان يسعى دائمًا بحسب فطرته نحو الأمور التي تتّصف بالدوام. إنّ تعلّقنا ببعض مظاهر الدنيا يعود لأنّها ذات دوام نسبيّ. ولكن هل إنّها واقع غير قابل للفناء؟ حين نقرأ في **القرآن الكريم** قصّة انخداع آدم وحوّاء، نلتفت إلى أنّ إبليس استغلّ هذه النقطة وهي ميل الإنسان إلى الأبديّة، وحقّق نتيجة: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1]. يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في تتمّة حديثه: «**لِأَنَّ الله جَلَّ وَعَزَّ جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الْجَنَّةِ وَالشَّرَّ كُلَّهُ فِي النَّارِ لِأَنَّهُمَا الْبَاقِيَانِ**».

بناءً عليه، ينبغي أن نستفيد من خير الدنيا لعمارة آخرتنا، وأن نبتعد عن شرّها لكي لا نُمنع من التكامل والسعادة الأبديّة.

التفكّر بشأن النعم الإلهيّة

يلتفت الإنسان في أكثر الأوقات إلى قيمة وأهمّيّة الكثير من الفضائل الأخلاقيّة، لكنّه لا يمتلك في معظم الأحيان الدافع والهمّة اللازمة للوصول إليها. وبعبارةٍ أخرى، يريد الإنسان أن يعمل بالمواعظ الأخلاقيّة للأنبياء ولأولياء الله، لكن لأنّه لا يتمتّع بالدافع والهمّة القويّة في هذا المجال فإنّه يقدّم الأمور المرتبطة بالحياة الدنيا عليها. هنا، يُطرح هذا السؤال وهو كيف يمكن الوصول إلى المقامات العالية واتّخاذ القرار القاطع لتحقيق هذا الأمر المهمّ؟

لأجل الإجابة عن هذا السؤال يجب أوّلًا أن نعلم أنّ كلّ قرارٍ يحتاج إلى مقدّمات، فينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار سلسلة من المعارف لكي تكون ممهّدةً لإيجاد الإرادة والعزم القويّ في نفسه. من المسائل التي ينبغي للإنسان أن يُدركها هي النعم الإلهيّة، أي أن يعلم أنّ الله قد أفاض عليه الكثير، وهذا الأمر منوطٌ بأنّ الإنسان عليه أن يتفكّر بالنعم التي حباه الله بها، ويأخذها بعين الاعتبار.

وكمثالٍ على ذلك، إنّ التمتّع بالإيمان والدين الصحيح يُعدّ من النعم العظيمة

---

(١) سورة طه، الآية ١٢٠.

التي حبانا الله بها. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ نعم الله ليست محدودةً في إطار حياتنا هذه، بل تشمل مرحلة ما قبل ولادتنا أيضًا. فمثلًا إذا لم تكن حياة الآباء والأمّهات مبنيّةً على أساسٍ معقولٍ ومشروع لما كنّا نحن على هذه الشاكلة، وربّما لم نكن نتمتّع بالسلامة والصحّة العقليّة والجسمانيّة التامّين.

بالإضافة إلى هاتين النعمتين المرتبطتين بما قبل خلق الإنسان في هذه الدنيا وما بعدها، فإنّ الله قد وعد الإنسان بالكثير من النعم التي سيفيضها عليه في آخرته. وهذه النعم لا يمكن وصفها ولا يمكن إحصاؤها، ونحن لا نستطيع أن نُدرك عظمتها وقيمتها. إنّ شرط الوصول إلى هذه النعم الأخرويّة هو العمل بالتكاليف التي قرّرها الله تعالى لنا في هذه الحياة. بالطبع، لم يكلّفنا الله بما لا نقدر عليه لأجل الوصول إلى النعم الأبديّة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1]. فتسهيل التكاليف يُعدّ أيضًا من النعم الكبرى، لأنّه لو كان المقرّر أن نؤدّي تلك التكاليف الشاقّة والمجهدة لأجل الوصول إلى نعم الآخرة لما كنّا نقدر على ذلك ولحُرمنا من تلك النعم. وحتّى في مورد أداء هذه التكاليف الميسّرة، فإنّ الله قد قال لنا بأنّنا إذا استعنّا به فسوف يعيننا.

مسؤوليّة الإنسان تجاه النِّعم الإلهيّة

ما هي مسؤوليّتنا تجاه النعم الإلهيّة؟ إنّ كلّ من يتمتّع بالفطرة الصافية لا يمكن أن ينسى أصغر الخدمات التي يقدّمها له الآخرون، وسوف يشعر دائمًا بالخجل تجاههم. والآن كيف تقبل فطرة الإنسان أن لا يكون شاكرًا ومقدّرًا لنعم الله التي لا تُحصى؟ فلو التفت الإنسان دائمًا إلى النعم التي يعطيه الله إيّاها، فإنّه لا يمكن أن يغفل عن ذكر الله أبدًا. لو علم الإنسان أنّ أداء هذه التكاليف الميسّرة هو أيضًا لأجل الوصول إلى الكمال والسعادة الأبديّة، لكان شاكرًا ومطيعًا لأوامر الله وأحكامه دائمًا. فكلّما فكّر الإنسان بهذه المسائل، ستقوى فيه الدوافع للعمل بالتعاليم الأخلاقيّة.

إنّ ما ذكره الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من الرواية الشريفة

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٥.

التي يخاطب بها عبد الله بن جندب ناظرٌ إلى هذه القضايا. **فالإمام في هذا** المقطع من كلامه يقول مُشيرًا إلى هذا المطلب، إنّ الذي عرّفه الله تعالى على الدين الحقّ وهداه إليه ومنحه العقل الذي يمكّنه أن يُدرك بواسطته تلك النعم الإلهيّة وحباه بالعلم والحكمة لكي يتمكّن من تنفيذ أموره بتدبيرٍ وإدارة، يجب أن يكون شاكرًا لله وأن لا يكفر بتلك النعم الإلهيّة، وعليه أن يحافظ على روح الطاعة لله وترك المعصية: «**وَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ وَهَبَ الله لَهُ الْهُدَى وَأَكْرَمَهُ بِالْإِيمَانِ وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ وَرَكَّبَ فِيهِ عَقْلًا يَتَعَرَّفُ بِهِ نِعَمَهُ وآتَاهُ عِلْمًا وَحُكْمًا يُدَبِّرُ بِهِ أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَشْكُرَ الله وَلَا يَكْفُرَهُ، وَأَنْ يَذْكُرَ الله وَلَا يَنْسَاهُ وَأَنْ يُطِيعَ الله وَلَا يَعْصِيَهُ**».

يُشير الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ في هذا الكلام إلى ثلاث فضائل أخلاقيّة تُعدّ مفتاحًا أساسيًّا للوصول إلى الكمالات الإنسانيّة، أي إنّه بتطبيقها يمكن للإنسان أن ينال فضائل أخلاقيّة أخرى. الأولى، هي تقوية روحيّة الشكر وتقدير النعمة. فالذي يكون مقدّرًا لأدنى خدمةٍ عاديّة تأتيه من إنسانٍ عاديّ، كيف يكون مستعدًّا أن يمرّ مرور الكرام على تلك النعم الإلهيّة اللامتناهية ولا يكترث بها؟! الثاني أن يكون الإنسان دائمًا ذاكرًا لله وعلى كلّ حال. والخُلق الثالث هو أن يكون الإنسان مطيعًا لوليّ نعمته ولا يعصيه.

ويشير الإمام في تتمّة كلامه إلى كيفيّة تخلّق الإنسان بهذه الأخلاق الثلاثة الأساسيّة ويقول: «**لِلْقَدِيمِ الَّذِي تَفَرَّدَ لَهُ بِحُسْنِ النَّظَرِ، وَلِلْحَدِيثِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بَعْدَ إِذْ أَنْشَأَهُ مَخْلُوقًا، وَلِلْجَزِيلِ الَّذِي وَعَدَهُ، وَالْفَضْلِ الَّذِي لَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ طَاعَتِهِ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَمَا يَعْجِزُ عَنِ الْقِيَامِ بِهِ، وَضَمِنَ لَهُ الْعَوْنَ عَلَى تَيْسِيرِ مَا حَمَلَهُ مِنْ ذَلِك، وَنَدَبَهُ إِلَى الاسْتِعَانَةِ عَلَى قَلِيلِ مَا كَلَّفَهُ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَمَّا أَمَرَهُ وَعَاجِزٌ عَنْهُ، قَدْ لَبِسَ ثَوْبَ الاسْتِهَانَةِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، مُتَقَلِّدًا لِهَوَاهُ مَاضِيًا فِي شَهَوَاتِهِ مُؤْثِرًا لِدُنْيَاهُ عَلَى آخِرَتِهِ، وهُوَ فِي ذَلِكَ يَتَمَنَّى جِنَانَ الْفِرْدَوْسِ...**». وإذا نظرنا إلى مضمون كلام الإمام في هذا المقطع من الحديث الشريف فسنرى أنّ على الإنسان أن يكون متفكّرًا دائمًا حول النعم التي تصله من الله تعالى. فنعم الله ثلاث فئات: أوّلها تلك النعم التي ترتبط بما قبل ولادته، والثانية تلك النعم التي يعطيه الله إيّاها في هذه الدنيا، والثالثة تلك النعم التي وعد الله عباده بها يوم القيامة. وإنّ شرط الوصول إلى النعم الأخرويّة هو طاعة أحكام الله وأوامره. بالطبع، إنّ هذه التكاليف لن تكون فوق طاقة الإنسان وقدرته، فالتكاليف التي قرّرها دين الإسلام وأوجبها على المسلمين هي أعمال ميسّرة يمكن

للجميع القيام بها. بالإضافة إلى ذلك، إذا حصلت حالة العسر والحرج، فإنّ تلك التكاليف الميسّرة تسقط عن كاهل الإنسان: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

إنّ الله تعالى لم يترك الإنسان في تطبيق هذه التكاليف الميسّرة لوحده، بل ضمن له أن يعينه إذا طلب الإعانة: «**وَنَدَبَهُ إِلَى الاسْتِعَانَةِ عَلَى قَلِيلِ مَا كَلَّفَهُ**». لكنّ الإنسان رغم غرقه في هذه النعم الإلهيّة يكون كافرًا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2]. يغفل الإنسان عن الأوامر والنواهي الإلهيّة ويستخفّ بكلّ ما يرتبط بعلاقته بالله ويتبع أهواءه وهوسه ونفسه، فيغفل عن تلك النعم الإلهيّة وعن التكاليف الملقاة على عاتقه. إنّه يريد الوصول إلى الكمالات العالية وإلى مقام القرب الإلهيّ، لكنّه ليس مستعدًّا أن يتنازل لهذه الشروط ويخضع لها، بل يسعى للوصول إلى تلك النعم الأخرويّة بكل بساطة وبالمجّان!

(١) سورة الحجّ، الآية ٧٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.



- الشرط الأوّل لقبول الصلاة
- الشرط الثاني
- الشرط الثالث
- الشروط الأخرى
- آثار الصلاة المقبولة

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ فِي بَعْضِ مَا أَوْحَى: إِنَّمَا أَقْبَلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ يَتَوَاضَعُ لِعَظَمَتِي وَيَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَجْلِي وَيَقْطَعُ نَهَارَهُ بِذِكْرِي وَلَا يَتَعَظَّمُ عَلَى خَلْقِي وَيُطْعِمُ الْجَائِعَ وَيَكْسُو الْعَارِيَ وَيَرْحَمُ الْمُصَابَ وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ، فَذَلِكَ يُشْرِقُ نُورُهُ مِثْلَ الشَّمْسِ، أَجْعَلُ لَهُ فِي الظُّلْمَةِ نُورًا وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا، أَكْلَأُهُ بِعِزَّتِي وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلَائِكَتِي، يَدْعُونِي فَأُلَبِّيهِ وَيَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، فَمَثَلُ ذَلِكَ الْعَبْدِ عِنْدِي كَمَثَلِ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ لَا يُسْبَقُ أَثْمَارُهَا وَلَا تَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهَا»[١].

الشرط الأوّل لقبول الصلاة

يجب على الإنسان إذا أراد أن يطوي الطريق الصحيح للتكامل والسعادة أن يقوّي ارتباطه بالله من جهة ومن جهةٍ أخرى بخلق الله. إنّ أفضل طريق لتقوية ارتباطه بالله هو الصلاة. بالطبع، إنّ الكلام عن قضيّة العمل بالتكاليف الدينيّة ومنها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شيء، والكلام عن الوصول إلى المراتب العالية للكمال شيءٌ آخر. إنّ أحد مراتب الصلاة والزكاة، هي تلك الصلاة الظاهريّة، والزكاة الظاهريّة والعاديّة، اللذان يُسقطان التكليف فقط، أي إنّ الإنسان بالقيام بهما ينجو من العذاب الإلهيّ؛ لكن هذا لا يعني أنّ ذلك سيؤدّي حتمًا إلى كماله وقربه من الله. فالوصول إلى مقام القرب الإلهيّ عن طريق إقامة الصلاة يستلزم رعاية أمورٍ خاصّة لا تتحقّق

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٥.

بمجرّد العمل بالتكليف، وذلك من ناحية عدم التوجّه إلى مفاهيم الصلاة السامية.

يذكّر الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقطع من كلامه ببعض شروط قبول الصلاة من خلال حديثٍ قدسيّ. فالشرط الأوّل هو أن يكون المصلّي أثناء صلاته ذاكرًا لعظمة الله. فكلّما وُفّق الإنسان لإدراك عظمة الله سيزداد تواضعه بين يديه سبحانه وتعالى وسوف يُدرك أكثر مدى صغره ولا شيئيّته.

وننقل هنا روايةً عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأجل إدراك عظمة الله أكثر: «كان هناك امرأة في زمن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تُدعى زينب العطّارة وكانت تعمل ببيع العطور. كانت هذه المرأة تصنع عطورًا جيّدة، وكانت أوّل شيء تأتي إلى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ليشتري منها هذه العطور. جاءت ذات يوم إلى النبيّ الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وطلبت منه أن يحدّثها عن عظمة الله. فقال لها رسول الله إنّك لن تستطيعي إدراك عظمة الله إلّا إذا أدركتِ في البداية عظمة مخلوقاته. ثمّ ذكر لها شيئًا حول عظمة خلق السماوات والأرض، وقال إنّ هذه الأرض الواسعة بكلّ ما فيها من بحارٍ وجبالٍ ومدنٍ كبيرة هي بالنسبة للسماء الأولى كحلقةٍ مرميّةٍ في فلاة لا نهاية لها. كما أنّ السماء الأولى إذا قورنت بالسماء الثانية ستكون كذلك وحتّى السماء السابعة، أمّا السماء السابعة ستكون كحلقة في فلاةٍ لا نهاية لها إذا قورنت بعرش الله»[1].

---

(١) نصّ الرواية في: مولى محمّد صالح المازندراني، **شرح أصول الكافي** (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، الجزء ١٢، الصفحتان ١٦٧ و١٦٨. عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: جاءت زينب العطّارة الحولاء إلى نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وبناته وكانت تبيع منهن العطر، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وهي عندهن فقال: إذا أتيتنا طابت بيوتنا، فقالت: بيوتك بريحك أطيب يا رسول الله، قال: إذا بعت فأحسني ولا تغشي فإنه أتقى وأبقى للمال، فقالت: يا رسول الله ما أتيت بشيء من بيعي وإنما أتيت أسألك عن عظمة الله عز وجل، فقال: جل جلال الله سأحدثك عن بعض ذلك، ثم قال: إن هذه الأرض بمن عليها عند التي تحتها كحلقة ملقاة في فلاة قي [القي بكسر القاف وشدّ الياء تعني القفر الخالي]، وهاتان بمن فيهما ومن عليهما عند التي تحتها كحلقة ملقاة في فلاة قي، والثالثة حتى انتهى إلى السابعة وتلا هذه الآية ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، والسبع الأرضين بمن فيهن ومن عليهن على ظهر الديك كحلقة ملقاة في فلاة قي، والديك له جناحان جناح في المشرق وجناح في المغرب ورجلاه في التخوم، والسبع والديك بمن فيه ومن عليه على الصخرة =

واليوم يكتشف علماء الفلك مجرّاتٍ تبعد عنّا مليارات السنوات الضوئيّة، أي إنّ هذه المنظومة الشمسيّة بكلّ عظمتها هي لا شيء إذا قورنت بمجرّة «درب التبانة»، والتي تُعدّ أيضًا لا شيء إذا قورنت بالمجرّات الأخرى. فقد قال رسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ لزينب العطّارة إنّك إذا فكّرتِ جيّدًا بهذه المسائل، ستلتفتين لأنّك لا شيء مقارنةً بعظمة مخلوق الله فما بالك بعظمة الله. فحين يتوجّه الإنسان إلى هذه القضايا، سيجد نفسه حقيرًا صغيرًا مقابل عظمة الله اللامتناهية وستستولي عليه حالة التواضع.

الشرط الثاني

الشرط الثاني من شروط قبول الصلاة هو أن يكفّ المصلّي نفسه عن الهوى والهوس الباطل لأجل الله: «**وَيَكُفُّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَجْلِي**». فيقول: اللّهم إنّني

= كحلقة ملقاة في فلاة قي، والصخرة بمن فيها ومن عليها على ظهر الحوت كحلقة ملقاة في فلاة قي، والسبع والديك والصخرة والحوت بمن فيه ومن عليه على البحر المظلم كحلقة ملقاة في فلاة قي، والسبع والديك والصخرة والحوت والبحر المظلم على الهواء الذاهب كحلقة ملقاة في فلاة قي، والسبع والديك والصخرة والحوت والبحر المظلم والهواء على الثرى كحلقة ملقاة في فلاة قي، ثم تلا هذه الآية ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ثم انقطع الخبر عند الثرى، والسبع والديك والصخرة والحوت والبحر المظلم والهواء والثرى بمن فيه ومن عليه عند السماء الأولى كحلقة في فلاة قي، وهذا كله والسماء الدنيا بمن عليها ومن فيها عند فوقها كحلقة في فلاة قي، وهاتان السماءان ومن فيهما ومن عليهما عند التي فوقهما كحلقة [في فلاة] قي، وهذه الثلاث بمن فيهن ومن عليهن عند الرابعة كحلقة في فلاة قي حتى انتهى إلى السابعة، وهن ومن فيهن ومن عليهن عند البحر المكفوف عن أهل الأرض كحلقة في فلاة قي، وهذه السبع والبحر المكفوف عند جبال البرد كحلقة في فلاة قي وتلا هذه الآية: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد عند الهواء الذي تحار فيه القلوب كحلقة في فلاة قي، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد والهواء عند حجب النور كحلقة في فلاة قي، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد والهواء وحجب النور عند الكرسي كحلقة في فلاة قي، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، وهذه السبع والبحر المكفوف وجبال البرد والهواء وحجب النور والكرسي عند العرش كحلقة في فلاة قي وتلا هذه الآية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، وفي رواية الحسن: الحجب قبل الهواء الذي تحار فيه القلوب.

لن أتّبع شهوتي ولن أسعى نحو المعصية لأنّك تحبّ ذلك. مثلما أنّ الإنسان يغضّ النظر عن بعض رغباته لأجل أحبابه، فعليه أن يفعل ذلك لأجل الله ويغضّ النظر عن الشهوات غير المشروعة. فهناك نسبةٌ معكوسة بين الصلاة الجيّدة والسعي نحو الشهوات غير المشروعة، بمعنى أنّ الإنسان كلّما صلّى صلاته بشكلٍ أفضل سيبتعد بالمقدار نفسه عن الشهوات غير المحلّلة، وعلى العكس كلّما اتّجه نحو الشهوات سيبتعد عن الصلاة. وقد بيّن **القرآن الكريم** هذه المسألة بشكلٍ جميل حين ذكر بعض الأقوام الماضين، فبعد ذكر أسماء عددٍ من الأنبياء يقول تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1]. ثم يُكمل قائلاً: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾[2]. فإذا أراد الإنسان أن يعلم لماذا لا يستطيع أن يأنس بالله في صلاته كما ينبغي، فعليه أنّ يرى إلى أي مدى قد علّق قلبه بالشهوات غير المشروعة والأفكار الباطلة.

الشرط الثالث

الشرط الثالث هو أن يقضي المصلّي وقته خلال النهار بذكر الله. هناك أشخاصٌ يذكرون الله دائمًا وفي كلّ حال ولا يغفلون عن ذكره أبدًا: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3]. لله مثل هؤلاء الرجال الذين لا تمنعهم المشاغل المادّيّة الدنيويّة عن ذكر الله. يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في هذا المجال المتعلّق بكيفيّة تمكّن الإنسان من ذكر الله في الوقت الذي يكون مشغولًا بأمور حياته إنّ مثل هذا الإنسان الذي فقد عزيزًا أو تعلّق قلبه بمحبّة شخصٍ، فهذا الحزن أو هذا الحبّ لا يمنعه عن نشاطه اليوميّ، ونجد أنّ هذا الإنسان بالرغم من أنّه مشغولٌ بهذه الأمور الدنيويّة فإنّه لا ينسى ذكر عزيزه الفقيد أو حبيبه الموجود. فرجال الله أيضًا هم على هذه الشاكلة دائمًا وفي جميع الحالات يذكرون الله: «**وَيَقْطَعُ نَهَارَهُ بِذِكْرِي**».

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٨.

(٢) سورة مريم، الآية ٥٩.

(٣) سورة **النور**، الآية ٣٧.

الشروط الأخرى

وكما أنّ الإنسان يكون متواضعًا بين يديّ الله، يجب أن لا يتكبّر على عباد الله بل عليه أن يخدمهم. فإذا شاهد جائعًا مثلًا وكان بإمكانه أن يُشبع بطنه، فعليه أن يطعمه، فإنّ هذا من مصاديق الزكاة. فالزكاة بحسب المصطلح القرآنيّ لا تنحصر في الزكاة الواجبة المرتبطة ببعض الأموال الخاصّة، بل إنّ مفهوم الزكاة في القرآن هو الإنفاق في سبيل الله. ففي الإسلام هناك زكاةٌ واجبة وهناك زكاةٌ مستحبّة. نعم، الزكاة الواجبة تتعلّق ببعض الأموال، أمّا الزكاة المستحبّة فتشمل الصدقات والنفقات وغيرها من الموارد المشابهة. ولا نجد الزكاة تنفصل عن الصلاة أبدًا، فحيث وجدت الصلاة كانت الزكاة. و**القرآن الكريم** يقول نقلًا عن نبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾[1]. بناءً عليه، إنّ اجتناب التكبّر على خلق الله وأيضًا الإنفاق على المحتاجين هو من الشروط الأخرى لقبول الصلاة: «**وَلَا يَتَعَظَّمُ عَلَى خَلْقِي وَيُطْعِمُ الْجَائِعَ**».

الشرط الآخر لقبول الصلاة هو إذا شاهد الإنسان عريانًا يستطيع كسوته فعليه أن يكسوه. بالطبع، هذا الكلام لا يعني أن يكون هذا الشخص عاريًا حتمًا بمعنى أنّه لا يملك ما يستر عورته حتّى نُعطيه لباسًا، بل المقصود هو أنّ هذا الإنسان إذا كان يحتاج إلى لباسٍ فلنؤمّن له هذا اللباس، وأيضًا إذا كان الشخص مبتلًى بمصيبةٍ ما فلنسرع إلى إعانته، وإن لم يكن لديه مأوى. فعلينا أن نُهيّئ له هذا المسكن بقدر الاستطاعة: «**وَيَكْسُو الْعَارِيَ وَيَرْحَمُ الْمُصَابَ وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ**».

آثار الصلاة المقبولة

إنّ الذي يُراعي شروط قبول الصلاة، سيسطع وجهه في عالم المعنى والملكوت كالشمس، وسوف يرى أصحاب البصيرة الباطنيّة هذا السطوع في هذه الدنيا. من الممكن لأمثالي وأمثالكم أن لا نرى هذا السطوع، لكن هناك من تفتّحت أعين قلوبهم على ذلك العالم، وبمجرّد النظر إلى وجه أيّ إنسان يُمكن أن يُعرف إن كان من أهل المعصية أو من أهل العبادة. إنّ نورانيّة القلب والروح هي من الآثار

---

(١) سورة **مريم**، الآية ٣١.

التكوينيّة للعبادة: «**فَذَلِكَ يُشرِقُ نُورُهُ مِثْلَ الشَّمسِ، أجْعَلُ لَهُ فِي الظُّلْمَةِ نُورًا**». ويقول الله في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

أولئك الذين يخافون من الله ويتّقونه إذا كانوا في الظلمات الماديّة، فإنّ الله سوف يعطيهم النور المحسوس أيضًا. كان هناك أشخاصٌ فقدوا البصر، ومع ذلك كانوا يتلون القرآن. ومن هذه الموارد التي سمعتها من أشخاص موثوقين كان هناك خادمٌ في مدرسة «مرو» في طهران، وكان يرى في إحدى الحجرات شعاعيين من النور. وحين اقترب شاهد شخصًا ضريرًا مشغولًا بتلاوة القرآن، وكان ينبعث من عينيه شعاعٌ من النور على القرآن.

لا شكّ بأنّ الإنسان في هذه الحياة الدنيا سيواجه أشخاصًا يتصرّفون بشكاسة ويستفزّون صبر الإنسان وتحمّله، من الصعب جدًّا أن يتمكّن الإنسان في مثل هذه الظروف من ضبط نفسه، لكنّ الله يُعطي من يقبل صلاتهم ذلك الحلم الذي يستطيعون من خلاله أن يضبطوا أنفسهم مقابل الجهّال: «**وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا**». وما دامت الحياة لمصلحة هذا العبد، فإنّ الله سيحفظه بواسطة ملائكته: «**أَكْلَأُهُ بِعِزَّتِي وَأَستَحْفِظُهُ مَلَائِكَتِي، يَدْعُونِي فَأُلَبِّيهِ وَيَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ فَمَثَلُ ذَلِكَ الْعَبْدِ عِنْدِي كَمَثَلِ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ لَا يُسْبَقُ أَثْمَارُهَا وَلَا تَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهَا**». والتفسير العقلانيّ لهذا الأمر هو أنّ العبد قد اتّحد مع هذه المعالم الدينيّة إلى الدرجة التي لا تتغيّر حالته بعدها أبدًا، أي إنّ هذه الحالات أصبحت فيه ملكةً راسخةً وصفةً ثابتةً في نفسه وروحه.

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٨.



الدرس السابع والعشرون
بحث حول الحياء

- الحياء لباس الإسلام
- الحياء المطلوب ومصاديقه
- اختلاف الحياء عن الخجل
- أفضل الحياء

«يَا ابْنَ جُنْدَبٍ الْإِسْلَامُ عُرْيَانٌ فَلِبَاسُهُ الْحَيَاءُ وَزِينَتُهُ الْوَقَارُ وَمُرُوَّتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَعِمَادُهُ الْوَرَع»[1].

الحياء لباس الإسلام

وردت العديد من المضامين المختلفة في **القرآن الكريم** بشأن الحياء ومصاديقه وآثاره. فمن باب المثال، وردت كلمة الاستحياء في قصّة النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنات شعيب، حيث قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾[2]. وقد ورد الكثير من الروايات بشأن أهمّيّة الحياء وفضائله، وخصوصًا للنساء ممّا يبعث على التأمّل والتدقيق الوافي. ونجد أنّ مضمون بعض هذه الروايات يدلّ على التلازم بين الحياء والإيمان، بمعنى أنّ الحياء إذا سُلب من الإنسان سيزول الإيمان أيضًا. وقد أُشير في البعض الآخر من الروايات إلى هذه النقطة وهي أنّ مصير الإنسان الفاقد للحياء قد يكون بحيث تُخلع ربقة الإسلام من رقبته، أي إنّه سيتحوّل إلى الكفر «ما عاذ الله»[3]. كما أنّ لدينا رواياتٌ أخرى بهذا المضمون وهو أنّ إرادة الله إذا تعلّقت بهلاك شخصٍ أو قومٍ، أي معاقبتهم بسبب أعمالهم السيّئة، فإنّ الله يسلبهم الحياء: «إِذَا أَرَادَ الله عَزَّ وَجَلَّ هَلَاكَ عَبْدٍ نَزَعَ

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ٢٨٥.

(٢) سورة القصص، الآية ٢٥.

(٣) نظير هذه الرواية ما نُقل عن الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ مَقْرُونَانِ فِي قَرَنٍ، فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدُهُمَا تَبِعَهُ صَاحِبُهُ. [**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ١٧٧].

مِنْهُ الْحَيَاءَ»[1]. فحين يُسلب الحياء من الإنسان، لن يبقى للحياة الحقيقيّة مفهومٌ بالنسبة له.

للأسف، قد يُساء فهم هذه القضيّة، فيساوي البعض الحياء بالخجل. على هذا الأساس، يستنتجون بما أنّ الخجل يؤدّي إلى زوال ثقة الإنسان بنفسه، وبما أنّ الخجول لا يكون ناجحًا في الحياة الاجتماعيّة، فلا ينبغي أن نركّز كثيرًا على قضيّة الحياء! إنّ هذا الاستنتاج الخاطئ إنّما نشأ من عدم تبيين المفهوم الصحيح للحياء الذي ركّز عليه النظام القيميّ الإسلاميّ. فكيف يمكن للحياء مع ما له من قيمةٍ ساميةٍ أن يتنزّل بحيث يُصبح مساويًا للخجل في عُرف الأذهان؟ فلأجل أن يتبيّن هذا المطلب جيّدًا، يجب أن ندقّق في هذا المفهوم ذاته، أي بصرف النظر عن الجانب الأخلاقيّ علينا أن ندرسه كأحد الظواهر المرتبطة بعلم النفس.

عُرّف الحياء في علم النفس تحت عنوان الانفعالات النفسيّة. فمن الخصائص العامّة للحالات النفسيّة أنّه لا يمكن تعريفها بأيّ تعريفٍ خاصّ لمن يكون فاقدًا لها. فمن باب المثال أنتم لا تستطيعون أن تُفهموا شخصًا ما، معنى التعجّب إن لم يكن قد حصل له حالة تعجّبٍ سابقة. هكذا أيضًا بالنسبة لمفهوم العشق، فإن لم يذق الإنسان طعمه، لا يمكنه أن يُدرك حقيقته. بناءً عليه، فإنّ مجرّد تعريف هذا النوع من المفاهيم لا يمكن أن يعطينا حقيقة تلك الحالات الروحيّة. وهكذا، فإنّ للحياء مثل هذه الخصوصيّة، غاية الأمر بما أنّ هذه الحالة تحصل لجميع الناس، وإن بشكلٍ متفاوت، فيمكنهم أن يُدركوها.

وينقل المفضّل بن عمر عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في إحدى الروايات أنّه قال تلك الخصلة التي جعلها الله للناس خاصّة وحرم منها البهائم هي الحياء.

هناك بركاتٌ عظيمةٌ تترتّب على الحياء. هناك الكثير من الناس الذين إذا لم يمتلكوا مثل هذه الخصلة فإنّهم لن يلتزموا بأيّ أصلٍ أخلاقيٍّ آخر، ولن يعملوا بما تعهّدوا ولن يردّوا الأمانات إلى أهلها وسيكذبون، وبالتدريج سيتّصفون بجميع الصفات الخبيثة. إنّ ما يؤدّي إلى صيانة الناس من الكثير من الرذائل الأخلاقيّة هو

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٩١.

الحياء.

وفيما يتعلّق بمنشأ وجود الحياء في الإنسان، يجب أن نقول إنّ هناك منشآن أساسيّان: أحدهما ميل الإنسان إلى الخلوّ من العيب والنقص، والآخر رغبته بستر عيوبه المحتملة عن الآخرين. إنّ الإنسان يخجل من شيءٍ إذا علم أنّ عيبًا سيظهر منه ويطّلع عليه الآخرون.

فلو صدر من الإنسان سلوكٌ قبيح يُدركه الآخرون ويطّلعون عليه، أي إنّ ذاك العيب القبيح الذي كان موجودًا وكامنًا فيه ظهر للآخرين، فسيحصل له حالةٌ هي هذا الخجل. إنّ هذه الحالة ليست أمرًا مرغوبًا للإنسان، بل إنّها تؤذيه وتؤلمه. وبحسب تلك الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عَلَيهِالسَّلَامُ، إنّ فائدة هذا الأمر هو أنّ الإنسان سيسعى أن لا يرتكب ذاك العمل القبيح لأنّه يريد أن يمنع بروز تلك الحالة وحصولها، وذلك لكي لا تظهر عيوبه عند الآخرين فيؤدّي ذلك إلى خجله ومذلّته. فقد خُلق الإنسان بهذه الفطرة بحيث إذا التفت أنّ عيوبه ستظهر للآخرين أو احتمل أنّه من الممكن أن يطّلع الآخرون على عيوبه، فسوف ينزعج ويتأذّى ويتحرّك لإخفاء عيبه. وهذه الحالة بحسب الاصطلاح المنطقيّ من الأعراض الخاصّة للإنسان التي تميّزه عن سائر الحيوانات. ونقرأ في **القرآن الكريم** إنّ آدم وحوّاء حين تناولا من تلك الشجرة التي نُهيا عنها، ظهرت عورتهما (عيوبهما). والآن إذا أردنا أن نعرف ما هي الرابطة بين التناول من تلك الشجرة وظهور العورة، فهذا يرتبط بأنّ لتلك الشجرة آثارًا معيّنة يترتّب عليها ذلك، فهل إنّ الأثر الطبيعيّ للشجرة إظهار العيوب إذا أكل منها الإنسان؟ أو إنّه سيطّلع على عورته بعد التناول منها؟ ونحن نفرض أنّ تلك الشجرة المنهيّة قد أدّت إلى بروز غريزة الشهوة في الإنسان، وبتبع ذلك ظهر ذاك العضو المرتبط بالشهوة. من هنا، فإنّ آدم وحواء التفتا إلى هذه الأعضاء وسعيا لأجل التغطية عليها، لهذا بحثا عن أوراق أشجار الجنّة لأجل ستر عورتهما: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[1].

بناءً عليه، يُعلم أنّ هذا الأمر فطريٌّ وهو أنّ الإنسان لا يريد أن يرى الآخرون

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٢٢.

قبائح وجوده، وأنّه إذا ظهرت عيوبه للآخرين فسوف تعرض عليه حالة الخجل. وهذه الحالة المؤلمة هي ذاك الحياء. ومن الأوصاف المعروفة لآدم وسائر الأنبياء والأوصياء هي أنّهم كانوا أصحاب حياءٍ كبير فكانوا يخجلون كثيرًا من ظهور عيوبهم. فقد ورد بشأن سلمان الفارسي أنّه من شدّة حيائه لم ينظر طوال عمره إلى عورته.

لو كان الإنسان لا يخشى من كون وجوده متميّزًا بالعيوب، ولو لم يكن ينزعج من مثل هذه الحالة، لكان من الممكن أن يصدر منه كلّ فعلٍ قبيح. فلأجل أن يخجل الإنسان لا بدّ أن يكون بذاته طالبًا للخلاص من العيوب والنقائص. إنّ التعلّق بكرامة النفس التي هي فرع حبّ الذات يُعدّ من لوازم وجود الإنسان. من هنا، إذا شعر الإنسان بتنافي بعض الأمور مع كرامة نفسه، فسوف يسعى للتخلّص منها. فالإنسان إنّما يخجل لأنّه يحبّ أن يكون كاملًا من جميع الجهات. إنّ التعلّق بكرامة النفس وحسن السمعة حين يتلازمان مع الرغبة بتغطية العيوب عن الآخرين، سيؤدّي إلى ظهور حالة الخجل في الإنسان. فلو لم يجعل الله حبّ النفس وكرامتها في وجود الإنسان لكان من الممكن أن لا يسعى هذا الإنسان نحو أيّ من الكمالات والفضائل الأخلاقيّة.

الحياء المطلوب ومصاديقه

إنّ النقطة المهمّة التي ينبغي الإشارة إليها ها هنا وهي أنّه قد يعتبر العرف شيئًا ما سيّئًا جدًّا، في حين أنّه لا يكون كذلك ولا ينبغي للإنسان أن يخجل بسببه، أو إذا كان عيبًا ونقصًا فلا ينبغي أن يُصرّ على تغطيته وستره لأنّ الإفراط في هذا الأمر يؤدّي إلى الانزواء والحرمان من بركات الحياة الاجتماعيّة. فعلى سبيل المثال، من كانت عينه معيوبة ولا يمكن إصلاحها، لا ينبغي أن يجتنب التواجد في المجتمع لئلّا يلتفت الآخرون إلى عيبه، لأنّه بذلك سيُحرم الكثير من الفضائل والكمالات. وبشكلٍ عام، يجب على الإنسان أن يحذر من الإفراط والتفريط في جميع المجالات. إنّ الإصرار على تغطية العيوب كالنقص في بعض الأعضاء، يُعدّ نوعًا من الإفراط وهو مذموم.

إنّ الصفات الحسنة تأتي عادةً بين هاتين الصفتين السيّئتين من الإفراط والتفريط. وكمثالٍ على ذلك، إنّ إشباع الغريزة الجنسيّة عن طريق اختيار الزواج

المشروع والقانونيّ هو عملٌ ممدوح، لكن اتباع الشهوات أو عدم اللجوء إلى الزواج هما أمران مذمومان ويُعدّ كلاهما من مصاديق الإفراط والتفريط بخصوص الشهوة الجنسيّة. إنّ الحياء المطلوب هو أيضًا ما يكون بعيدًا عن الإفراط والتفريط. فمن مصاديق الحياء الإفراطيّ أن يجتنب الإنسان التواجد في المجتمع بسبب وجود نقصٍ في أعضاء بدنه لئلّا يلتفت الآخرون إلى هذا النقص. فمثل هذا النوع من الإفراط في ستر العيوب يمنع الإنسان من المشاركة في الأنشطة الاجتماعيّة. من هنا، فإنّ الخجل بسبب هذا النوع من العيوب ليس حسنًا ولا يُعدّ حياءً.

ومن جانبٍ آخر، إذا لم يكن لدى الإنسان إباءٌ من التفات الآخرين إلى عيوبه وأفعاله السيّئة، فبحسب تلك الرواية التي مرّت، سيكون بعيدًا عن الإنسانيّة لأنّه لم يستفد من تلك الخصلة التي جعلها الله في وجوده من أجل أن لا يتلوّث بالقبائح. فالحياء الذي يُعدّ عرضًا خاصًّا للإنسانيّة يؤدّي إلى اجتناب الإنسان للرذائل الأخلاقيّة. من هنا، فإنّ عدم خشية الإنسان من ارتكاب الأعمال القبيحة وعدم استنكافه عن التفات الآخرين إلى عيوبه يُعدّ أمرًا مذمومًا.

فلو امتلك الإنسان إمكانيّة رفع عيوب نفسه وإزالتها، عليه أن يقوم بهذا العمل حتمًا. ومن باب المثال، إنّ الجهل عيبٌ وعلى الإنسان أن يسعى لتحصيل العلم من أجل إزالته، ولكن نجد بعض الناس وبدل أن يسعوا لرفع جهلهم عن طريق تحصيل العلم فإنّهم يسعون أو يعملون على إخفائه، مثل ذاك الطالبِ الذي لا يطرح على أستاذه أيّ سؤال لكي لا يُعرف بأنّه جاهلٌ! فهذا الأمر ليس عقلانيًّا لأنّه سيؤدّي إلى حرمان الإنسان من الكثير من العلوم والفضائل. وهذا الأمر أيضًا ينطبق على تعلّم المسائل الشرعيّة، فالكثير من الشباب الذين بلغوا سنّ التكليف حديثًا يخجلون من السؤال عن المسائل الشرعيّة والدينيّة.

بناءً عليه، فإنّ الإفراط والتفريط بالخجل مذمومٌ. والحياء المطلوب هو الذي يمنع الإنسان من ارتكاب الفعل القبيح، فهذا الحياء هو حالةٌ تتوسّط بين الذلّ والقِحة.

أمّا ما يتعلّق بتحديد الأفعال القبيحة فهذا يأتي عادةً تحت تأثير النظام القيميّ لأيّ مجتمع. فنحن المسلمون يجب أن نرى ماذا تقول تعاليمنا الدينيّة والإسلاميّة عن الأمور القبيحة وما يُعدّ معصيةً من أجل أن لا نرتكب ذلك. فإذا

ارتكبنا معصيةً ما، يجب أن نخجل. ولكن لا ينبغي أن نخجل من القيام بما يُعتبر بالظاهر مخالفًا للعُرف، لكنّ الله يحبّه ويستحسنه. وللأسف، فإنّ الكثير من الناس الذين يغفلون عن حضور الله يعيشون عكس هذه الحالة، أي لا يأبون من ارتكاب الفعل الذي يعدّ عند الله قبيحًا ومعصيةً نعوذ بالله ولكنّهم يخجلون من القيام بما يُعدّ عند الناس سيّئًا، وإن كان الله يحبّه! فهؤلاء ينسون في الكثير من الأوقات أنّ الله ناظرٌ ورقيب، ولهذا يرتكبون المعاصي التي لو اطّلع الناس عليها لخجلوا واجتنبوها. بالطبع، إنّ وجود خجلٍ من ارتكاب بعض الأمور أمام الآخرين يُعدّ ذخيرةً جيّدة لا ينبغي أن نضيّعها، لأنّ الإنسان لو لم يخجل من ارتكاب بعض الأمور أمام الآخرين فإنّه لا سمح الله يمكن أن يسقط في وادي الهلاك الذي يكون الكفر في قعره. فكلّما خجل الإنسان من اطّلاع الآخرين على ذنوبه سيكون هناك أملٌ أكبر بنجاته.

المسألة الأخرى هي أنّه قد يتشكّل في الإنسان رغبتان متضادتان يمكن أن يؤدّي التوجّه إلى أيّ منهما إلى الحياء وعدمه. فمثلًا نجد أنّ الإنسان من ناحية يريد أن يكون عزيزًا ومحترمًا عند الناس، ومن جانبٍ آخر يكون لديه حاجة يستلزم إرضاؤها القيام بعملٍ مخالفٍ للشرع. ففي مثل هذه الحالة، من الممكن أن يخجل الإنسان في المرحلة الأولى من أن يطّلع الآخرون على الفعل القبيح الذي يمكن أن يرتكبه، لكن بما أنّه لا يستطيع أن يجاهد نفسه كلّ يومٍ، وهو يريد تحقيق ما يريد، فإنّه شيئًا فشيئًا سيلقّن نفسه أنّ هذا العمل الذي يقوم به ليس قبيحًا إلى هذا الحدّ.

ومن أجل القيام بهذا الشيء القبيح بحرّيّة، فإنّه يسعى للارتباط بمن يكون مساويًا له لكي لا يشعر بالخجل أمامه. إنّ هذه الحالة تؤدّي بالتدريج إلى تحوّل ذاك الشيء، الذي يُعدّ أمرًا مذمومًا في المجتمع الدينيّ، إلى أمرٍ عاديّ عند الناس، وعلى أثر التكرار لا يعود قبيحًا بالنسبة لهم. إنّ ذاك التأكيد على أنّه لا ينبغي التجاهر بالفسق داخل المجتمع الإسلاميّ، هو لأجل أن لا يتجرّأ الآخرون على ارتكاب المعاصي؛ لأنّ الخجل من ارتكاب المعصية يمنع الإنسان من التلوّث بها. فحين يرتكب الناس الأفعال السيّئة بصورةٍ علنيّة وبصورةٍ متكرّرة، فإنّ قبح تلك المعصية سيسقط من أعينهم، وشيئًا فشيئًا سينجرّ هؤلاء إلى التشكيك في أصل حرمة ذلك الشيء، فيقولون من أين يُعلم أنّ هذا العمل حرامٌ؟! فلعلّ ما ورد فيه

من حديث لا سند له! ثمّ يقولون لعلّ الإمام عَلَيْهِ‌السَّلَامُ والعياذ بالله لم يكن ملتفتًا جيّدًا إلى القضيّة! لأنّ الإمام بشر والمعرفة البشريّة يمكن أن يعرض عليها الخطأ! فمن أين يُعلم والعياذ بالله أنّ النبي قد تلقّى الوحي بشكلٍ صحيح؟! فمن الممكن أن ينجرّ الأمر إلى حيث يقول هذا الإنسان، والعياذ بالله، ومن دون أيّ إباء إنّ الله لم يذكر ذلك جيّدًا! ويقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1].

اختلاف الحياء عن الخجل

اتّضح ممّا قلنا إنّه لا ينبغي أن نعتبر مفهوم الحياء مساويًا لمفهوم الخجل، ذلك لأنّ الخجل في كثيرٍ من الحالات يُعدّ نوعًا من النقص الذي يسبّب لصاحبه مشاكل كثيرة. فالإنسان الخجول لا يستطيع أن يتكلّم جيّدًا أو أن يؤدّي وظائفه أداءً صحيحًا، أو أن يكون له حضورٌ فاعلٌ في المجتمع.

إنّ أصل الحياء كظاهرة علم نفس هو عبارة عن تلك الحالة التي تظهر في الإنسان حين يظهر فيه عيبٌ أو فعلٌ غير لائق. وبعبارةٍ أخرى، إذا كان في الإنسان نقصٌ يُعدّ عيبًا أو سلوكًا قبيحًا يصدر منه ثمّ التفت إليه الآخرون، فإنّه سوف يعيش حالة تُسمّى اصطلاحًا بالحياء. إنّ هذه الحالة تختصّ بأولئك الذين يرون لأنفسهم قيمة ويطلبون لها الكرامة والشرف، فمثل هؤلاء حين يلتفتون إلى نقصهم أو سلوكهم القبيح يشعرون بحالةٍ من الخجل.

النقطة الأخرى التي ينبغي أن نلتفت إليها هي أنّ الحياء من الناحية القيميّة هو مثل سائر الصفات الأخلاقيّة والحالات النفسيّة لا يتّصف في حدّ ذاته بالحسن والقبح، بل يرتبط بالمقدار الذي يتناسب مع مصالح الإنسان وأهدافه الأخلاقيّة. أشرنا أنّ كلّ فعلٍ حسن هو في الأساس على حدِّ الاعتدال بين الإفراط والتفريط، فمثلًا إنّ الشجاعة صفة أخلاقيّة حسنة بين صفتي التهوّر والجبن، وهما طرفا الإفراط والتفريط.

قد يعتبر الإنسان بعض الأشياء عيوبًا ونقائص، وهو يُصرّ على إخفائها عن

---

(١) سورة الروم، الآية ١٠.

الآخرين لكنّها لا تكون في الواقع ضعف ونقص. خذوا على سبيل المثال التلميذ الذي يبرز عنده سؤالٌ أثناء الدرس، ولكنّه بمجرّد أنّه يريد طرح سؤاله يخفق قلبه ويحمرّ وجهه وتضطرب يداه ولا يمكنه أن يتكلّم أو يُعبّر بنحوٍ صحيح. فلو سُئل لماذا حصل معك هذا؟ لأجاب: إنّني خجلت من طرح سؤالي.

فالخجل قد ظهر هنا لأنّ الإنسان يعلم أنّ الآخرين قد لاحظوا نقصه. فلأنّ الإنسان يريد أن يحفظ كرامته وماء وجهه، فحين يشعر بأنّ الآخرين لاحظوا ضعفه وعيبه فإنّه سوف يشعر بالخجل. ذاك الذي لا يستطيع أن يتكلّم في محضر جمعٍ لئلّا يتوجّه الآخرون إلى نقصه فإنّه يحجم دائمًا عن القيام بهذا العمل؛ وفي حال أُجبر على الكلام، فإنّه يخجل لأنه لا يستطيع التكلّم بنحوٍ جيّد.

لكنّ امتلاك أي نوع من القدرة يحتاج إلى التمرين والممارسة المستمرّة. ففي هذا المثال، لو أنّ الإنسان لقّن نفسه أنّه يمتلك القدرة على الكلام في جمعٍ من الناس وبدأ بعباراتٍ بسيطة من الناحية العمليّة وأدّى مجموعة من التمارين، فإنّه سوف يمتلك هذه القدرة التي تخوّله أن يُعبّر بكلمات أعقد وأطول من دون أن يشعر بالخجل. فمثل هذا النوع من الخجل سيّئ لأنّه يمنع الإنسان من التكامل. فالتلميذ أو الطالب الذي لا يسأل فإنّه من الطبيعيّ أن لا يسمع الجواب، من هنا فإنّه لن يتكامل؛ ولو أراد في بعض الأحيان أن يتحدّث أمام مجموعة من الناس فإنّه لن يمتلك القدرة على هذا الفعل.

إنّ سبب هذا النوع من الخجل هو أنّ الإنسان قد افترض في نفسه ضعفًا موهومًا. ومن جانبٍ آخر، فإنّ هذا الحكم الخاطئ واستصغار النفس يصبح منشأً ليرى الإنسان في نفسه هذا النقص، ولهذا فإنّه يخفيه عن أعين الآخرين. كذلك قد لا يطرح الإنسان أسئلته التي تعبّر عن نقصٍ في معلوماته لئلّا يظهر جهله عيانًا، مثل التلميذ في الصفّ الذي لا يطرح أسئلته على المعلّم ظنًّا منه أنّه بهذا الفعل قد اعترف بجهله وسوف يلاحظ الآخرون نقصه. والحالة الأسوأ هي حين يُسأل شيخٌ معمّم سؤالًا ولا يعرف الإجابة عنه وبدل أن يقول بصراحة «لا أعلم» فإنّه يخجل، فمثل هذا الخجل سيّئٌ جدًّا. صحيح أنّه إذا اعترف بجهله فسوف يلتفت الآخرون إلى نقصه، لكن هل ينبغي له أن يعطي جوابًا خاطئًا ويضلّ السائلين لمجرّد أنّه لا يريد للآخرين أن يطّلعوا على جهله؟ إنّ هذا الفعل يؤدّي بالإنسان إلى أن يُبتلى

بعيبٍ أكبر. فإذا كان الجهلُ نقصًا، ولم يرِد الإنسان للآخرين وخصوصًا أولئك الذين يتوقّعون منه أن لا يكون جاهلًا بمثل هذه المسائل أن يطّلعوا على هذا النقص فيه، فاختار تقديم إجابة خاطئة على الإقرار بجهله، فإنّه سوف يوقع الآخرين بالمعصية ويكون شريكًا في ذلك.

لقد تمّ التاكيد على هذا الأمر في الكثير من الروايات وهي أنّه لا ينبغي للإنسان أن يُبدي رأيه في الأمور التي لا يعلمها. ومن الوصايا التي ذكرها الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا سئلت عمّا لا تعلم فقل: لا أعلم[1]. وقد كان المرحوم العلامة الطباطبائي هكذا، فقد كان يسعى عمليًّا أن يعلّم تلامذته هذه القضيّة. ففي العديد من المرّات حين كنّا نطرح عليه سؤالًا، كان يُجيب بصراحة «لا أعلم». في بعض الحالات، كان يتأمّل قليلًا ويقول انظروا يمكن الإجابة بهذه الطريقة. لقد كان يتعمّد أن يقول كلمة «لا أعلم». وهذا في نفسه هو نوع من مجاهدة النفس التي تُنقذ الإنسان من السقوط في ورطة العجب والرياء.

بناءً عليه، إنّ النكوص في الإجابة عن السؤال في القضايا الواجبة وكذلك النكوص في قول «لا أعلم» حين لا يعلم الإنسان، كلاهما أمرٌ مذموم ولا يُعدّ أيّ منهما من مصاديق الحياء المطلوب. بالطبع، لا إشكال في إخفاء العيب بحدّ ذاته في بعض الحالات، بشرط أن لا يُبتلى الإنسان بالمعصية وأن لا يؤدّي إلى منع الإنسان من الأعمال الحسنة. فمثلًا إذا خجل الإنسان بسبب نقصٍ عضويّ من الظهور في المجتمع، فسوف يحرم نفسه من الكثير من الكمالات ويُبتلى بنقائص أشدّ. وفي المجموع يمكن القول إنّ منشأ الخجل المذموم هو أحد الحالات التالية:

إمّا أنّ يتصوّر الإنسان نقصًا وضعفًا في نفسه لا وجود له، فيمكنه بالتمرين والممارسة أن يتغلّب على ضعفه الموهوم ونقصه المتخيّل. الحالة الأخرى، هي أن يكون الإنسان مبتلًى بنقصٍ واقعيّ، لكن إذا عمل على إخفاء هذا النقص فسوف يؤدّي ذلك إلى ابتلائه بنقائص أشدّ وربّما تكون من الكبائر، كأن يقدّم إجابة خاطئة

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١١٤. نص الحديث: عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يُوصِيهِ خُذْ مِنِّي خَمْسًا: لَا يَرْجُوَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا رَبَّهُ وَ لَا يَخَافُ إِلَّا ذَنْبَهُ وَلَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَلَا يَسْتَحْيِي إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لَا أَعْلَمُ .

بدل أن يقول «لا أعلم». والمورد الآخر هو المورد الذي لا يؤدّي النقص فيه إلى معصية، لكنّه يكون مانعًا من تحصيل الكمالات الإنسانيّة. فلو أطلقنا على هذه الحالات والموارد عنوان الحياء لكانت كلّها من مصاديق الحياء المذموم.

لكن لا يوجد إشكال في عدم رغبة الإنسان باطّلاع الآخرين على عيوبه، من دون أن يكون لذلك عواقب سيّئة على نفسه وعلى الآخرين، بل ربّما يكون هذا الأمر مستحسنًا. فأولئك الذين يكون لديهم الكثير من الحياء لا يحبّون حتّى هم أنفسهم أن يلتفتوا إلى ذلك العيب الموجود فيهم، فمثلًا لو كان صدر منهم في السابق سلوكٌ قبيح فإنّهم لا يريدون أن يتذكّروه، فهم يخجلون من مجرّد تذكّر الفعل القبيح الذي صدر منهم سابقًا. إنّ هذه الحالة هي صفةٌ حسنة لأنّها تؤدّي بالإنسان إلى أن لا يكرّر مثل هذا الفعل القبيح لئلّا يلاحظ الآخرون ويخجل مرّة أخرى.

أفضل الحياء

السؤال المطروح هنا هو: هل على الإنسان أن يخجل من الناس فقط أو أنّ هناك حياءً مطلوبًا أمام الله؟ وفي الإجابة، ينبغي أن نقول إنّ مرتبة الحياء وقيمته ترتبط: أوّلًا بمدى قبح الفعل الذي يخجل منه الإنسان، وثانيًا بدرجة التفات الإنسان إلى قبحه، وثالثًا بالشخص الذي ارتكب أمامه هذا الفعل القبيح، أي مدى أهميّة واعتبار الشخص، الذي شاهده يقوم بذاك الفعل القبيح لديه. أولئك أصحاب الإيمان الضعيف ويغفلون عن حضور الله تعالى في جميع شؤون حياتهم لا يخجلون من الله. فشرط الخجل هو أن يعلم الإنسان أنّ هناك من شاهد فعله القبيح. لهذا، إنّ مجرّد علم الإنسان بحضور الله في كلّ مكان من دون الالتفات إلى هذا الحضور كما ينبغي، لا يؤدّي إلى خجله من الله عند ارتكاب المعصية. فكلّما التفت الإنسان إلى حضور الله وأدرك عظمته، سيزداد خجلًا عند ارتكاب الأعمال القبيحة. إنّ الإنسان يعطي القيمة الأكبر لأولئك الذين يتمتّعون بالمقامات العليا أو الموقعيّات الاجتماعيّة المميّزة، ومن هنا إذا ارتكب فعلًا قبيحًا في حضورهم فسوف يخجل أكثر. أمّا لو ارتكب هذا الفعل أمام الأطفال أو أولئك الذين ليس لهم تلك الموقعيّة الاجتماعيّة أو الأصدقاء الذين لا يوجد بينه وبينهم أي كُلفة، فإنّ خجله يكون أقلّ. وقد يخجل الإنسان أحيانًا حتّى من الطفل إذا اطّلع على فعله القبيح، لكنّه مع ذلك

لا يخجل من الله تعالى إذا رأى ذلك! كلّ هذا بسبب أنّنا لم ندرك عظمة الله.

يجب علينا أن نستغفر من مثل هذه الحالة، وهذا هو الاستغفار الذي يُسمّى في الأدعية والروايات باستغفار الحياء. فنحن نقرأ في الدعاء بعد زيارة الإمام الرضا عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ اسْتِغْفَارَ حَيَاء»[1]. فلو التفت الإنسان العاصي إلى اطّلاع الله على فعله القبيح وخجل بسبب ذلك وقرّر أن لا يكرّر هذه المعصية، يكون قد قام بأفضل استغفار.

فكيف يمكن للإنسان أن يرتكب عملًا في محضر الله الذي لا نهاية لعظمته ولا منتهى لاحتياج الإنسان إليه، وهذا الفعل قد نهى الله عنه ومع ذلك لا يخجل؟! فأفضل الحياء هو الحياء من الله، ومن ثمّ الحياء من ملائكة الله. فنحن جميعًا نعتقد أنّ هناك ملكين ناظرين وهما يكتبان أعمالنا في الخلوات والجلوات. والآن كيف يُمكن أن نرتكب القبيح والسيّئ مع علمنا بحضورهم ولا نخجل؟

بالطبع، يجب الالتفات إلى أنّ العرف قد يعتبر بعض الأعمال قبيحةً بسبب نوع العلاقات الموجودة بين الناس، في حين أنّ هذه الأعمال لا تكون قبيحة في الواقع. وكمثالٍ على ذلك، إنّ تواجُد الإنسان باللباس الداخليّ أمام الآخرين يُعدّ في عرف المجتمع عملًا قبيحًا، لذا يجب على الإنسان أن يخجل من القيام بمثل هذا العمل؛ لكن لا ينبغي للإنسان أن يخجل إذا ما كان في مكانٍ لا يراه فيه الآخرون كالمنزل مثلًا بحجّة أن الله ناظرٌ إلى أعماله، فيُتعب نفسه ويمتنع عن القيام بأعمال مثل الاستحمام، لأنّه يستلزم التعرّي. فلو اطّلع أحدٌ عليه في مثل هذه الحالة لكان أمرًا قبيحًا، لكن لو رأى الله الإنسان في هذه الحالة فلا قبح في ذلك لأنّ الله يستطيع أن يرى بدن الإنسان في كلّ الحالات سواء كان يرتدي لباسه أو لم يكن؛ فهو محيطٌ بكلّ شيءٍ، بالباطن والقلب والخواطر. في مثل هذه الحالة، لا معنى للخجل من الله؛ ولكن ينبغي له الخجل من الله حين يقوم بفعل قد نهاه عنه الله وعدّه قبيحًا. فالقيام بالعمل الذي أمر الله به ليس فيه خجل. وهناك الكثير من الأمور التي لو فعلناها أمام الآخرين لكانت قبيحة، لكن إذا كانت على مرأى من الله لا تكون قبيحة. وقد جاء في أحد الروايات أنّ موسى عَلَيْهِ‌السَّلَامُ كلّم الله قائلًا: «يا

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٩، الصفحة ٥٦.

ربي إنّني أخجل في بعض الحالات أن أتوجّه إليك وأذكرك في قلبي، فأجابه الله: يَا مُوسَى إِنَّ ذِكْرِي حَسَنٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1].

في بعض الحالات التي يظنّ الإنسان أنّها من أقبح الحالات، يستحبّ للإنسان أن يبدأ عمله بذكر الله. فذكر الله ليس قبيحًا في أيّ حالة من الحالات، خصوصًا بالالتفات إلى أنّنا لا نستطيع أن نُخفي أيّ شيءٍ عن ربّنا. ينبغي أن نخجل من فعل شيء أمام إنسان يكون هذا الشيء قبيحًا بنظره. كذلك من الممكن أن يكون فعلٌ ما قبيحًا بالنسبة لشخصٍ، لكنّه بالنسبة لشخصٍ آخر ليس كذلك. فمثلًا إنّ العلاقة بين الزوجين ليست قبيحة، لكنّها إذا كانت مع شخصٍ آخر فهي قبيحة. فداخل العلاقات الزوجيّة لا معنى للحياء والخجل، لأنّ هذا النوع من الخجل مذموم.

بناءً عليه، فإنّ الحياء هو أحد أفضل الأخلاق الإنسانيّة وأكثرها تأثيرًا، لأنّه يمنع الإنسان من الابتلاء بالأفعال القبيحة. إنّ أفضل شيءٍ يمكن أن يحفظ الإنسان من القذارات والمعاصي هو الحياء، وقد جاء في الروايات: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ»[2]، «ولاَ حَيَاءَ لِمَنْ لاَ دِينَ لَه»[3].

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحة ٣٤٣. نص الحديث: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ أَنَّ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: إِلَهِي إِنَّهُ يَأْتِي عَلَيَّ مَجَالِسُ أُعِزُّكَ وأُجِلُّكَ أَنْ أَذْكُرَكَ فِيهَا، فَقَالَ: يَا مُوسَى إِنَّ ذِكْرِي حَسَنٌ عَلَى كُلِ حَالٍ.

(٢) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٠٦.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحة ١١١.



الدرس الثامن والعشرون

محبّة أهل البيت (ع) ركن الإسلام المحكم

- محبّة أهل البيت (ع) أساس الإسلام
- تبيين علاقة الدين بمحبّة أهل البيت (ع)
- محبّة أهل البيت أجر الرسالة وأساس الهداية
- ذكرى أحد محبّي أهل البيت: المرحوم الطيّب
- تفسير المنافقين بأعداء أهل البيت (ع)

«وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الْإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، يَا ابْنَ جُنْدَبٍ إِنَّ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سُورًا مِنْ نُورٍ مَحْفُوفًا بِالزَّبَرْجَدِ وَالْحَرِيرِ مُنَجَّدًا بِالسُّنْدُسِ وَالدِّيبَاجِ يُضْرَبُ هَذَا السُّورُ بَيْنَ أَوْلِيَائِنَا وَبَيْنَ أَعْدَائِنَا فَإِذَا غَلَى الدِّمَاغُ وبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنُضِجَتِ الْأَكْبَادُ مِنْ طُولِ الْمَوْقِفِ أُدْخِلَ فِي هَذَا السُّورِ أَوْلِيَاءُ اللهِ فَكَانُوا فِي أَمْنِ اللهِ وَحِرْزِهِ، لَهُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَعْدَاءُ اللهِ قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ وَقَطَعَهُمُ الْفَرَقُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ فَيَقُولُونَ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾[١] فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ فَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[٢] وَقَوْلُهُ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۞ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾[٣] فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ مِمَّنْ أَعَانَ مُؤْمِنًا مِنْ أَوْلِيَائِنَا بِكَلِمَةٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[٤].

محبّة أهل البيت (ع) أساس الإسلام

في هذه الجلسة، سنمرّ إن شاء الله على القسم الأخير من هذه الرواية الشريفة.

---

(١) سورة ص، الآية ٦٢.

(٢) سورة ص، الآية ٦٣.

(٣) سورة **المطففين**، الآيتان ٣٤ و٣٥.

(٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٥، الصفحتان ٢٨٥ و٢٨٦.

إنّ ما يُشير إليه الإمام في هذا المقطع هو: «**وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الْإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**».

فكما أنّ البيت له أركانٌ وأعمدة، فأساس الإسلام هي محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ. فإذا كان للبناء أسسٌ محكمةٌ يمكن أن يستقرّ لسنواتٍ مديدة. ويمكن لمثل هذا البيت أن يصبح على مرّ الزمان متّسخًا بظاهره ومتكدّرًا ويعتري جدرانه الخراب، لكن بما أنّ أسسه محكمةٌ فمن الممكن بشيءٍ من الإصلاح والألوان والتزيين أن يرجع نظيفًا ومرتّبًا. أمّا إذا لم تكن أركانه وأسسه محكمةً، فمهما صبغناه وزيّناه فلن يكون هناك من فائدة، بل سوف ينهار على جرفٍ هارٍ. فللإسلام بحسب هذه الرواية ركنٌ لو كان محكمًا وراسخًا لبقي بناء الفرد والمجتمع راسخًا وإن كان سيواجه الأحداث والآفات وربما يتعرّض ظاهره لبعض الأضرار.

ما هو مهمّ هنا هو أن نحقّق ونفسّر هذا المطلب وهو: لماذا تُعدّ محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ ركن الإسلام وأساسه؟ لهذه القضيّة مقام إثبات ومقام ثبوت. فمقام الإثبات: ما هي الآيات والروايات والأدلّة الموجودة على هذا الأمر، فهذه الرواية نفسها تُعدّ سندًا ودليلًا على أنّ أساس الإسلام هو محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ. كما أنّه يوجد آياتٌ ورواياتٌ أخرى في هذا المجال. أمّا مقام الثبوت، فيعني شرح هذه القضيّة وهي: كيف تكون محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ هي أساس الإسلام؟ فلماذا يكون أساس دين الإنسان واهنًا ومتزلزلًا مع عدم وجود محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ ومودّتهم؟

وأكثر ما يهمّنا من هذين المقامين (الإثبات والثبوت) هو مقام الثبوت. فبغضّ النظر عن الأدلّة التي تُثبت هذه القضيّة، فما هو مهمّ هو أن نعرف لماذا وكيف كانت مثل هذه العلاقة بين الإسلام ومحبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ من الناحية الثبوتيّة؟

تبيين علاقة الدين بمحبّة أهل البيت (ع)

لقد جاء الدين في الأساس لأجل إيجاد الرابطة بين الإنسان والله. فارتباط الإنسان بالله سيكون في الحدّ الأدنى تحت تأثير عاملين هما المعرفة والعاطفة. ففي البداية، يتعرّف الإنسان على أنّ هذا العالم له خالقٌ وإله، ويدرك أنّ لهذا العالم

وليّ نعمةٍ، وكلّ النعم التي تصل إلى الإنسان منه. وبعد هذا وفي المرحلة الثانية ينبغي أن تتشكّل في قلبه محبّةٌ تجاه هذا الخالق ووليّ النعمة. فلو تشكّلت المعرفة والمحبّة في وجود الإنسان، فإنّ الأرضيّة اللازمة لارتباط الإنسان بربّه (والتي تُعدّ هدف الدين) تكون قد تأمّنت.

أمّا النقطة المهمّة هنا هي أنّ هذا الحدّ من المعرفة والعاطفة لا يكفي لأجل أن يبني الإنسان حياته على أساس عبادة الله الصحيحة والصراط المستقيم. فعلى مرّ التاريخ كان هناك الكثيرون الذين كانوا يعرفون الله وكان في قلوبهم محبّةٌ لله، لكنّهم كانوا يحملون أفكارًا وعقائد منحرفةً وباطلةً. وبحسب تصريح **القرآن الكريم** فإنّ عبّاد الأصنام كانوا يتوجّهون إلى الله أيضًا ويطلبون التقرّب منه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]. كذلك نقل على لسان المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2].

بناءً عليه، فإنّ مجرّد معرفة الله ووجود علقة المحبّة في القلب وإرادة التقرّب منه لا تكفي لأن يكون الإنسان على الصراط المستقيم ولأن يصل إلى السعادة، بل ينبغي أن نتعرّف إلى الطريق الذي يقرّبنا إلى الله. من هنا، فإنّ قضيّة النبوّة تُطرح مباشرةً بعد قضيّة التوحيد. فقد أرسل الله أنبياءه لكي يعرّف الناس على الطريق الصحيح للتقرّب إليه.

إنّ مجيىء الأنبياء لوحده لا يكمّل قضيّة الهداية. فنحن نجد أشخاصًا كانوا يدّعون اتّباع الأنبياء، لكنّهم كانوا على مذاهب وفرق ومسالك مختلفة. فلدينا في الإسلام ٧٢ نِحلة، كلّ واحدةٍ تحمل آراءً وعقائد وطرقًا مخلتفة وأحيانًا متضادّة ومتناقضة والكلُّ يدّعي الإسلام واتّباع النبيّ الخاتم. بناءً عليه، فلأجل إتمام قضيّة الهداية، هناك تكملة ضروريّة. ومن هنا، جعل الله بعد كلّ نبيٍّ أوصياء وخلفاء لكي يرجع الناس إليهم بعد النبيّ ويلوذوا بهم. وفي الإسلام أيضًا جعل الله للنبيّ الأكرم خلفاء، كانت سيرتهم وأقوالهم هداية وقدوةٍ للمسلمين بعد هذا النبيّ. هنا، يتّضح لماذا كان أساس الإسلام محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وماهيّة الرابطة الموجودة ثبوتًا بين بقاء الإسلام ومحبّة أهل البيت.

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣.

(٢) سورة **يونس**، الآية ١٨.

محبّة أهل البيت (ع)، أجر الرسالة وأساس الهداية

يمكن أن ندّعي بكلّ جرأة أنّ أكثر من ٩٠ بالمئة ممّا نعرفه نحن الشيعة عن الإسلام قد وصلنا عن طريق أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. ومثل هذا القضيّة تنطبق أيضًا على سائر الفرق المسلمة، وإن كانوا يجهلون هذا الأمر أو يغفلون عنه. من هنا، يمكننا القول إنّ أكبر نعمةٍ إلهيّةٍ مَنَّ الله بها على أمّة آخر الزمان، بعد النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، هي نعمة وجود الأنوار المقدّسة لأهل البيت المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فهم قد بيّنوا معارف الإسلام وحقائقه للناس على مدى ثلاثة قرون، وكذلك وبالالتفات إلى الظروف الزمنيّة المختلفة في ذلك العصر، فقد قدّموا لأتباعهم نماذج عمليّة للتعامل مع الظروف الاجتماعيّة المختلفة.

يقول الله تعالى في **القرآن الكريم** مخاطبًا النبيّ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. من المسلّم أنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يكن يريد من الناس أجرًا على الرسالة، بل كلّ ما كان يبتغيه من الناس هو هدايتهم وتحرّكهم على الصراط المستقيم. والله تعالى يعلم أنّ هذه الهداية لا تتحقّق من دون وجود أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والتمسّك بهم. قارنوا هذه الآية المذكورة مع هذه الآية التي تقول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[2]. ضعوا هاتين الآيتين جنبًا إلى جنب فيتّضح لكم جيّدًا أنّ مسير الهداية وسبيل الربّ يمرّ عبر محبّة أهل البيت ومودّتهم والتمسّك بهم. بالطبع، إنّ هذا في الواقع هو عين محبّة الله التي تتجلّى في وجود النبيّ وأهل بيته في المرتبة الأدنى. فحبّنا للنبيّ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يرجع إلى القرابة والنَّسب وأمثالها، بل لأنّهم عباد الله الصالحون الذين بلغوا المرتبة القصوى من العبوديّة. فهذه المحبّة هي شعاع تلك المحبّة التي نحملها تجاه الله والتي تتشكّل على ضوئها، وإنّ معرفتنا ومحبّتنا لله تؤدّي إلى محبّة أهل البيت ومعرفتهم.

لو أردنا أن تبقى محبّتنا لله ومعرفتنا به صحيحة في قلوبنا، وتكون مصباح هداية طريق حياتنا في هذه الدنيا وسببًا لنجاتنا وسعادتنا وهدايتنا، ينبغي أن

---

(١) سورة **الشورى**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٥٧.

تتلازم هذه المحبّة وهذه المعرفة مع محبّة النبيّ وأهل بيته عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ ومعرفتهم. يخاطب الله تعالى في كتابة العزيز نبيّه الأكرم ويقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾[1]. فإنّ شرط الصدق في إظهار محبّة الله هو اتّباع النبيّ. وكمال اتّباع النبيّ هو باتّباع أهل البيت الذي جعله الله تحت عنوان أجر الرسالة، وقد أُمرنا بالتمسّك بهم في حديث الثقلين: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي»[2].

بناءً عليه، لو أردنا أن يستقرّ إسلامنا وديننا ولا يتزلزل في أعاصير الفتن والحوادث ولا يتهاوى، يجب أن نجعل محبّة أهل البيت ومودّتهم والتمسّك بذواتهم المقدّسة على رأس الأمور.

ذكرى أحد محبّي أهل البيت: المرحوم الطيّب

نحن الأشخاص العاديّون لسنا معصومين، من الممكن أن يضعف ديننا ويبهت على أثر آفّة المعصية والفتن الأخرى. ففي هذه الحالة، إذا كان بيت ديننا قائمًا على أساسٍ محكم، والذي هو عبارة عن محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ، يمكننا أن نخرج سالمين من هذه المخاطر ونجبر النواقص التي طرأت. أمّا إذا كان أساس ولايتنا ومحبّتنا لأهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ ضعيفًا لا سمح الله أو جعلناه في معرض الضعف والوهن، فعلينا أن نخشى عاقبة أمرنا.

وفي هذا المجال، هناك شواهد تاريخيّة كثيرة. هناك أشخاصٌ انحرفوا أوّلًا في العمل، وربما ابتلوا لمدّةٍ طويلة ببعض الذنوب الكبيرة، ولكن لأنّ حبّ أهل البيت كان حيًّا في قلوبهم وُفّقوا في النهاية للتوبة ونجوا. ومن جانبٍ آخر، نشاهد أشخاصًا كانوا بحسب الظاهر في الدين والعبادة والصيام والصلاة والقرآن صالحين، لكن بسبب ضعف وخفوت ولاية ومحبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ في قلوبهم سقطوا في ورطة الهلاك ولم يكن لهم عاقبة حسنة. وإن لم أكن أريد في هذا المجال أن أذكر أسماءً، لكن لديّ هنا ذكرى عن المرحوم الطيّب.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٣١.

(٢) الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة** (قم: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة ٢، ١٤١٤هـ)، الجزء ٢٧، الصفحة ٣٤.

لقد كان المرحوم الطيّب محبًّا جدًّا لأهل البيت وخصوصًا لسيّد الشهداء عَلَيهِ‌السَّلَامُ. كانت مجموعة الطيّب في يوم العاشر في طهران معروفة. فقد كان محبًّا جدًّا للإمام الخميني قائد الثورة الكبير، وقد نهض في الخامس عشر من شهر خرداد للدفاع عن الإمام. وكانوا يعتقلونه كلّ حين ويرمونه في السجن. قال له النظام والمخابرات إذا قلت إنّك أخذت المال من الخميني لكي تقوم بمثل هذه الأمور فسوف نحرّرك. وكان هذا أمرًا واقعيًّا، وكان ربما سيصل إلى بعض المال والمنال كآخرين. لكن المرحوم الطيّب لم يكن مستعدًّا لفعل ذلك، وقال إنّني قد فعلت ذلك لأجل الله ولست مستعدًّا أن أقول شيئًا ضدّ الإمام. وفي النهاية أمروا بشنقه واستشهد.

بعد هذه الحادثة، شاهد أشخاص عديدون الطيّب في منامهم حيث كان في حالةٍ ممتازة، ونقلوا عنه الكثير من القصص ومنها أنّه بعد اليوم الذي أعدم فيه الطيّب جاءنا أحد الأصدقاء وقال أريد أن أتفاءل بالقرآن بشأن الطيّب، وقلت له إنّ القرآن ليس كتابًا للفأل. لكن هذا الصديق أصرّ، ففتحت القرآن، ويشهد الله أنّ بداية الصفحة كانت كلمة الطيّب، وقد جاءت هذه الآية الشريفة: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1]. وإن كان المرحوم الطيّب قد عانى من بعض المشاكل في أعماله وسلوكيّاته في حياته وكان هناك نقائص معيّنة في شخصيّته، لكن محبّته لأهل البيت أخذت بيده وختمت له بحسن العاقبة.

ومن جانبٍ آخر، شاهدنا أشخاصًا في هذه الثورة كان لهم مكانة علميّة واجتماعيّة مميّزة، لكنّهم انحرفوا وحدثت لهم أمور وصدرت عنهم تصريحات وحركات لا يمكن أن يصدّقها أحد. لو تأمّلتم لالتفتم إلى أنّ أصل ذلك يرجع إلى بعض التقصيرات بشأن أهل البيت عَلَيهِمُ‌السَّلَامُ، وخصوصًا السيّدة الزهراء عَلَيهَا‌السَّلَامُ وسيّد الشهداء عَلَيهِ‌السَّلَامُ، فلم يكونوا يؤدّون حقّ المحبّة بشأن أهل البيت عَلَيهِمُ‌السَّلَامُ كما ينبغي.

وعلى أيّ حال، يجب الالتفات إلى أنّ الإنسان إذا أكثر من المعصية وتلوّث وعاء وجوده أكثر من الحدّ، فإنّ هذا الخطر سيكون محدقًا به وهو أنّ محبّة أهل

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ١٠.

البيت عَلَيهِمُ‌السَّلَامُ ومودّتهم يمكن أن تزول من صفحة قلبه بالكامل.

تفسير المنافقين بأعداء أهل البيت (ع)

يشير الإمام في تتمّة هذه الرواية إلى سورٍ سيوضع يوم القيامة بين المؤمنين والمنافقين، وقد ذكره القرآن في سورة **الحديد**. فالسوْر هو الجدار المرتفع. يقول القرآن: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[1]. النقطة الملفتة في هذه الآية هي أنّ القرآن يقول إنّ هذا السور سيوضع يوم القيامة بين المؤمنين والمنافقين، وليس بين المؤمنين والكافرين. فللكفّار حسابهم المعروف، والحديث عن المنافقين الذين كانوا في هذه الدنيا بحسب الظاهر على مسير واحد مع المؤمنين وكانوا يأتون إلى المسجد ويقرأون القرآن ويصلّون ويلازمون المسلمين، وكما يُقال كانوا يجلسون معهم على مائدةٍ واحدة، لكنّهم يوم القيامة ينفصلون عنهم، وذلك اليوم هم بحسب تعبير القرآن ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[2]، ويضيف الإمام الصادق عَلَيهِ‌السَّلَامُ: «**وَنُضِجَتِ الأَكْبَادُ**». وباختصار، فإنّه يومٌ ينزل به العذاب من كلّ جهة من الأرض والسماء، من فوق ومن تحت. ففي مثل هذه الأوضاع والأحوال، يقول القرآن إنّ سورًا ينشأ. ويقول الإمام الصادق عَلَيهِ‌السَّلَامُ في هذه الرواية إنّ ذاك السور هو من نور. هو سور يطّلع المؤمنين من جهة فيه على الجهة الأخرى ليشاهدوا المنافقين، ولكن من الجهة المقابلة لا يمكن حصول الرؤية. فافرضوا أنّ هناك شيء يُشبه الزجاج العاكس الذي يصنعونه اليوم، فهو يفصل بين فئتين: المؤمنين والمنافقين.

يقول الإمام في هذه الرواية إنّ المؤمنين هم المحبّون لأهل البيت والذين خدموا أولياءهم ومحبّيهم بسبب محبّتهم لهم، ومن جهة فإنّ المنافقين كما يقول الإمام هم أعداؤنا أهل البيت.

وبعد أن يفصل هذا الجدار المرتفع بين المؤمنين والمنافقين يقول المنافقون

---

(١) سورة **الحديد**، الآيتان ١٣ و١٤.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ١٠.

ما الذي حصل؟ فأين هؤلاء الذين كانوا معنا في الدنيا، وإلى أين ذهبوا بحيث لم نعد نراهم؟ فيأتي النداء من ذاك الطرف ويُقال للمؤمنين ألم نكن معكم؟ فيجيب المؤمنون أجل، ولكنّكم أوقعتم أنفسكم بأيديكم في الهلاك، وكنتم تؤجّلون وتسوّفون وقد خدعتكم الدنيا بآمالها التي لا تُحصى.

وبالالتفات إلى هذه الرواية، يُعلم أنّ ملاك الإسلام الواقعيّ والظاهريّ (النفاقيّ) هو بوجود محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وعدمه. وباختصار، لكلّ شيءٍ أساس وأساس الإسلام هو محبّة أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ: «**وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الْإِسْلَامِ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**». فلو وُجدت هذه المحبّة سيستقرّ بناء الإسلام، وإن كان من الممكن أن يتعرّض بابه أو جدرانه للخراب ويُثقب سقفه، لكن بما أنّ الأساس محكم فإنّ كلّ خراب قابل للترميم والجبران. فلو ضعف الأساس لن تكن عاقبة مثل هذا البيت إلّا الوقوع على رأس صاحبه وإن كان الجدار والأبواب نظيفة وملوّنة ومزيّنة.

نسأل الله تعالى أن يحفظ لنا هذه الذخيرة العظيمة لمحبّة وولاية أهل البيت عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى يوم القيامة وأن لا يُخرج ذلك من قلوبنا أبدًا.

■ سلسلة الأعمال الكاملة ■

آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

صدر منها:

١- العروج إلى اللامتناهي

إعداد: السيد محمد رضا غياثي كرماني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.

١٤٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٢- ذكر الله

إعداد وتقرير: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.

١٠٠ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٣- زاد المسير

تدوين وتحقيق: السيد كريم السبحاني.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.

٦١٦ صفحة، ٢١/١٤ سم.

٤- الموعظة الخالدة

تدوين وتحقيق: السيد علي زينتي.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.

٦٠٦ صفحات، ٢١/١٤ سم.

٥- على أعتاب الحبيب

تدوين وتحقيق: السيد عباس قاسميان.
ترجمة: السيد عباس نور الدين.

٢٠٤ صفحات، ٢١/١٤ سم.

٦- وصايا الإمام الصادق (ع) للسالك الصادق

ترجمة: السيد عباس نور الدين.

٣٢٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

وصايا الإمام الصادق (ع)
للسالك الصادق

يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَقَدْ نَصَبَ إِبْلِيسُ حَبَائِلَهُ فِي دَارِ الْغُرُورِ فَمَا يَقْصِدُ فِيهَا إِلَّا أَوْلِيَاءَنَا، وَلَقَدْ جَلَّتِ الآخِرَةُ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى مَا يُرِيدُونَ بِهَا بَدَلًا.. آهٍ آهٍ عَلَى قُلُوبٍ حُشِيَتْ نُورًا وَإِنَّمَا كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشُّجَاعِ الْأَرْقَمِ وَالْعَدُوِّ الْأَعْجَمِ، أَنِسُوا بِاللَّهِ وَاسْتَوْحَشُوا مِمَّا بِهِ اسْتَأْنَسَ الْمُتْرَفُونَ، أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا وَبِهِمْ تُكْشَفُ كُلُّ فِتْنَةٍ وَتُرْفَعُ كُلُّ بَلِيَّةٍ.

يَا ابْنَ جُنْدَبٍ، حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَعْرِفُنَا أَنْ يَعْرِضَ عَمَلَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ مُحَاسِبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى حَسَنَةً اسْتَزَادَ مِنْهَا وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ مِنْهَا لِئَلَّا يَخْزَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، طُوبَى لِعَبْدٍ لَمْ يَغْبِطِ الْخَاطِئِينَ عَلَى مَا أُوتُوا مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، طُوبَى لِعَبْدٍ طَلَبَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا، طُوبَى لِمَنْ لَمْ تُلْهِهِ الْأَمَانِيُّ الْكَاذِبَةُ.. رَحِمَ اللَّهُ قَوْمًا كَانُوا سِرَاجًا وَمَنَارًا، كَانُوا دُعَاةً إِلَيْنَا بِأَعْمَالِهِمْ وَمَجْهُودِ طَاقَتِهِمْ، لَيْسَ كَمَنْ يُذِيعُ أَسْرَارَنَا.


ISBN 978-614-440-108-8


دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah